كتاب الأمة

٨

نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

عمر عبيد حسنه

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

عمر عبيد حسنه

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
لرئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولة قطر

الأمة
Al Ummah

سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.

نظرات في

مسيرة العمل الاسلامي

المحرم ١٤٠٥هـ

قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (الأنعام ١٠٤)

تقديم

بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالي

■■ ارتقت وسائل الإعلام في العصر الحاضر وقطعت آماداً فسيحة في اجتذاب النفوس وصياغة الأفكار ، وتوسلت بها مذاهب مفلسة أتقنت فن الدعاية حتى بدت وكأنها على جانب كبير من اليسار . . !

والغريب أنك تبحث عن الإعلام الإسلامي وسط هذا السباق المحموم فلا تجد إلا نفراً قلائل يتحركون بدأب ، ويتحملون بجلد ، ويستميتون في عرض الحق وسط ميدان كثرت فيه ألاعيب السحرة ، وغابت عنه عصا موسى . .

ولذلك تسمع طنيناً للباطل لا ينتهي ، وأنيناً للحق لا ينقطع . .

وكان المفروض أن يكون الإعلام الإسلامي أندى صوتاً وأرحب ساحة لأنه يقوم بدءاً على كتاب معجز البيان ، ورسول أوتي جوامع الكلم واختُصرت له المعاني اختصاراً . . .

والواقع أن المدّ الإسلامي الأول كان وحياً يصنع الرجال ، وتعليمًا يفتق الألباب ، وريادة نفسية واجتماعية تفرش أشعتها على مساحات رحبة ومسافات بعيدة بين أيدي المسلمين ، كما تكشف الطريق مصابيح السيارة المنطلقة ، فهي تمضي إلى غايتها على بصيرة . .

وقد بلغ من نجاح الإعلام الإسلامي قديماً أن الأعداء كانوا ينهزمون أمامه على مسيرة شهر ! وأن جلال الإيمان قَسَّمهم على أنفسهم فما يلقونه إلا وأمرهم فرط وأفئدتهم هواء . .

إن سيطرة الإسلام على الأفكار والمشاعر سبقت قدرته الحربية على مقارعة

الضلال ، ومن ثم أحسَّ معارضوه أن مقاومته تشبه مقاومة النهار الطالع ، أو إمساك الليل المدبر ! ألا ما كان أعظم هذا النجاح . . .

إنه نجاح أسهمت في إحرازه أجهزة الدولة وقوى الأمة معاً ، وقد كانا في صدر تاريخنا كياناً واحداً ، وبقي هذا النجاح متفاوت الألق قرابة ألف عام ، وإن كان نصيب الشعوب الإسلامية في استبقائه أكثر وأرجح من السلطات الرسمية . .

حتى جاءت القرون الأخيرة فإذا نحن مع الناس كما قال الطغرائي :

تقدمتني أناس كان شأوهم وراء خطوي لو أمشي على مهل !

ولا مكان لمفاخرة أو منافرة ! فإن الدعايات الناجحة لا تنطلق من فراغ ، وإنما تساندها جماهير تكدح ، وصفوة ترسم وتقود ، وذاك ما أعوز أمتنا في عصرها الحاضر .

أما خصومنا فقد استقامت أمورهم على نحو مثير ، وليس يرجع تفوقهم العسكري إلا تفوقهم المدني ، وليس يشبه حماسهم لأسباب القوة إلا حماسنا نحن لأسباب الضعف !

ولقد برعوا في خدمة مواريثهم ونحن لا ندري ما الكتاب ولا الإيمان ؟ فكيف نحسن الجهاد لهما وما أحسنا معرفتهما ؟؟

كانت الصحف التي تخدم التنصير والاستشراق قوية الأداء ، وكانت المقالات التي تنشر في صحف أخرى شديدة المكر مكينة الحقد ، أما الكتابات الدينية عندنا فكان ينقصها الموضوع والأداء جميعاً ! ولا أذكر أنه في شبابي الباكر كانت هناك صحافة دينية ذات وزن . .

نعم ، ولدت مجلات أدبية رفيعة المستوى كمجلة «الرسالة» بيد أن تيارات الغزو الثقافي كانت أقوى منها فعصفت بها وبمثيلاتها ، وخلت الأسواق للصحف «العلمانية» .

ولنعترف بأنها صحف غنية بفنون القول والتوجيه ، فيها المقال ، والخبر ، والتعليق ، وفيها القصة والعبرة والصورة ، وتستطيع أن تقرأ السطور وما بين السطور ! بل تستطيع أن ترى العالم أمامك بجده وهزله وخيره وشره . .

ومن خلال هذه الصحافة الذكية استطاعت الجماعات المشرفة عليها أن تلف كتل الجماهير حول ما تريد ، وأن تمحو وتثبت كيف تشاء ، وأن تنجح قضايا وتحبط أخرى ، وأن تصنع الحماس حيناً والبرود حيناً آخر حتى انتهت أمتنا الكبرى إلى ما انتهت إليه !

ربما وجدت في الميدان الديني صحف تنشر بحوثاً علمية متخصصة ، وربما وجدت صحف تكترث بالنقد وتهتم بما ظهر واستتر من مآسي المسلمين ، إلا أن هذه وتلك لم تكن تشبع القارىء أو تغنيه . . .

وأكره المواربة في وصف عللنا ، إن عدداً من المحررين المسؤولين كان حسن الإيمان ولم يكن حسن الفقه ، لعله كان مخلصاً للإسلام ، لكن جراثيم التخلف الفكري السارحة في دمه كانت تجعله يهزم الإسلام ، ويصدّ عنه . .

ومع ذلك فإن الصحافة الدينية ارتقت خلال ربع القرن الأخير ، وبلغت مكاناً لا بأس به . .

والصحافي القدير غير الكاتب القدير ، فإن فنّ الإبراز والعرض وتلوين الأداء وتنويع المادة المقروءة ، ومواكبة الأحداث الجارية موهبة لا يقدر عليها كل كاتب . .

وقد كان «العقاد» راسخ القدم مهيب القلم إلا أنه لم يكن صحافياً ، أما «سيد قطب» فقد كان مؤلفاً ضخمًا وكان كذلك صحافياً عظيمًا ، وقد عاصرته ، أو اقتربت منه وهو يخرج مجلة «الفكر الجديد» فأحسست بأنه مكين أمين .

والأستاذ «عمر عبيد حسنة» من أولئك الذين جمعوا بين الكتابة والصحافة ، وأحسنوا صياغة العقل الإسلامي في كلا الميدانين . .

والعراك الآن محتدم بين شتى الملل والمذاهب ، كل يريد اجتذاب الجماهير اليه واستهواءها إلى مبادئه ! وقد افتنَّتْ الصحف المتنافسة في بلوغ غاياتها وتنوعت وسائلها وربما كانت الصورة الساخرة أنكى من كلمة صريحة ، والتعليق اللاذع أسرع من طعنة نافذة ، والمقال الذي يستغرق ربع عمود أجدى من كتاب مسهب ، ووضع الخبر في مكان أخطر من وضعه في مكان آخر ، وإبراز بعض الإحصاءات الميدانية أهم من حَبْك الأدلة النظرية ، وقد يكون التفاهم مع بعض الخصائص النفسية والمصالح الاجتماعية أخصر طريق إلى المقصود !!

إن الصحافة سلاح أفتك من أسلحة البر والبحر والجو في أحيان كثيرة ، ويسرنا أن الإسلاميين عرفوا هذه الحقيقة أخيراً ، وبدأت صحافتهم تشق طريقها إلى الأمام . .

ولا ريب أن مجلة «الأمة» قد أحرزت نجاحاً مبيناً في خدمة الإسلام وكانت نجدة حقيقية للمتعلقين به والداعين إليه ، ولا ريب أن ممن كانوا وراء هذا النجاح الأستاذ «عمر عبيد» واقتداره في التأليف والتنسيق ، والعطاء المشبع والرؤية البعيدة . .

ومجلة «الأمة» تصدرها دولة قطر ، وكان المفروض أن يرى القراء فيها ملامح العمل الرسمي وتحفظه ! بيد أن المجلة برزت في طابع شعبي صادق شجاع إلى حد بعيد ، وأقبل عليها عشرات الألوف ، وكان يمكن أن يقبل عليها مئات الألوف ، وليس من دافع لهذا الإقبال إلا أنهم يرون فيها ما يريدون ويقرؤون ما يحبون . .

وما أهمتهم قضية إلا وجدوا لها صدى بين صحائف المجلة التي أضحت وجهاً إسلامياً جميلاً لا لقطر وحدها بل لدول الخليج كلها ، ولولا التقشف الذي فرض نفسه على هذه الدول لبلغ توزيع المجلة ألف ألف أو يزيد . .

والسؤال الذي نجيب عنه هنا : كيف تم هذا النجاح ؟

إن أسرة التحرير تعاونت تعاوناً مثمراً على تحقيقه ، والكتاب المتقوْن بعناية لهم دور مقدور كذلك . .

وفي حديث الشهر الذي يحرره الأستاذ «عمر» أمور نحب إلقاء ضوء عليها ، فما أكثر الغموض الذي يكتنف العمل الديني عندنا ، وما أحوج الإسلام إلى إزالة هذا الغموض . . !

إن أعداداً من الدعاة لا يدرون «جغرافية» الميدان الذي يقاتلون فيه ، ولا آماد الانحراف الذي يقاومونه ، ويحسب كثير منهم القوى الإسلامية ـ أعني المحسوبة على الإسلام ـ قوى خالصة مجدية ! وأن القوى الأخرى هم خصم مناوىء يجب القضاء عليه ! وقد يقولون : من ليس منا فهو علينا !

ومنهم من يحسب إقامة الإسلام تتم بانقلاب عسكري ! وأن دور الإعداد التربوي والبناء العقائدي يجيء في المرحلة التالية !!

وأغلب العاملين في الحقل الإسلامي لا يريد الاعتراف بالأولويات التي يتوزع عليها الاهتمام وتتضافر حولها الجهود . .

وقد تشغله نافلة عن فريضة ، بل قد تشغله سنة عادية ، أو تقليد متوارث عن معاقد الإيمان . .

وشيء آخر يثير الحسرة : رفض دراسة الأخطاء التي تورط فيها بعضنا ، ولحقتنا منها خسائر جسيمة !

إنني أسارع إلى القول بأن الأخطاء لا تخدش التقوىٰ ، وأن القيادات العظيمة ليست معصومة ، ولا يهزّ مكانتها أن تجيء النتائج عكس تقديرها . .
إنما الذي يطيح بالمكانة تجاهل الغلط ، ونقله من الأمس إلى اليوم وإلى الغد ، وادعاء العصمة ، والتعمية على الجماهير المسترسلة . .
إن هذه الكبرياء لا تقل دمامة عن العوج الذي نحاربه في صفوف خصومنا ، ونزدريهم من أجله !!

وقد لاحظت أن الأستاذ «عمر عبيد» في توجيهه الشهري يبرأ من الآفات التي أومأت إليها ، وأنه يلمح بذور الخير في أي ميدان فيبرزها وينميها ويوجهها لخدمة الإسلام .

ويلمح الأخطاء فيحاصرها في صمت ويمنع تكاثرها ويأخذها في نقصها من أطرافها . .
وهو يبحث عن الخير بين من هو معه ومن هو ضده ، ويستعين به على بلوغ هدفه ، ولا يتجاهل الشر وإن وقع بين الأقربين منه ، وإنما يعمل بأدب ورفق على حسمه وحماية المسلمين من غوائله . .
والرجل يتحاشى الحدّة في خصامه وفي سلامه ، وقد أعانه هذا الهدوء الفكري على المضيّ في طريقه يبني ولا يهدم ويصل ولا يقطع ، ويستفيد من إمكانات يعجز عنها أصحاب المشاعر المهتاجة أو الأبصار الكليلة . .
وقد سرني أن تخرج رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر توجيهاته الشهرية في سلسلة كتاب الأمة ، وأملي أن يكون هذا الكتاب تصويراً حسناً لحاجات الصحوة الإسلامية في مرحلتها الحاضرة ، وهي مرحلة لها ما بعدها في مستقبل الإسلام وجهاده ضد المتربصين به ، وما أكثرهم . .

مقـــدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ان لا إله الا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، الذي ابتعثه الله رحمة للعالمين قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ والذي جعله - وحده - محل الأسوة والقدوة ، لأنه مسدد بالوحي ومؤيد به ، وليس هذا لأحد سواه فرداً كان أو جماعة أو دولة ، فكل انسان يؤخذ من كلامه ويرد إلاَّ صاحب هذا القبر كما يقول الإمام مالك رحمه الله .

وبعـــد . .

فهذا الكتاب الثامن في سلسلة « كتاب الأمة » - التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية - بدولة قطر - (نظرات في مسيرة العمل الإسلامي) يأتي استجابة لرغبات كثير من الإخوة الذين كتبوا إلينا يطالبون بضرورة إصدار « كلمة الأمة » ضمن سلسلة « كتاب الأمة » سواء ماجاء منها برسائل مستقلة أو ماتضمنته استمارات استطلاع الرأي . .

ونسارع إلى القول : بأنها نظرات أو وجهات نظر ، تأتي في إطار المحاولة الإسلامية للإصلاح وتسديد الخطا وتصويب المسيرة والتأكيد على أن العمل الإسلامي اليوم قد لا ينقصه الإخلاص - في كثير من الاحيان - وإنما الذي ينقصه ولا يزال يفتقد إليه هو الصواب كشرط فني لازم ،

وأحد طرفي المعادلة التي لا تتحصل النتيجة الا بتحققه ، ولا يتأتى هذا إلا بالتعرف على السنن التي شرعها الله لحكم الحياة والأحياء ، وحسن التعامل معها ، والتحول من عقلية التبرير والتسويغ الى منهج دراسة الخلل ، وبيان أسباب ومواطن التقصير ، وإغناء ساحة العمل الإسلامي بالدراسات النقدية التقويمية .

وحسبها أنها نظرات أو تأملات اجتهادية تقع في إطار المحاولة الإسلامية كما أسلفنا ـ وليست هي الإسلام المعصوم ، فإن أصابت فبتوفيق من الله ، وإن أخطأت فبسبب من ضعف البشر وقصورهم ، ولا يجوز أن يحمل الخطأ على الإسلام بحال من الأحوال .

ونقصد بالعمل الإسلامي كل أصحاب الفاعلية الموجودين على الساحة الإسلامية ، الذين يرون في الإسلام طريق الخلاص ويؤدون دورهم ويستشعرون مسؤوليتهم تجاه ذلك بمختلف الوسائل المشروعة بمواقعهم المختلفة سواء انتظمتهم جماعات أو جمعيات أو مؤسسات ذات نظم معينة ، أو لا . . . بل قد نرى الإنسان المسلم مهما اختلف موقعه ـ إن كان يتمتع بفاعلية ـ أحق بصفة العمل الإسلامي من الآخر الذي انطفأت فاعليته مهما كانت صفته لأن القضية اليوم قضية فاعلية مبصرة على الساحة الإسلامية وليست قضية رسوم وأشكال ، ذلك أن التنظيمات والجماعات والمؤسسات انما هي وسائل ترجو أن تكون أكثر كسباً للقضية الإسلامية وإثارة للاقتداء وليست غاية بحد ذاتها أو مراكز احتكار للإسلام أو ساحة أقضية لإصدار الأحكام على الناس . . إن مهمتها الهداية وليست الجباية . . وهنا لابد من الإشارة إلى بعض الملاحظات التي نراها ضرورية بين يدي الكتاب .

○ تركت الافتتاحيات (كلمة الأمة) ـ التي تم اختيارها كما هي دون أية مداخلة من زيادة أو نقصان حفاظاً على قيمتها التاريخية والظروف التي أوحت بها والاعتبارات التي حكمتها .

○ لم يلتزم في ذلك الترتيب الزمني لكتابتها وإنما آثرنا الاختيار لما يمكن أن يقع ضمن إطار معين ويعالج قضايا متقاربة وأكثر إلحاحاً .

○ لا شك أن لكل (كلمة) شخصيتها المتميزة المستقلة ، لكن يشفع لها انها جميعها - ينتظمها سلك واحد وتعالج قضايا ضمن إطار المحاولة الإسلامية وفي ساحتها من هنا فانها بطبيعتها تختلف عن الكتب المؤلفة ابتداء من بعض الوجوه .

○ قد يلمح القارىء فيها عودة لإلقاء أضواء إضافية أو لتعميق بعض الأبعاد بالنسبة لكثير من المفهومات ، ولا نعتبر ذلك من قبيل التكرار بقدر ما هو من طبيعة الكلام في القضايا المنهجية .

○ ونرى أنه من الأمور الضرورية للعاملين في الحقل الإسلامي - بعد أكثر من نصف قرن - أن تكون لهم وقفات للمراجعة واختبار المنهج ووسائل العمل وإخضاع العمل لنوع من التخطيط والدراسة وحساب الاحتمالات . .

ونعتبر أن ما قدمناه في هذا السبيل لايشكل أكثر من نافذة أو خطوة على الطريق وليس لنا أن ندّعي أننا بهذا نغطي قضايا العمل الإسلامي وجوانبه المتعددة ومشكلاته الكثيرة والمتشعبة كما قد يوحي بذلك العنوان ، وإنما هي بداية نرجو أن تكتمل بجهود إخوة ممن تهمهم القضية الإسلامية ويستشعرون مسؤوليتهم في المناصحة .

ولعل من نافلة القول أن نُذَكِّر بحقنا في المناصحة وإغناء الموضوع بالملاحظات التي يمكن أن تستدرك في الطبعات القادمة . . . ولسوف نتابع إصدار « كلمات الأمة » ضمن السلسلة مستقبلاً ان شاء الله . والله نسأل أن يلهمنا رشدنا . .

الدوحة

عمر عبيد حسنة

[ذو الحجة ١٤٠٤هـ - ايلول (سبتمبر) ١٩٨٤م]

هذه مجموعة ملاحظات أو تأملات في مسيرة العمل الإسلامي ووسائل الدعوة إلى الله لا ندعي لها العصمة من الخطأ كما لا ندعي لها الكمال ، وإنما هي وجهة نظر نعتقد لها الصواب كما أنها تحتمل الخطأ ، حسبنا في ذلك النية الحسنة التي نعتصم بها ومسؤولية المناصحة التي نستشعرها ، ونرجو إن فاتنا الحصول على أجري المصيب فلا أقل من الحصول على أجر المخطىء ، وذلك مساهمة منا في إغناء الرؤية لتصويب مسار العمل الإسلامي وتحري الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله ومحاولة الانتقال بمواقع العاملين والدعاة من عقلية التبرير إلى منهج دراسة أسباب التقصير ، ذلك أننا نعتقد أننا المسؤولون عن هزائمنا وتخلفنا وعجزنا مهما حاول بعضنا الإلقاء بالتبعة على الآخرين ، استجابة لخطاب التكليف وتحديد المسؤولية في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾

فليس العيب الوقوع في الخطأ فكل ابن آدم خطّاء ، وإنما العيب في الإصرار عليه وعدم الاعتبار به وتكراره ومجانبة الخيرية والوصول إلى توبة الفكر والسلوك ـ وخير الخطائين التوابون ـ والذي نرجوه أن لا تعتبر أية جهة أنها المقصودة فيحول ذلك دون الاستفادة والإفادة . ذلك أن هذه الملاحظات لا تنتمي إلى أية جماعة أو جهة وإنما تنتمي إلى الإسلام بكل شموله ورحابته وتجيء من موقع الشعور بمسؤولية النصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . ولسوف نتابع في هذه الملاحظات ما أمكننا ذلك والله نسأل أن يلهمنا الإخلاص في العمل والسداد في الرأي وهو حسبنا .

[جمادى الأولى : ١٤٠٤هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٤م]

الالتزام بالمنهج
ضرورة لسلامة الطريق

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣)

من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ، أن الاسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، وأنه يمثل الكمال والاكتمال للرسالات السماوية جميعاً ، قال تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) ذلك ان الإسلام يمثل مرحلة الرشد الإنساني بعد هذه الرحلة الطويلة من ميراث النبوة من لدن آدم عليه السلام وحتى الرسول الكريم ﷺ ، وتحضير الجنس البشري لاستقبال المنهج الأخير . .

فرسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة ، قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. ﴾ (الأحزاب : ٤٠) . ومن طبيعة الرسالة الخاتمة ومن لوازمها أيضاً أن تستمر سليمة بعيدة عن التحريف والتأويل والنقص أو الضياع ، ومن حق الأجيال المتعاقبة أن تتلقى رسالة السماء كما أنزلت على محمد ﷺ ، وأن

يكون خطاب التكليف سليماً صحيحاً في كل حين ، حتى يمكن أن تترتب على ذلك شرعياً ومنطقياً قضية الثواب والعقاب ، أي حتى يتم التكليف وتترتب المسؤولية ، والله تعالى يقول :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الاسراء : ١٥) .

فما ذنب المكلفين من المخلوقين وما مدى مسؤوليتهم إذا لم يصلهم خطاب التكليف سليمًا ؟ وبالتالي فسوف لا تكون الاستجابة لهذا التكليف صحيحة ، إذ السلوك الصحيح لا يعدو أن يكون ثمرة للتصور السليم الذي يتحصل من التلقي السليم للرسالة الصحيحة ، التي لم يلحق بها ما لحق بالرسالات السماوية السابقة على يد أصحابها من المغالين وخصومها المعادين ، ولئن كان ذلك حصل بالنسبة لرسالات الأنبياء السابقين ـ ورسالاتهم مرهونة بأزمان محدودة وأقوام معينين ثم يكون تتابع الرسل ومتابعة التصويب ـ فإن ذلك يستحيل بالنسبة للرسالة الخاتمة .

ومن هنا كانت كفالة الله للرسالة الخاتمة بالحفظ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) . بينما أوكل حفظ الرسالات السماوية السابقة لأهلها ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ... ﴾ (المائدة : ٤٤) .

القرآن الكريم الوثيقة الدينية الوحيدة التي نقلت بالتواتر

■ ولقد حذرنا الله سبحانه وقصّ علينا علَلَ التدين التي أصابت الأمم السابقة حتى لا نسقط فيها ولتستمر الرسالة سليمة طرية ندية كما أنزلت ، يتلقاها كل جيل من أجيال الانسانية دون حواجز أو التباس .

قال تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة : ١٣) ﴿ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (التوبة : ٣٤) .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُم سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ (التوبة : ٩) .

وكان أن أناط الله بالمسلمين الذين هم أوعية الحفظ في نهاية المطاف هذه المهمة يقومون بأوامر الله ، وكان من المستحيل شرعاً اجتماعهم على الخطأ وتواطؤهم على الكذب . قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**) ، وقال : (**لا تجتمع أمتي على ضلالة ، وفي رواية على خطأ**) .

من هنا نستطيع القول : بأن القرآن الكريم من هذه الوجهة يعتبر الوثيقة الدينية التاريخية الوحيدة التي وردت بالتواتر والتي تفيد علم اليقين بينها اختلطت نصوص الأديان السابقة بكلام البشر ، ولم ترق إلى سوية الأمور الظنية . .

التحذير من علل التدين ..

■ والأمر المفزع حقاً هو تسلل علل التدين السابقة إلى بعض قطاعات في عالم المسلمين . . أقول بعض قطاعات وليست الأمة بمجموعها لأن هذا يتناقض مع طبيعة الرسالة الخاتمة كما قدمنا .

إن ظهور هذه العلل على شكل تَشَوُّهٍ تارة ، وانحراف أخرى في بعض قطاعات الأمة المسلمة أمر طبيعي في حدوثه ووجوده ، مفزع وخطير في تطوره واستمراره ، طبيعي لأنه يتسلل من خلال طبائع البشر وما جبلت عليه نفوسهم ، وهو من العلل المزمنة التي حذَّر الله منها ، والتحذير دليل امكانية الوقوع « **وخير الخطائين التوابون** » والشر من لوازم الخير على كل حال .

لقد حذَّر الله من تحريف الكلم ، وحذَّر من الأكل بكتاب الله ، كما حذَّر من أكل أموال النَّاس بالباطل ، ولاشك أن لكل ظاهرة من ظواهر الشذوذ والانحراف أسبابها وجذورها العميقة ، **وإن رصد هذه الظواهر واستقراءها إنما يكون وسيلة للتعرف عليها واكتشاف أسبابها ، وبالتالي معالجة الأسباب التي أدَّت إليها** ، وعدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض ، وعدم الاكتفاء بالحكم على الصورة ورجمها بالحجارة عن إدراك الحقيقة وحسن تناولها .

والأمر الذي يلفت النظر بالنسبة لعالم المسلمين اليوم ، الاكتفاء بالإحساس والعجز عن الإدراك ، ورؤية الصورة ، وغياب الحقيقة ، ومعالجة الأعراض وإهمال الأمراض بعدم القضاء على أسبابها .

إن الصورة الكثيرة التي يلمسها الانسان اليوم للتدين والتي بدأت تتسلل إلى أكثر من مستوى في حياة الأمة تشكل بمجموعها نذر خطر وأمارة سقوط في علل التدين التي أدركت الأمم السابقة ، وكانت سبب انقراضها ، وهنا لابد من **العزمة الأكيدة على إخضاع هذه العلل للدراسة والتحليل ومعرفة الأسباب ، ومن ثم معالجتها من خلال المنهج الاسلامي نفسه ، إنها صورة سلبية خطيرة في حياة المسلمين وعلى أكثر من مستوى فإلى أي مدى تستطيع الأمة المسلمة بما تملك من مناهج وضوابط ومقاييس أن تقف فتنتفع بهذه الظواهر السلبية في عمليات التحصين ؟**

■ قال رسول الله ﷺ :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، وكأني برسول الله ﷺ يجمل في هذا الحديث الجامع العلل والتحديات التي لا تخرج في نهاية الأمر عن هذه الأمور الثلاثة :

تحريف الغلاة ـ انتحال أهل الباطل ـ تأويل أهل الجهل .

تحريف الغلاة ، هؤلاء الذين يتشكلون في الأمة على وضع بعيد عن التوازن والاعتدال . بسبب من ردود الفعل أو ضغوط المجتمع غير المسلم من حولهم فيقرؤون الاسلام من خلال أوضاعهم النفسية وظروفهم الحياتية ، فينحرفون به عن وجهته الصحيحة ويحملون عليه ما ليس منه ، ولكل عصر غلاته وخوارجه .

وليست خطورة نحل أهل الباطل ومحاولة تطويع الاسلام لتصوراتهم المسبقة بأقل خطورة من تحريف الغلاة باسم الدين ، بل هما على قدم المساواة من حيث الخطورة ، أما تأويل الجاهلين والجرأة على الفتوى وإصدار الأحكام بدون امتلاك الأداة المطلوبة فلنا معه وقفة أخرى إن شاء الله . .

حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من هنا كانت حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي صانت الرسالة المحمدية والأمة المسلمة في تاريخها الطويل من الانحراف ، وحملتها على الولاء للمنهج ، وعدم التحريف للدين والشذوذ الجماعي ، والعثرات المردية على طريقها الطويل ، ورحلتها الشاقة في ميادين الاجتهاد والاستنباط ، وإنارة السبيل للسالكين ، وحفظ القادة والزعماء والمفكرين والعلماء من الافتتان بالرأي والاعجاب بالنفس ، من ادعائهم أو ادعاء أتباعهم العصمة لهم ، وحفظت الأمة من أن تقع فريسة لغلو أو تطرف أو شذوذ أو تعثر ، لذلك شددت الشريعة الاسلامية على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام بهما في كل زمان ومكان ، وحذرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان ، وجعلت كلمة حق عند سلطان جائر أفضل الجهاد ، وكانت هذه الحسبة ، وكان اللعن لبني إسرائيل على لسان الأنبياء السابقين لأنهم عطلوا هذه الحسبة في حياتهم ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة : ٧٨) .

هذا وقد تختلط حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض الأذهان فتتوهم أنها تتعارض مع مصلحة الاسلام والمسلمين في عصر من العصور ، ويكون هذا التوهم من تلبيسات الشيطان ليضمن استمرار الانحراف ومتابعة الانزلاق . .

ولو أخذ المسلمون في اعتبارهم في الماضي أن حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تؤدي إلى إحداث تشويش واضطراب في صفوف المسلمين ، وكفوا عن التنبيه عن الزلل والخطأ ، والانحراف والمغالاة ، والتطرف والرفض والخروج ، لا نقطع هذا المؤشر الحيوي ، وهذا الضابط اللازم عن واقع الأمة الاجتماعي ومسلكها الخلقي ، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرأي وانجراف عامة النّاس للتيارات البعيدة عن هذا الدين باسم الدين واختفاء كثير من الحقائق عن ساحة التصور الاسلامي السليم .

إن التستر على الأخطاء باسم المصلحة العامة ، وحفظ الكيان ، والتوهم بأن الحسبة في الدين تؤدي إلى البلبلة والتمزق أمر خطير ، ومفسدة فظيعة تدفع الأمة ثمنها الدماء الغزيرة ، وليس هذا فقط ، بل قد يؤدي هذا إلى ذهاب الريح وافتقاد الكيان أصلاً فالأمة بدون هذه الحسبة وهذا التناصح تعيش لوناً من التوحد يشبه إلى حدٍ بعيد الورم الممرض .

من هنا كانت صورة المسلم الحق هي عدم التحجر والتزمت على صورة مهما كانت طبيعتها ، بل هو على استعداد دائم للانتقال من النافع إلى الأنفع ، ومن الصالح إلى الأصلح ، وقبول الحق إذا اتضح ، والدليل إذا وضح ، وعدم السقوط في الحزبية القاتلة ، والعصبية المدمرة .

الرسـول ﷺ . . وحده الأسوة الحسنة

وعلى طريق حمل هذا الدين والقيام بأمره . . هناك حقيقة على غاية من الأهمية ، كانت ولازالت معلمة من معالم التفكير الاسلامي والثقافة الاسلامية ، وكانت دائمًا ملازمة للحياة الاسلامية ليصح التصور وينضبط السلوك ، وهي : **انه لا يجوز أن يُعتمد أحدٌ كائناً من كان معياراً للحق أو أن يُظن أنه أعلى من أن يناله أحد بالنقد أو يجد فيه مأخذاً** ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يخضع لآخر عقلياً أو فكرياً إلّا لرسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ...﴾ (الأحزاب : ٢١) .

إن المقياس الإلهي المجرد الذي تجسم في حياة الرسول وسيرته هو المقياس الذي يوزن به الأشخاص ويأخذ كل إنسان حقه ومكانه من هذا المقياس الذي يستحقه .

ومن هنا فالالتزام إنما يكون دائمًا وأبداً بالمنهج الاسلامي ، بالفكرة ، بما شرعه الله لنا ، وليس الالتزام بالأشخاص ، أو التنظيمات ، أو الجماعات ، أو الحكومات التي هي دائمًا محلٌ للخطأ والصواب .

والكارثة والخلل والأمراض والعلل تتسلل إلى الحياة الاسلامية من خلال العدول عن هذا المقياس ، أو محاولة استلابه من يد الانسان المسلم ، ومن ثم

تكون العصمة الكاذبة التي تخلع على بعض الأشخاص ، والمبررات المضحكة التي توضع لتصرفاتهم وأخطائهم ، وهذا بدء مرحلة السقوط حيث تبدأ عملية تخديم الأهداف والقيم لا خدمتها ، وقد يكون هذا من طبيعة البشر عندما تسيطر عليهم فترات الضعف ، أو تستبد بهم حالات اليأس ، أو تمارس عمليات الإرهاب الفكري أو الفساد السياسي ، فتفصل الأحكام على الأشخاص ، وتؤصل الحيل الشرعية حتى يصبح لها مؤلفات ، وتنمو طبقة فقهاء السلطان ، سواء أكان سلطان المال أم الحكم أم الجاه ، وتؤول الأحاديث والآيات على مقتضى الأهواء .

ولا يجوز أن يظن أحد أن الدعوة إلى التزام المنهج مقياساً وميزاناً للحق والباطل ، وعدم الالتزام بالأشخاص الذين يخطئون ويصيبون ارتداد إلى الفردية ، وبعثرة للجهود ، وابتعاد عن جماعة المسلمين كافة ، **فهذا ليس من الأمور الاختيارية بالنسبة للمسلم . وإنما هو في حقيقته تصويب لمسيرة حياة المسلمين الجماعية وإلغاء للاقطاعات البشرية من حياة الناس والتزام بالاسلام الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله :**

« . . . **ورجلان تحابًا في الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه**» فالاجتماع على المنهج وليس على الأشخاص والافتراق أيضاً على المنهج وليس على الأشخاص . إلاّ في حالة العمى العقلي وعدم الإبصار الصحيح بسبب التعصب لفئة أو شخص أو عرق أو قوم أو في حالة عدم وجود العزمة الأكيدة على الالتزام بهذا الدين .

الطاعـــــــة المبصـــــرة ..

من هنا أيضاً ومن لوازم هذا الدين **أن تكون الطاعة مبصرةً** وأن يكون المقياس منضبطاً . وليس هذا من البدع والأمور المحدثة ، بل هو طريق مسلمي خير القرون .

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخليفة الراشد وثاني اثنين إذ هما في الغار والذي أمرنا الرسول ﷺ باتباع سنته يقول للمسلمين في أول كلمة من فوق منبر المسؤولية :

« أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم » .

وفي هذا تربية للفرد المسؤول في مركز القيادة والحكم والسلطان ، فلا يضمن الطاعة له إلاّ بطاعة أوامر الله والتزام المنهج . وتربية للفرد العادي أيضاً لتستيقظ حواسه جميعاً ويمتلك البصيرة الكاملة للمنهج ، فلا يحق له الطاعة إلاّ بالمعروف .

ومن هنا أيضاً كان الإسلام لكل المسلمين ، وكان مجتمع المسلمين مجتمعاً مفتوحاً يتألق بالحقيقة والاستقامة واستنشاق الهواء النظيف بعيداً عن سياط الارهاب الفكري دينياً كان أو سياسياً ، لا عصمة فيه لطبقة من حكام أو رجال دين يحتكرون المعرفة أو يتحدثون باسم الله فيصبح قولهم هو القانون وهو الدين وتصبح أشخاصهم هي المقياس ، فيتسلل الإكليروس من جانب والحكم الثيوقراطي (الديني) الذي مارسته الكنيسة في القرون الوسطى من جانب آخر إلى حياة المسلمين ، وبذلك يكون الفساد والإفساد .

[جمادى الأولى : ١٤٠٢هـ ـ آذار (مارس) : ١٩٨٢م]

دعوة للمراجعة وتجديد الانتماء

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (الحاقة : ١٢)

لا نستطيع أن نتهم عالم العرب والمسلمين بعدم المعرفة للنوايا اليهودية والمخططات الصهيونية ، وقد أخذ الكلام عن بني إسرائيل وبيان نواياهم وما تنطوي عليه نفوسهم المساحة الأكبر في القرآن الكريم ، وما قدمته الدراسات والبحوث ومراكز المعلومات ، والمؤلفات في هذا الموضوع عن ممارساتهم وأهدافهم لم يعد خافياً على أحد ، لكن الذي نستطيع قوله : إننا نعاني من حالة العجز عن توظيف هذه المعرفة وامتلاك الإرادة المستقلة للاستفادة منها والقدرة على الالتزام بأخلاق المعرفة ، وكأننا بمراكز الدراسات والمعلومات والمؤلفات التي ننشئها إنما نمارس عملية التقليد للشكل والصورة التي نراها عند الآخرين في الدول المتقدمة دون القدرة على توظيفها ، نقف عند حدودها فقط لا نتعداها . . . ولو أننا أحصينا ورصدنا ما تخرجه المطابع العربية في يوم واحد من أيام نصف القرن الماضي لكان وحده كافياً لتعريفنا بعدونا ونواياه ووسائله في الوصول إلى هذه النوايا وتحقيقها ، وقدرته المستمرة على نقل المعركة من موقع إلى آخر بشكل

مدروس ومحسوب ينسي العرب والمسلمين الموقع السابق ، ويصرف جهودهم إلى المشكلات الجديدة التي صنعتها لهم إسرائيل لينشغلوا بحلها ، وتنفرد هي بتحقيق أهدافها كاملة في المواقع السابقة التي احتلتها ، وهذا يلحظ بوضوح ابتداءً من قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م . وانتهاءً بغزو لبنان لإنهاء المقاومة الفلسطينية ، وإشعال الألغام الطائفية ، واحتلال الجنوب اللبناني والبدء بتهويده . . .

ولقد استطاعت إسرائيل بشكل أو بآخر أن تحضر الظروف الملائمة لقيام الفتن الداخلية وإشعال الحروب الحدودية بين العرب والمسلمين في أكثر من موقع ، حتى بات الإنسان يسمع أصوات النشاز تقول : إن الطريق إلى تحرير فلسطين لا بد أن يمر بالعاصمة العربية الفلانية أو الفلانية ؟! . . ولو صمدنا أمام إسرائيل كصمودنا في واحدة من معارك اقتتالنا لكانت كافية لمواجهة إسرائيل واسترداد الحق وتحقيق العدل ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الدماء التي تسيل في معركة واحدة يمكن أن تكون كافية لتحرير فلسطين . . .

خلل في البنية الفكرية ..

ولا شك بأن الذي يراقب اقتتالنا وضحايانا وإصرارنا على إراقة دمائنا ، وشدتنا وصمودنا في هذه المعارك سوف لا يصدق أننا الذين هزمهم يهود ولا يزالون يعانون من هزيمتهم . .

ولا شك عندنا أيضاً أن هذا الواقع الذي صرنا إليه دليل على وجود خلل في البنية الفكرية والطروحات العقيدية التي أثمرته مهما كانت دعاوانا عريضة ، وأصواتنا مرتفعة بالادعاء أننا على النهج السليم ، والدفاع عنه والقتال في سبيله ؛ إنها صورة عقيدية مدفوعة بالواقع الحزين ، وإن استمرار قبولنا بها يعني قبولنا بهذا الواقع الذي نشكو منه جميعاً ، وعلى المستويات كلها ، ومن أبسط الأمور في عالم العقلاء القيام بعمليات المراجعة بعد كل مرحلة نجاح أو إخفاق لتحديد أسباب النجاح للاحتفاظ بها وتنميتها والدفاع عنها ، واستبيان أسباب الإخفاق ومواقع الخلل لاجتنابها . . . إنه الاعتبار الذي أنعم الله به على الإنسان

العاقل ، وحرمه الحيوان الأعجم ، إنه الاعتبار الذي لا بد من حضوره على مستوى الأفراد والجماعات والأمم والحكومات ، ونحن أمة لم تنشأ من فراغ ، ولم تتحرك طيلة تاريخها في فراغ أيضاً ، لكن ممارسات سلخها عن تاريخها وإقصائها عن عقيدتها من الاستعمار وجيل الاستعمار تركها في حالة العجز عن الاستفادة من هذا التاريخ والاعتبار بحوادثه ، وعن الالتزام بالعقيدة والاستجابة لمتطلباتها ، والحكم على الأمور من خلال مقاييسها . . .

لقد قرىء تاريخنا لنا بأبجديات غريبة عنه ، خاطئة في تفسيره ، حتى كاد يصبح التاريخ الذي هو أحد عوامل تكوين الأمة بعد هذه القراءات المغلوطة عامل تمزيق وتفريق وتفتيت ، حيث إننا لم نر من تاريخنا إلا النقاط السود ، ولم نبعث منه إلا الفتن لتكون غذاء يقتات به أعداء هذه الأمة التي سقطت فريسة لتعدد الانتماءات وتعدد الولاءات ، وأصبح بأسها بينها شديداً . . .

الانتمــــاء والالتـــزام ..

ولقد أُصبنا في تاريخنا الطويل بنكسات ونكبات وأيام سود وسنين عجاف ، وضعف التزامنا بهذا الدين ، وبالرغم من هذا كله بقيت لنا وحدة الانتماء ، وبقي لنا الإيمان بهذا الانتماء الذي كان مرتكز القادة والمفكرين والمصلحين وحاملي لواء التجديد والتغيير الاجتماعي . . .

هُزِم المسلمون سياسياً وعسكرياً وبقي الإسلام علماً وحضارة وتاريخاً فكان درع صمود وعامل مواجهة ، أما حالنا اليوم ، فإننا لا نعاني من فقدان الالتزام وبقاء الانتماء ، وإنما نعاني من التذويب والذوبان الذي يقذف بنا إلى الضياع والمغالطات الفكرية والعقيدية والقراءة التاريخية الشاذة التي تفقدنا الالتزام والانتماء معاً ، فكيف نواجه الحالة الصعبة التي نحن عليها ؟ حيث تختلف مرحلة سقوطنا الحضاري وانكسارنا العسكري ، وتعدد انتماءاتنا عن مراحل الهزائم التاريخية جميعاً ، ولعل الطريق إلى الخلاص ، الذي لا طريق سواه ، إنما يكون بتصويب المسار ، وتجديد عملية الانتماء لهذا الدين بشكل عام ، والاعتزاز بقيمه ، والالتزام بأحكامه ، والانضباط بشرعه ، والاستفادة من تاريخه . . .

إن الإسلام الموحِّد الفاعل ، الإسلام الذي صنع خير أمة أخرجت للناس ، الذي فهمه السلف الصالح ، فكان ما كان ، هو بالتأكيد غير الفهم الذي نحن عليه بواقعنا الراهن ؛ فلا بد إذن من عودة الجماهير المسلمة إلى فهم وإدراك إسلامها بعد أن مارست عملية الانسلاخ عنه وبعد أن طال البعد وكثرت الدروس وقلَّ الاعتبار . . . وإلا فسوف نستمر في الطريق المسدود ، ولسوف تستمر إسرائيل في قضم أطراف الجسم الإسلامي طرفاً بعد آخر ، وتنقلنا من معركة إلى أخرىٰ ، وتنسينا جراحاتنا السابقة ، وتشغلنا بجراحات جديدة . . .

ولا نريد هنا أن نتكلم عمَّا أسمته إسرائيل بعملية أمن الجليل واجتياح لبنان تحت سمع العالم وبصره ، وتعقب المقاومة الفلسطينية لإنهائها أو لإلغاء مقدرتها وتمزيقها ، وإخراجها من لبنان ، ومن ثم إشعال الألغام الطائفية ليبدأ تفجيرها هنا وهناك ، وتسيل الدماء أنهاراً ، ويكون من بعض وقودها المقاومة الفلسطينية للقضاء على البقية الباقية منها . . . لأن الكلام عن ذلك كثر كثيراً ، ومحاولات التدخل لإيقاف القتال أو إشعاله كثرت أيضاً على المستوىٰ العربي والدولي ، ونفرح وَفَرِحْنَا للوصول إلى وقف إطلاق النار التي أشعلناها بأيدينا ، وفي أثناء ذلك كله ـ بين الإشعال والإطفاء ـ يخلو الجو لإسرائيل لتمارس عمليات التهويد ، ولتمكن احتلالها للجنوب اللبناني ليشكل الضفة الشمالية بالنسبة ليهود ، وتصبح القضية الجديدة : خروج يهود من لبنان أو من جنوبي لبنان بعد أن كانت القضية وجود يهود بفلسطين ، وقبول العرب بالتقسيم ، وانسحاب إسرائيل من سيناء عام ١٩٥٦م . والمطالبة بعودة إسرائيل إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧م . ومواجهة الاستيطان بغزة والضفة الغربية ، أما الحديث عن التهويد الرسمي للجولان ، والتهويد الثقافي للتعليم الذي يعد الأخطر في مجال التهويد والاحتلال والاستيطان فحديثه يطول . . .

سوف لا نتكلم عن الاقتتال الطائفي في لبنان ، وهو الصورة التي صنعتها إسرائيل ، وهي الأكثر سخونة الآن ، وإنما نعرض للوجه الآخر للموضوع الذي غيبته عن الساحة أحداث لبنان واقتتاله الطائفي ، نعرض لبعض أطماع يهود في جنوبي لبنان . . .

الأطماع اليهودية في الجنوب اللبناني

لقد بدأ يهود في التطلع إلى مصادر المياه في جنوبي لبنان في وقت مبكر ، وبدأوا بشراء الأراضي بأثمان مغرية ، وسقط في شركهم بعض كبار الملاك ، وقد كتب «هرتزل» في مذكراته حول هذا الأمر فقال :

«هؤلاء الذين يتعلقون عادة بالأرض هم صغار الملاك ، إن كبار الملاك يغترون بالأسعار » ومارست بعض البنوك الأمريكية والسوفييتية ـ واليهود من ورائها ـ شراء بعض الأراضي ، ولقد استطاعت المنظمة الصهيونية أن تعدل من الحدود بين لبنان وفلسطين لأول مرة سنة ١٩٢٣م . باتفاق بين الدولتين المنتدبتين : فرنسـا وانكلترا . . .

وبعد قيام الكيان الصهيوني أصبحت الأطماع الصهيونية في المياه اللبنانية تأخذ طابعاً أكثر وضوحاً ، ففي عام ١٩٥١م صرح وزير خارجية إسرائيل لصحيفة « جيروزاليم بوسـت » :

« إننا لسنا من المهتمين بالنيل والفرات ـ الآن ـ ولكننا نولي الأردن ومنابعه كل اهتمام » وهذا يعني النية في احتلال حاصبيا وراشيا ومرجعيون وجزء من البقاع الغربي . . .

ومن أبلغ التصريحات التي تكشف عن نوايا إسرائيل في الاستيلاء على مياه الليطاني ما قاله « ليفي أشكول » لصحيفة « لومونـد » الفرنسية في السابع من تموز (يوليه) ١٩٦٧م :

« . . . إن إسرائيل العطشىٰ لا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترىٰ مياه الليطاني تذهب هدراً إلى البحر ، إن القنوات باتت جاهزة في إسرائيل لاستقبال مياه الليطاني » .

وفي رسـالة « بن جوريون » إلى الرئيس الفرنسي « ديجـول » يقول :

« . . . إن أمنيتي في المستقبل جعل الليطاني حدود إسرائيل الشمالية » وبعد حرب ١٩٦٧م صرح « موشـيه دايان » قائلاً : « . . . إن حدود إسرائيل أصبحت طبيعية على جميع الجبهات باستثناء لبنان » .

وتواصل إسرائيل قضم الأراضي اللبنانية تحت شعار عملية السلام للجليل وتحقيق الأمن لحدودها الشمالية ، والحقيقة أنها تهدف إلى تحقيق مطامع دينية توراتية واقتصادية حيوية في الأرض والمياه ، وهذه العملية هي استكمال لما بدأته عام ١٩٤٨م إذ اقتطعت أرضاً من العديسة ودير الميماس وكفر كلا وجولا وميس الجبل . . .

وفي جنوبي لبنـان تقيم إسرائيل تحصينات تذكُر بخط « ماجينو » فضلاً عن الرادارات ومحطات الإنذار المبكر التي تمتد من أعالي جبل الباروك حتى مصب نهر الأوَّلي ، إلى جانب المطارات العسكرية والتحصينات الأخرى ، كما تحاول الآن شق طريق يصل قرية بسهي بجبل الشيخ وصولاً إلى قرية عين شمس في مرتفعات الجولان المحتلة ، ويمر هذا الطريق بمشغرة وحاصبيا في البقاع الغربي ، ويلاحظ أن أكثرية السكان في المناطق التي يمر بها الطريق هم من الدروز ، وبذلك يتحقق ما تعمل له إسرائيل من وجود الأحزمة الطائفية حولها . . .

والأخطر من ذلك كله : عملية التهويد العملي التي تمارسها إسرائيل في الجنوب ، فهي تقوم بإعادة كتابة أسماء القرى هناك باللغة العبرية ، وتطمس الأسماء العربية لها ، كما تقوم وحدة تابعة للجيش الإسرائيلي تدعى « وحدة المساعدات المدنية » بفتح المدارس لتعليم اللغة العبرية ، وفي بعض المدارس الرسمية يفرض الإسرائيليون تدريس اللغة العبرية من قبل معلمين يكلفونهم بذلك . . .

لقد تحول اسم الجنوب اللبناني في لغة الأحزاب الدينية الإسرائيلية إلى « إسرائيل العليـا » وفي لغة السياسيين إلى « الضفة الشمالية » والقليل من المراقبين يصدقون أن إسرائيل يمكن أن تنسحب من جنوبي لبنان بعد الآن . . .

الشـــعور بالتحـــدي ..

ونحن لا نريد بما عرضنا له أن نساهم بصور اليأس والتشاؤم التي بلغت مداها في عالمنا العربي ، لكن الأمر الذي نقصد إليه هو بيان صور التحدي والكشف عن حقيقة هذا التحدي الذي يواجه الأمة ، لأن الشعور بالتحدي يوقظ الحس ، ويلهب المشاعر ، ويذكي الروح ، ويجمِّع الطاقات النفسية

والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد ، ولندعو الأمة لمراجعة الحساب وإعادة النظر بالوسائل والأهداف على المستويات كلها ، ذلك أن الأمة الإسلامية قد أصيبت في تاريخها بالكثير الكثير من المآسي والنكبات ، لكنها كانت دائمًا قادرة على تجاوز المحن حال عودتها إلى أصولها تستمد منها مصادر القوة بعد أن تُسقِط جميع الصور المشوهة والزائفة التي سببت هذه المآسي . . .

ونعتقد أن وجود إسرائيل سيبقى وجوداً عارضاً مهما طال به الزمن ، ولنا من بعض المواقف والشعارات المؤمنة في معاركنا الحديثة مع يهـود نافذة كافية للدلالة على ما نقول ، وأن أعمار الأمم لا تقاس بجيل أو جيلين ، وقوة الأمـة لا يحكم عليها من خلال فترات المرض التي تعاني منها ، وأن قضية فلسطين ليست ملكاً لجيل بعينه يساوم عليها أو يتهاون في المواجهة والدفاع عنها ، وإنما هي ملك الأمـة بكل أجيالها وتاريخها وعقيدتها . . .

إن قيام إسرائيل على الرؤية الدينية التوراتية يجب أن يكون باعثاً لنا على العودة إلى عقيدتنا ، درع صمودنا وعدة جهادنا ، لكن للأسف ابتلعنا الطعم الذي ألقي لنا وسقطنا في الشرك ، وكانت فرية التفريق بين اليهودية والصهيونية ، الأمر الذي ساهم إلى حد بعيد بتكريس انسلاخنا عن إسلامنا ، واستمرار المغالطة ، ولم نجن من قيام إسرائيل انبعاث الروح الإسلامية كما استيقظت في الحقبة الصليبية والهجمة المغولية ، وإنما الذي جنيناه ظهور النزعات الطائفية واستيقاظ أحقادها التي تزيد من إنهاكنا وتمكن ليهـود في أرضنا . . .

يقول « بن جوريون » :

« . . . علينا أن نتذكر أنه من أجل قدرة الدولة اليهودية على البقاء لا بد أن نكون جيراناً للبنان النصراني من جهة ، وأن تكون أراضي النقب القاحلة من جهة أخرىٰ ، وكذلك مياه الأردن والليطاني وثلوج جبل الشيخ داخـل حدودنا . . . » .

لقد استطاعت إسرائيل أن تزرع ـ وهذا من لوازم وجودها ـ ألغاماً طائفية وتستمسك بفتيلها لتفجرها في الوقت الذي تريد ، ولقد استطاعت أن تنجح في إقامة كيانات طائفية ، ظاهرة ومقنعة ، تلك الطائفيات التي كانت ولا تزال جسراً يعبر من خلاله أعداء هذه الأمة في تاريخها الطويل . . .

ولسنا الآن بسبيل التذكير بالحملات الصليبية ومن كانوا ادلاّءها وأعوانها في العالم الإسلامي ولا الهجمات التترية المغولية ومن كانوا عملاءها وعيونها ، ولا الاستعمار الحديث ومن كان معتمده ومرتكزه . . .

وبعد : فإن فهمنا الصحيح ووحدة انتمائنا للإسلام الذي وسع الجميع بعدله ، وضمن لهم حرية المعتقد ، هو الطريق الوحيد ، تاريخياً وحضاريا وواقعياً ، لحل المشكلات التي نعاني منها على مختلف الأصعدة .

[صفـــر : ١٤٠٤هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) : ١٩٨٤م]

تأملات في
مسيرة العمل الإسلامي (١)

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠)

من الحقائق الثابتة التي لا يختلف عليها اثنان من الناحية الشرعية ، أن غاية الإنسان المسلم في هذه الحياة هي تحقيق معنى العبودية لله سبحانه وتعالى في ذاته ومجتمعه بالمعنى الشامل الذي يعني أول ما يعني القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض بأبعاده المتعددة ونشاطاته المتنوعة ، وتعمير الكون وفقاً لمنهج الله ، الذي أوقفنا عليه الرسل ، وكان مسلكهم وسيرتهم أنموذجاً عملياً للسائرين على الطريق ، وتعاملهم مع السنن التي تحكم الحياة والأحياء هو المنهج المنوط بالمؤمن سلوكه في عمليات الهداية والتغيير للوصول بالبشرية التائهة إلى تحقيق معنى العبودية في حياتها التي خلق الإنسان من أجله . . أداءً لأمانة المسؤولية التي حمّلها الإنسان بعد أن أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .

قــال تعالى :

﴿ وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾ (الـذاريات : ٥٦) ، وقــال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ... ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

إذاً الإنسان هو أســاس التغيير في التصور الإسلامي ، والتزام طريق النبوة في الحركة هو منهجه ، والوصول إلى تحقيق العبودية والفوز برضا الله تعالى هو هدفه .

وهذا لا بد له من نية وهي اقتناع العقل وعزم القلب وانبعاث الهمة ، والعمل الذي هو الاستجابة السلوكية والتعبير الإيجابي عن القناعة العقيدية والنفسية والفكرية ودليل صدقها . قال تعــالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلَا تَحْـزَنُوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّـةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ ﴾ (فصلت : ٣٠) وقال رسـول الله ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

لذلك اختلفت النبوة عن الفلسفة وجاء عطاء الأنبياء مختلفاً تماماً عن نظرات الفلاسفة ومعارفهم الباردة العاجزة . وقافلة النبوة في الهداية والعطاء مستمرة تكتسب كل يوم مواقع جديدة . حيث لم يبق لنظرات الفلاسفة إلاَّ بعض القيمة التاريخية التي لم تتجاوز الكتب والمكتبات ولم يكن لها نصيب يذكر من التغيير الاجتماعي . من هنا نقــول :

وســـــائل لا غايـــات

إن الحكومات والجماعات والجمعيات والتنظيمات وصور التكتلات جميعاً التي يسعى إليها الناس إنما هي وسائل لتحقيق الأهداف وليست غايات بحد ذاتها ، إنما تشرف هذه الوسائل بشرف غاياتها وتقصد للحصول على قدر

أكبر من تحقيق تلك الغايات التي يقصر عنها الجهد الفردي فتكون الجماعة ويكون التجمع وتكون القيادة .

وبالتالي فلا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب هذه الوسائل إلى غايات بحد ذاتها وإنما يجب أن تبقى وسائل محكوماً عليها بمقدار ما تحقق من الغايات التي سبقت الإلماحة إليها وهي تحقيق العبودية لله تعالى والفوز برضاه .

فليست غاية الدعوة إلى الله والعمل الإسلامي بصوره المختلفة الأساسية ، الوصول إلى الحكم والسلطة بأشخاصه وبمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية وينتهي الأمر ، وإنما الحكم بحد ذاته لا يعدو في نظر المسلم أن يكون من وسائل تحقيق معنى العبودية ونشر الدعوة وحمايتها في مدىً أوسع ومساحة أشمل ؛ ذلك أن المهم في نظر المسلم أن تتحقق المعاني التي يريدها الإسلام ، وليس المهم أن يحكم أشخاص أو جماعات بأعيانهم .

ومن هنا يفترق منهج العمل الإسلامي عن المناهج الأرضية كافة التي تنحصر أهدافها وتتحقق عند الوصول إلى السلطة وتكون أقصى غاياتها الاحتفاظ بها وتقسيم الغنائم على الأنصار لضمان ولائهم ودعمهم وعبوديتهم . لأنهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الحكم والثورة كما يسمونهم ، ومطاردة الخصوم لأنهم مكمن الخطر الدائب على ما حصلوا عليه من مكاسب شخصية ، أما العمل الإسلامي فيتابع سيره وتلقى على عاتقه مسؤوليات جديدة ويتسع معنى تحقيق العبودية ويعظم التكليف . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١)

إنها الأمانة والمسؤولية التي تبدأ بعد الحكم وليس الاسترخاء والقعود عن أداء تلك الأمانة .

والمسلم كفرد والمسلمون كجماعة مطلوب إليهم دائمًا أن يكونوا في مستوى إسلامهم بناءً ؛ استجابة لخطاب التكليف ، وفي مستوى عصرهم فهمًا وحركة وإدراكاً لطبيعة المتغيرات التي لا تتوقف عند حد لتكون وسائلهم في العمل الإسلامي في مستوى العصر .

وإن الهاجس الدائم للمسلم الحق الذي يورث الفاعلية التي لا تنطفىء محاولة ارتياد آفاق أفضل ، والحصول على نتائج أشمل ، وامتلاك وسائل أكثر تطوراً وجدوىٰ في مجال الدعوة إلى الله .

إن القعود عن التفكير بالتغيير والاستسلام لواقع الحال بسبب من الفهم القاصر للقضية الإسلامية والجمود على الوسائل المعروفة والوقوف عندها والاكتفاء بها وإعطائها صفة القداسة قضية أقل ما يقال عنها إنها تنافي الخلود لهذا الدين ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، إنه القبول بالواقع الإسلامي الذي لا نحسد عليه والذي بات لا يرضي إلا المنتفعين به بشكل أو بآخر ، إن قبولنا بالصورة التي يقوم عليها الواقع الإسلامي الآن يعني التوقف حيث تتبدل مواقع الأفراد والجماعات في المجتمع الحاضر بين يوم وآخر ، تبعاً لتبدل الوسائل وطرق المواجهة .

إن وسائل العمل الإسلامي وطرائقه وأساليبه وهياكله وعناوينه التي أصبحت عند بعضهم ديناً لا يمكن تجاوزه إنما هي أمور اجتهادية تخضع لقانون التغيير والاستبدال وليست لها صفة القداسة والثبات ، ذلك أن الأهداف الإسلامية من الثوابت ، والوسائل لتحقيق هذه الأهداف من المتغيرات ؛ بشرط واحد أن تكون أوعية هذه الوسائل شرعية ومحكومة بضوابط الشريعة أيضاً . . فالغاية لا تبرر الوسيلة الأمر الذي بدأ يتسلل إلى بعض النفوس بسبب من الاجتهاد المريض والرؤ ية القاصرة .

ويمكن أن تكون لبعض الوسائل جدوىٰ في عصر معين ، وقد تكون إنما جاءت استجابة لمواجهة مشكلات معينة في مجتمع له ظروفه واهتماماته .

أما وقد تبدل الزمان وتغيرت المشكلات وصورة المجتمع ؛ فإن الجمود على وسائل بعينها في العمل وعدم القدرة على تجاوزها إنما هو حرب في غير معركة ، وانتصار بغير عدو ، ويخشى أن يكون مضيعة للعمر والأجر معاً .

لا بد أن تكون عمليات المراجعة وإعادة النظر دائمة على ضوء المستجدات ، ولا بد من الاستمرار باتهام أنفسنا بالتقصير عن إدراك الصور المثلى ، ويبقى شعارنا أن عدم تحقيق النتائج هو بسبب منا : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ .

ومن يظن أنه علم فقد جهل ، فالعمل الإسلامي مدعوٌ دائماً لتغيير مواقعه

التي تصبح عاجزة عن مواكبة الحياة إلى مواقع جديدة أكثر فاعلية على ضوء الإمكانات المتوفرة والفرص المتاحة ، وتجديد وسائله واستبدالها لتكون القدرة على العطاء في كل الظروف والأحوال .

فتح باب الحوار والمناصحة

وفي تقديرنا حتى نصل إلى الصورة الأفضل لوسائل العمل الإسلامي لا بد من فتح الباب على مصراعيه ؛ بل وفتح النوافذ أيضاً في العمل الإسلامي لعمليات الحوار والنقد والمناصحة ، وليس فقط فتح الباب أمام ذلك وإنما التدريب عليه في أجواء العمل الإسلامي لتصب كل الخبرات في مجرى الحياة الإسلامية ، ويستفاد من كل الطاقات ، وتسدد كل الثغرات ويستشعر الأفراد جميعهم مسؤولية الرقابة على العمل التي تحققها ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن العاملين للإسلام نواة المجتمع الإسلامي المنشود أحق بذلك من المجتمع بشكل عام بشرط أن تلتزم القاعدة التي تقول من كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف . . ونستطيع القول :

إنه من فساد النظر : الاعتقاد بأن عملية النقد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحدث تشويشاً في الصف الإسلامي واضطراباً في العمل . . ذلك أن الصف أو الجماعة التي تخشى من الحوار وتخاف من المناصحة ، ويلبس الشيطان على بعض أفرادها بأن الأمر بالمعروف ومحاربة المنكر يهدد كيانها ، جماعة لا يوثق بها ولا تستحق البقاء ، ولا تستأهل حمل رسالة الإسلام التي من أولى متطلباتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

إن مطاردة عمليات المناصحة ومحاصرتها والقضاء عليها تنطوي على خطورة كبيرة تودي بأصل القضية في سبيل استبقاء الصورة الشكلية للعمل والدعوة ، حيث تنقلب الوسيلة ـ التعاون في إطار الجماعة للوصول إلى قدر أكبر من الخير ـ غاية بحد ذاتها .

إن التسلط الفردي والإرهاب الفكري الذي يقع فيه أحياناً بعض العاملين للإسلام ـ عندما يغيب عن ساحة العمل البعد الإيماني الغيبي وما يقتضيه من خفض الجناح ولين الجانب والخلق الكريم ـ يؤدي إلى لون من التشرذم وضرب

من الطائفيات الجديدة ، تتمزق معها رقعة التفكير وتنمو الجزئيات وتغيب الكليات ويضطرب سلم الأولويات ويضيع تصنيف المشكلات ويتوقف العمل المنتج وتنقلب الوسائل إلى غايات ـ كما أسلفنا ـ وتتمحور الصورة الإسلامية حول أشخاص لا ترى القضية الإسلامية إلاّ من خلالهم وينقلب جهد العمل إلى صناعة المبررات وتتغلب عملية صناعة التبرير على عقلية دراسة أسباب التقصير ، ولا تعالج هذه القضية إلا من خلال ممارسة الحرية الفكرية والحوار الشامل والتزام أدب الخلاف الإسلامي ، وجعل المشروعية للمبادىء والأفكار وليس للوسائل والأشخاص .

إن العقيدة مقرها القلب ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الدليل ، والقناعة بالشيء هي الدافع لممارسته ، والله تعالى خاطب النبي ﷺ بأن الغاية من ابتعاثه إلحاق الرحمة بالعالمين .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ،

وقال : **﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾** (الغاشية : ٢٢) ، وقال مخاطباً نبيه أيضاً : **﴿ . . . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** ؟ (يونس : ٩٩) وقال : **﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾** (آل عمران : ١٩٩) . وهذه من الأبجديات الأولى في الدعوة إلى الله وإلحاق الرحمة بالعالمين .

التربية بالقدوة

إن الخلق الحسن والسلوك الخيِّر هو الذي يُغري الناس بالإسلام ولبس السوط والأثرة وحظوظ النفس . . فهل نعيد قراءة سلوكنا في العمل الإسلامي وطرائقنا في الدعوة إلى الله فيكون شعارنا **﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾** فقد نقع على الطريق في علل الجوارح كما وقع أبونا آدم ونتوب ولا ضير فهذا من طبيعة البشر ، لكن الخطورة كل الخطورة أن نقع في علل النفوس من الكِبْر والعجب بالنفس كما سقط إبليس عندما قال : **﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾** .

العمل الإسلامي تفاعل لا ينقطعُ وتدافع بين الحق والباطل لا يتوقف . قال تعـالى :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيـزٌ﴾ (الحج : ٤٠) .

ومنهج الدين الحكيم أن يكون ذلك جدالاً لا قتالاً وتسلطاً ، وحواراً لا حرباً واقتتالاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ **فإذا كان هذا أدب الجدال مع أهل الكتاب فكيف يجب أن يكون مع المسلمين المخالفين بوجهة النظر .**

وطريقة هذا الدين الدفع بالتي هي أحسن والصبر الجميل والصفح والمسامحة حتى على الكيد والأذى . ومجتمعه وتجمعه هو مجتمع البلاغ المبين ، ونجاة العاملين لا تتحقق بالانسحاب من المجتمع والاستعلاء عليه ، والنكوص عن عملية البلاغ المبين والنزول إلى المخابيء وتغييب سياسة الدعوة وممارسة العاملين وسلوكهم عن الأنظار الأمر الذي يعطل عملية البلاغ المبين ويؤدي إلى النمو غير الطبيعي ، ويوقف الحوار ويعطل عملية الرقابة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باسم أمن الدعوة .

إن قضية الدعوة السرية كوسيلة لحماية الدعوة من أعدائها والتي توضع لها عادة بعض المسوغات والفلسفات المرضية نظرياً لا تلبث أن تزحف لتمارس على الدعوة نفسها وتحول دون اداء وظيفة التصويب الأساسية والرقابة العامة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وبذلك يتكرر خرق السفينة من المستهمين فيها لعدم رؤيتهم والأخذ على أيديهم ، ثم تنتهي إلى الغرق .

إن الدعوة إلى السرية لم تقتصر على مواجهة أعداء الدعوة ولم تتوقف عند عتبة الدعوة الإسلامية وإنما تسللت تحت اسم المصلحة إلى أجوائها فأصبحت ممراً لتقديم الولاءات وإبعاد الكفاءات عن مواطن الحل والعقد .

وكان أول ضحايا الدعوة إلى السرية مقومات العمل الإسلامي وليس أعداؤه .

إن سياسة الخفاء كوسيلة من وسائل الدعوة ونشر هذا الدين إلى جانب أنها تتعارض مع عملية البلاغ المبين مسؤولية المسلم التي بها نجاته ـ كما أسلفنا ـ فهي تتعارض مع الهدي النبوي حيث كان النبي ﷺ يخرج لتجمعات الناس ويعرض دعوته على الوفود في موسم الحج وغيره ويحتمل في سبيل ذلك الأذى وهو الأحوج إلى الأمن ، ذلك أن إيذاء المشركين والمبطلين لدعاة الإسلام من لوازم الحق ، وهو الثمن الذي لا بد منه للعقيدة ، وفرق كبير بين من يدفع ثمن ثباته على العقيدة وبين من يقبض ثمن العقيدة ، ولا نزال نذكر من سيرته ﷺ عندما جمع المشركين عند الصفا ليقول لهم : إني رسول الله إليكم بين يدي عذاب أليم . . فقال أبو لهب : تباً لك . . ألهذا جمعتنا ؟

وهديه في بيان أعظم الجهاد الذي هو إظهار الحق وقولته أمام الإمام الظالم هكذا جهاراً نهاراً لا خفاء فيه .

قال رسول الله ﷺ :

« إن من أعظم الجهاد قولة حق عند سلطان جائر »

إن مسؤولية المسلم تتحدد بإظهار الحق والثبات عليه ولو كان ثمن ذلك حياته وليس شيئاً آخر .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما ألحقت الدعوات السرية والباطنية في بالإسلام من كيد ، وما لحق فكرها من انحراف وعقيدتها من زيغ ، لأنها مشت في الأنفاق المظلمة ولم يكن هناك سبيل للتصويب والحوار ورصد نتائجه باسم الحفاظ على الكيان والسرية والأمن .

الاحتساب وعدم الاحتراف بالإسلام ..

ولعل من أهم الشروط لنجاح عملية البلاغ المبين والوصول بالدعوة إلى نفوس الناس امتلاك الدعاة خصائص وصفات متفوقة حتى يستطيعوا أداء المهمة المنوطة بهم ، وقد يكون من أهمها الاحتساب والزهد بما في أيدي الناس والابتعاد عن مزاحمتهم على ما هم فيه وعدم الاحتراف بالإسلام . قال تعالى محذراً أتباع الرسالة الخاتمة :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ... ﴾ (التوبة : ٣٤) لقد كان فساد ـ القلب ـ الأحبار والرهبان سبباً في فساد الجسد وسقوط الأمم السابقة وجعلها وسائل إيضاح للأمة الإسلامية التي تحمل الرسالة الخاتمة فلا تنتقل إليها العلل التي أصابت الأديان السابقة على يد أتباعها ودعاتها .

وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة وكان شعار الأنبياء جميعاً : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء : ١٠٩) .

ذلك أن الاحتراف بالإسلام وتوظيف الإسلام لمآرب شخصية يشوه وجه العاملين لهذا الدين ، ويقيم جداراً نفسياً يحول دون وصول دعوة الله واستنقاذ البشر مما هم فيه لدرجة قد تساهم مساهمة سلبية في إيذاء الدعوة وتحنيط الدعاة .

لذلك كان لا بد من التدليل عملياً على أن مجتمع الدعوة الإسلامية مجتمع عطاء وليس مجتمع أخذ . . مجتمع واجبات قبل أن يكون مجتمع حقوق . . مجتمع هداية وليس مجتمع جباية . . مجتمع الإيثار وليس مجتمع الأثرة ، وأن هذه القضية لا تتحقق بشعار يرفع أو بزمن بسيط بل لا بد من ممارسة من العاملين ليصبح ذلك خلقاً ، ومن اختبارات من الناس ليقفوا على الحقيقة ويتجاوزوا صور التضليل والتشويه التي تمارس على العاملين للإسلام حتى يكون ذلك منهج دعوة وليس وسيلة دعاية .

وبمجرد أن يخرج العمل الإسلامي عن هدف الاحتساب فإن أعداءه أقدر على دفع الثمن واحتواء العمل الإسلامي ، ولا يعدم عمل من الأعمال منتفعين به ومستغلين له .

جماعة المسلمين ..

من الخطأ العقيدي والتاريخي والحضاري الاعتقاد بأن الإسلام حكراً على جماعة بعينها إلى درجة تعلن معها أنها جماعة المسلمين أو أنها تمتلك الحق المحض وغيرها يعيش على الباطل المحض . ومن هنا يبدأ الانحراف وتتسع

زاويته ويبدأ التعسف في إصدار الأحكام على الناس إلى درجة قد تصل إلى تكفير من لا ينسلك في طريقها ولا يرى رأيها ، كما أن الإسلام ليس حكراً على طائفة أو حزب أو جنس بشري وإنما هو دين الله الخاتم ورسالته الخالدة للبشرية جميعاً وأن الرسول الكريم ﷺ هو وحده محل القدوة والأسوة ومصدر التلقي .

قـــال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ ... ﴾ وأن أي إنسان أو جماعة أو طائفة أو جنس بشري لا يمتلك ذلك ، مهما علا شأنه ، فإنه يبقى متبعاً وليس بمبتدع ، ويبقى الإسلام هو الحاكم على سلوكه ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون سلوكه هو المنهج والمقياس ، وأن نصيب المسلمين أفراداً وجماعات من نصرة الإسلام متفاوت بمقدار ما يقدم كل منهم للدعوة وبمقدار ما يقترب بسلوكه من المثل الأعلى محمد ﷺ .

والإسلام دين جماهير الأمة وأمل هذه الجماهير وهدفها والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْـوَةٌ ﴾ والرسول ﷺ يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله » من هنا يمكن القـــول :

إن الجماعات والجمعيات التي تدعو للإسلام ليست مراكز احتكارات له بعيدة عن جماهير الأمة ومنفصلة عن جسمها وهدفها ، وإنما هي مجموعات ترجو أن تكون أكثر كسباً للقضية الإسلامية وأشد اهتماماً بها ، يجب أن تكون مراكز متقدمة تتمثل الإسلام وتعطي أنموذجاً عملياً للحياة الإسلامية ، وتدرب على المعاني الإسلامية ، وتمثل الإسلام بصورة عملية لتغري بسلوكها الجاهلين بحقيقة هذا الدين وتكون لهم دليلاً ومرشداً ولا تحتكر الخير وتنتهي إلى تشكل غريب في جسم الأمة بعيد عن حمل أهداف الجماهير المسلمة والدفاع عنها ، والتحمل في سبيلها متمثلة قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

[جمادى الأولى : ١٤٠٤هـ ـ شباط (فبراير) : ١٩٨٤م]

تأملات في
مسيرة العمل الإسلامي (٢)

« لا خير فيهم إن لم يقولوها .. ولا خير فينا إن لم نسمعها »
[عمر بن الخطاب رضي الله عنه]

نرىٰ أنه لا بد أن نقرر ابتداءً أن عمليات النقد والمناصحة والتقويم والمراجعة وإلقاء المزيد من الأضواء على جوانب التقصير في العمل الإسلامي ، ووسائل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ـ بهدف التصويب ـ ليست بالأمر الجديد أو المبتدع في المجتمع الإسلامي .

المنهج القرآني .. في التصويب والتسديد

إن المنهج القرآني والتدريب النبوي بلغ في ذلك المدىٰ الذي لم يدع مجالاً لشك أو التباس أو غموض ، حتى إن عمليات التصويب والتسديد تناولت الرسول القدوة ﷺ في بعض ما اجتهد فيه ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ

لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٧ ـ ٦٨) ، وقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة : ٤٣) .

وعندما رأىٰ ﷺ عدم استقبال عبد الله بن أم مكتوم ، وتولى عنه ليستقبل كبراء قريش ، اجتهاداً منه بأن في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين ، نزل قوله تعالىٰ :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ... ... وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ . كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ... ﴾ (عبس : الآيات ١ ـ ١١) .

كما أن القرآن الكريم عرض لكثير من الغزوات والأعمال عندما كان يربي الجيل الأول على الإسلام ؛ ليكون « الجيل القدوة » ، وعرض كثيراً من جوانب الخطأ والتقصير على المستوى الفردي والجماعي ؛ حتى وصل في أعقاب بعض المواقف إلى القول :

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ .

ففي غزوة بدر الكبرىٰ جاء قوله تعالىٰ : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (الأنفال : ٦) .

وفي غزوة أحد جاء قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٥٢ ـ ١٥٣) .

وفي غزوة تبوك جاء قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

الآخِـرَةِ إلَّا قَلِيـلٌ . إلَّا تَنْفِـرُوا يُـعَـذِّبْكُـمْ عَـذَابـاً أَلِيمـاً ... ﴾ (التوبة : ٣٨ ـ ٣٩) .

وفي غزوة حنين جاء قوله تعالى :

﴿ ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ... ﴾ (التوبة : ٢٥) .

ولسنا الآن بسبيل استقصاء هذا ، وتكفي نظرة اطلاعية وليست استقصائية لكثير من أسباب النزول ، وكثير من أخبار السير والمغازي لتؤكد أن حراسة القضية الإسلامية ، وبناء قاعدة المجتمع الإسلامي الصلبة ، وتربيتها على الإسلام الصحيح إنما كانت بالتسديد الدائم والتبصير بالأخطاء ليتم استدراكها فتصوب المسيرة . . .

إنه المنهج القرآني والآيات القرآنية الخالدة تتلى على الأجيال ، جهاراً نهاراً ، لتبصر منهج حركتها ، وتتجنب الخطأ في مسيرتها ، وتلتزم المناصحة لا تحيد ولا تنصرف عنها لأي سبب أو توهم ، وقد مارسها جيل القدوة على أعلى المستويات وأدناها ، فالدين النصيحة في الإسلام وهي لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم . . .

توقف عمليات النصح والتقويم ..

ولا بد لنا أن نعترف أيضاً أن كثيراً من العاملين للإسلام اليوم ليسوا بمنأى عن الإصابة بالأمراض والعلل التي أصابت مجتمعاتهم المتخلفة ، فهم قد يتميزون عن غيرهم بفكرهم وعقيدتهم لكنهم يشاركون مجتمعاتهم بممارساتهم وأعمالهم إلى حد بعيد . . . لذلك ونتيجة للسقوط تحت وطأة وضغط هذه المجتمعات أقفلت مجالات الحوار التي شرعها الإسلام ، وتوقفت عمليات المناصحة والنقد والدراسة والتقويم بالحجم والقدر المطلوب ، وسادت عمليات التبرير والإطراء والمديح ، فتكرست الأخطاء ، وافتقدنا الصواب والتصويب ـ مسؤولية كل مسلم ـ وقد أشرنا سابقاً إلى أن توقف عملية الرقابة العامة ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ باسم الخوف على الصف الإسلامي من التخلخل وحدوث

التشويش نوع من التوهم . . . فالخوف إنما يكون من استمرار المعاصي والأخطاء وليس في معالجتها ليصبح العمل سليمًا معافىٰ ، خاصة وأن تجربة الرقابة العامة في المجتمع الإسلامي القدوة غنية أيما غنى . . .

ولا شك عندنا أن كثيراً من الإخوة ، من الذين تحفزهم الغيرة على المصلحة الإسلامية ، والإخلاص للعمل الإسلامي لا يرون أن تتم عمليات النقد والمناصحة للعمل الجماعي بشكل ظاهر واضح بحجة أن ذلك يمكن أن يمكّن العدو من معرفة عيوب العمل الإسلامي وأخطائه وتقصيره ، وبالتالي يحاول التسلل إليه من هذه الفتوق ، ويشتد في إنهاكه والغارة عليه ، في الوقت الذي نرىٰ من شراسته وعدوانه ما لم يدع استزادة لمستزيد ، فيخشى والحالة هذه أن تنقلب عمليات النقد والمناصحة إلى مساهمة سلبية في إنهاك العمل . . . وتختلط في ذهنهم طرائق مناصحة الفرد لتصويب بعض أخطائه والتي يجب أن تتم في إطاره وإلا خرجت إلى لون من التشهير ، وطرائق مناصحة الجماعات ذات التوجه العام والقاعدة العريضة المتباعدة ، حيث يجب أن تتم مناصحة الجماعات على شكل معلن لتأتي عامة فيراها الجميع وتكون ملكاً لهم . . .

ونحب أن نوضح لهؤلاء الإخوة أن الأعداء الذين نالوا منا ما نالوا أعرف بأخطائنا منا ، لأنهم كانوا ولا يزالون يتسللون من خلالها ، ويحققون إصاباتهم من قبلها ، ويستميتون في تكريسها واستمرارها وعدم قدرتنا على إبصارها ، وتخويفنا من معالجتها ، والواقع الذي لا نحسد عليه دليل على ما نحن بصدده ، فأعداء الإسلام يعرفون أخطاءنا وتقصيرنا ، والذي لا يعرفها أو لا يحب أن يعترف بها هو فقط نحن ، لأننا مصرون عليها ، عاجزون عن معالجتها وتجاوزها ، وقد تكون كتابات الأعداء ووثائقهم التي يفرج عنها مصدراً لمعرفتنا بها في كثير من الأحيان لكن بعد فوات الأوان . . .

خطورة الابقاء على الأخطاء وتعطيل الحوار والمناصحة

إن الإبقاء على الأخطاء لسبب أو لآخر ، وعدم كشفها وتبصير الجيل بها ، ومن ثم معالجتها هو أشبه ما يكون بوجود الألغام الموقوتة التي تزرع في الجسم الإسلامي ، وقد يكون فتيلها في يد العدو يفجرها بين حين وآخر لتودي بالعمل الإسلامي كلما حاول النهوض وكاد أن يستوي على سوقه . . . لذلك فإن فلسفة التبرير وتوقف المناصحة وتعطيل الحوار وعدم دراسة جوانب التقصير لا يقتصر على تكريس هذه الأخطاء ونموها ، وإنما يؤدي إلى تكرارها . . . ولا بد أن يدرك دعاة الإسلام على مختلف مواقعهم أن الخطورة ، كل الخطورة في التستر على الخطأ والقبول بالإبقاء عليه ، فتنمو العلل في جسمنا ، وليست الخطورة في بيانه ومعالجته .

إننا لا نشك في إخلاص كثير من الذين يحذرون من عمليات النقد ، وغيرتهم على العمل الإسلامي ، ولكننا نشك في إدراكهم وصوابهم ، حيث لا يكفي الإخلاص لبلوغ العمل غايته بل لا بد من الإدراك ؛ وعمليات التصويب ـ كأمر مطلوب ـ لا تقل أهمية عن الإخلاص إن لم تكن هي الإخلاص أيضاً ، بل لا بد منها ليأتي الإخلاص بالثمرة المرجوة بإذن الله تعالى . . .

لقد كان هذا هو منهج علماء الحديث الذين أخذوا على عاتقهم القيام بالمحافظة على سنة رسول الله ﷺ ، هذا العمل الضخم ، وضع أصول الجرح والتعديل ونقد السند والمتن ، الأمور التي لو التزمها المسلمون في حياتهم وممارساتهم اليومية لكانوا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ ، فبعض الرواة ، على الرغم من أنهم على مرتبة من العبادة والإخلاص لا يتطرق إليها شك ، ومع ذلك لم تقبل روايتهم لعدم قدرتهم على الضبط ، ولسيطرة الغفلة عليهم . . .

ولقد وصل الإخلاص ببعضهم ، عن حسن نية في مجال الترغيب والترهيب إلى وضع زيادات لم ترد عن رسول الله ﷺ ، وعندما سئلوا عن ذلك ، والرسول ﷺ يقول :

« من كذب عليَّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »

قالـــوا :

«إننا كذبنا له ولم نكذب عليه» . . . فكان هذا محل رفض من علماء الحديث ، فإن الكذب له بمرتبة الكذب عليه ، ولو كان دافع الكذب عليه : الزندقة وكراهية الإسلام ؛ ودافع الكذب له : الترغيب في الخير والترهيب من الشر . . .

إننا نعتقد أن هؤلاء المخلصين كالأم التي تصل غيرتها ومحبتها لوليدها الوحيد إلى عدم تقويم سلوكه وتربيته على تحمل المسؤولية ، حفاظاً على شعوره فتصنع منه إنساناً هشاً عاجزاً عن مواجهة مشكلاته ، وقد تؤدي محبتها له وحرصها عليه إلى موته ، لأنها تحول دون تسليمه للطبيب خشية أن يخاف من مقابلته أو يتألم من بعض علاجه دون أن تدري أنها آلام موقوتة تضمن له الصحة والعافية والحصانة ضد الأمراض . . .

لكن تبرز هنا قضية على غاية من الأهمية لا بد من التنبه لها : إنها قضية الالتزام بأدب الإسلام في الحوار والخلاف في وجهات النظر ، والجدال بالتي هي أحسن ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم حتى لا يكذب الحق ؛ وإعطاء الآخرين الحق نفسه في إبداء الرأي ، والتزام منهج النبوة في أن ينصرف التقويم والتصويب والنقاش للأعمال والأفكار والبعد عن تناول الأشخاص والهيئات والجماعات ، فالرسول ﷺ الذي يعتبر سكوته تشريعاً وإقراراً لم يكن يسكت عن أي تقصير أو انحراف لكنه كان يعمم النفع على مجتمع المسلمين ويشيعه فلا يقعون بما وقع به صاحب الخطأ ، فيقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا . . . يقولون كذا وكذا . . . » ذلك أنه من كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف ، فإذا لم يُلتزم الأدب والخُلُق الإسلامي تنقلب المناصحة والنقد إلى لون من التشهير والجلد يوقع في ردود الفعل حيث يتصلب المخطئون ويزيد استمساكهم بخطئهم ، لكن الخطأ في المعالجة وغياب الحكمة في عمليات النقد والمناصحة لا يجوز بحال من الأحوال أن يودي بأصل القضية ويقود إلى إلغاء المناصحة بحجة فقدان الحكمة وجهل وفظاظة الذين يمارسونها ، وإنما يتطلب إلغاء الوسيلة غير المجدية أو تهذيبها أو استبدالها ، والاحتفاظ بضرورة استمرار القضية للمجتمع الإسلامي والعمل الإسلامي .

حتى لا تتكرر الأخطاء

ولعل من أبرز الظواهر لغياب عمليات المراجعة والنقد والدراسة والتقويم التي يلمحها الإنسان في مسيرة العمل الإسلامي ومجال العاملين : العجز المزمن أو عدم القدرة على الاستفادة من تجربة العمل الإسلامي الواحد ، أو من تجارب العمل الإسلامي على الساحة الإسلامية بشكل عام ، لذلك فإن تكرار الأخطاء أصبح وكأنه ضربة لازب وضريبة مستمرة مطلوب إلينا أن نقدمها في كل بلد إسلامي ، أو حتى في البلد الواحد نفسه ؛ وهذا الأمر ليس سراً بل نرى تأكيده من الجميع ، ونسمع الشكوى منه من الجميع أيضاً ؛ وترفع شعارات هنا وهناك بضرورة أن يستفيد العمل الإسلامي من تجاربه الخاصة ومن تجارب العاملين للإسلام بشكل عام على طول العالم وعرضه حتى لا تتكرر الإصابات .

ولعل عدم القدرة على معالجة ذلك من أشد حالات العجز التي يمكن أن تصيب الدعاة وتحاصر منطلقاتهم ، وتحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم ، وتدعهم هكذا يراوحون في مكانهم ، ذلك أن المفروض بالمسلم أن يكون قادراً على الاستبصار والاعتبار بالتاريخ العام وبعبر الحوادث من حوله ، فكيف إذا كان عاجزاً عن الاعتبار بتاريخه الخاص وتجنب العثرات التي سبق له السقوط فيها ؟!

إن هذه العثرات والأخطاء تتكرر دائماً ، والكل يشكو ، والكل ينتهي عند عتبة هذه الشكوى وكأنها العلاج !! ولو طُلب إلى أحدنا أن يأتي على ذكر الآيات القرآنية التي تدعو إلى النظر والاعتبار وتعرض لتطبيقات ميدانية من تاريخ الأمم السابقة لأتى عليها بسهولة ، ولأمكنه ذلك بمجرد اطلاعه على مادتها اللغوية في « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » لكننا جميعاً ، إلا من رحم الله ، نبقى عاجزين عن إعمالها في حياتنا ومشكلاتنا ، فنقع بعملية الهجر والعقوق لقرآننا التي حذر الرسول ﷺ من الوقوع فيها ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (الفرقان : ٣٠) والهجر هنا لا يعني : عدم التلاوة والقراءة فقط ، وإنما يعني أيضاً العجز عن وضع خطاب التكليف في مكانه المطلوب من حياتنا ، وحكمنا على الأشياء من خلال قيم الكتاب والسنة . . . فإلى متى يتكرر اللدغ من الجحر

نفسه أو من الجحور المماثلة ، ويركبنا الصلف ، ونقرر أن الهزائم انتصارات ، أو نصر على السير في الطريق المسدود ، ونحول دون أية عملية مراجعة أو تقويم ؟!

وفي تقديرنا أن لذلك أسباباً عديدة ، ونحن هنا لسنا بسبيل استقصائها ووضع دراسة في هذا الموضوع على ضرورتها وأهميتها ، وإنما لا نرىٰ من مهمتنا في هذا المجال أكثر من إثارة للموضوع ووضع ملامح رئيسة وتأملات يمكن أن تفيد على الطريق إلى العمل الإسلامي السديد ، ويمكن أن يكون أحد أبرز هذه الأسباب :

عدم وضع دراسة تقويمية نقدية لكل تجربة ومرحلة في مسيرة العمل والدعوة ، وبيان السلبيات والإيجابيات ، كما يقولون ، وتحديد جوانب الإخفاق وأسبابه ، وجوانب النجاح وعوامله لتكون دليلًا للجيل المسلم الذي يقف على الأرض نفسها ، أو يتعامل مع الظروف ذاتها ، أو للجيل القادم الذي يمكن أن تعرض له مشكلات مماثلة فيحسن اختيار الموقع الفاعل إسلامياً كما يحسن قراءة الظروف وحسن التعامل معها ويختصر التجربة .

ونستطيع أن نقول : إن المكتبة الإسلامية الحديثة تكاد تكون خالية أو شبه خالية من الدراسات النقدية التقويمية للمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية والتجارب التي عانتها رغم كثرتها ، التي تبصر الجيل بتاريخه ، وتعرفه بالأخطاء ، وتدربه على حسن المواجهة مع أعداء الإسلام والمسلمين . . . إن المكتبة الإسلامية الحديثة غنية بالكثير من الدراسات التي تحمل طابع الكلام عن الإيجابيات ووضع المبررات ، وكيل المديح بلا حساب ، أما الدراسات الناقدة والأصوات الناقدة ، فتكاد تكون غائبة تماماً ، فكيف لا يتكرر الخطأ والحالة هذه ؟!

لقد مرت على العالم الإسلامي أحداث جسام شكلت منعطفات كبرىٰ في تاريخه الفكري والسياسي ، وكان للدعوة الإسلامية في ذلك مواقف ، فإلى أي مدىٰ كانت هذه المواقف صائبة أو خاطئة ؟ ما هي جوانب الخطأ والصواب في ذلك ؟ وهل تحققت الأهداف المرسومة إسلامياً ؟ لتكون الدراسات صوى على طريق الجيل المسلم تمكنه من قراءة تاريخه الحديث ، وتبصره وتفتح أبصاره صوب مستقبله ؛ تقول للجيل المسلم : استفد من التجربة ، واحذر الوقوع في الخطأ . . .

إن معرفة الخطأ والصواب من حق كل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية الذين يقفون على أرض المواجهة نفسها ليكونوا على بينة من أمرهم ، فلا يكررون المشكلة نفسها . . . وحصر ذلك في طبقة أو مجموعة على افتراض وجوده يحمل الكثير من الخطورة على العمل الإسلامي ومستقبله . . .

ويمكن أن لا يكون السبب في ذلك ـ فقدان الدراسات الناقدة ـ عدم وجود المؤهلات والقدرات المدربة فقط ، وإنما قد تكون المشكلة أن العمل الإسلامي ما يزال يضيق ذرعاً بالدراسات النقدية التقويمية تحت شتى العناوين وبشتى المعاذير ، وقد تكون هذه المواقف عند كثير من العاملين عن حسن نية والتي لا تخلو من كثير من الغفلة ، كما أسلفنا ، إلى درجة قد تستخدم معها هذه الغفلة لمطاردة ومحاصرة الأصوات الناصحة الداعية إلى المراجعة وإعادة النظر . . . ويمكن أن نفسر ظاهرة الانفصال والنزف المستمرة عن بعض صور العمل الإسلامي بسبب من ضيقه بالحوار وضيقه من تعدد وجهات النظر . . .

التعســـف في التفسير الإسلامي .. والتعصـــــــب الحـــــزبي

وقد يكون السبب : الخطأ في الأصل : التسليم بعصمة الأشخاص أو في مشكلة الولاء للأشخاص ، التي لا بد لها من فلسفة ومبررات ملازمة لاعتقاد عصمتهم عن الخطأ ، فيصبح غاية الجهد ، إيجاد المبررات ونفي الأخطاء ، أمراً لازماً للصورة ، فلا بد من الحفاظ عليهم ، أحسنوا أم أساؤوا ، الأمر الذي يكرس الخطأ ، ويوقف المناصحة ، ويستبدل بالناصحين غيرهم ممن لا يزالون في مرحلة التمييز ودون سن الرشد .

وقد يكون السبب هو التعسف في التفسير الإسلامي ، ذلك أن بعض الجماعات والأشخاص قد تعرض لهم ظروف خاصة في أزمان خاصة فيحاولون تفسير الإسلام وإسقاط مدلول آياته وأحاديثه على ظروفهم ، والقطع بما ذهبوا إليه ، وعدم الاكتفاء بذلك وإنما تعميم هذا التفسير على عالم المسلمين وعالم العاملين للإسلام بشكل عام ، والذي لا يرى تفسيرهم هذا يمكن أن يكون خارجاً عن الطاعة ومفارقاً للجماعة التي نهى الرسول ﷺ عنه ، إلى درجة قد تستبيح دمه . . .

وبالمناسبة يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه من العلل الكبيرة التي أصابت أصحاب الأديان السابقة ، لتكون لنا وسائل إيضاح وتجربة ، فلا نقع بما وقعوا فيه ، إنما كانت بممارسة الإرهاب الديني والتحكم بمصائر الناس ، ومطاردة الأفكار المخالفة وتحريق كتبها ، وإن أمكن قتل أصحابها ، إلى درجة غيبت الحقيقة وأظهرت الخرافة . . .

وقد يكون من أسباب تكريس الخطأ : وقوع بعض النماذج في العمل الإسلامي في حمأة التعصب الحزبي نتيجة لضغط المجتمعات وردود الأفعال ، وتحويل الآراء الاجتهادية إلى مذاهب سياسية ، والتجمعات الإسلامية إلى طوائف حزبية . . . أو بمعنى آخر الارتكاس في مدلول المناصرة والعودة إلى المفهوم الجاهلي بسبب من غفلةٍ وغياب للبعد الديني الإيماني ، وبذلك يكرس الظلم ويكرس الخطأ ، وينتصر بعضنا ويتحزب لمن يواليه مظلوماً أو ظالماً بدل أن يأخذ على يديه .

وقد أشرنا سابقاً أنه من الخطأ العقيدي والتاريخي والثقافي والحضاري ، والدعوي ، إن صح التعبير ، ربط الإسلام بجنس أو لون أو عرق أو جماعة أو جيل أو زمان معين ، وإنما لا بد من التأكيد أن الرسول ﷺ وحده هو محل الأسوة والقدوة الذي تربى على عين الله عز وجل وتسديد وحيه ؛ وأن القيم هي المقياس وليس الأشخاص ، والسبيل إلى الصواب والتصويب أن نعرف الحق لنعرف رجاله ، وأن يبقى ميزاننا الحق وليس الرجال . . .

[جمادى الآخـــرة : ١٤٠٤هـ ـ آذار (مارس) : ١٩٨٤م]

حتى نكون
على مستوى المسؤولية

﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾
(القيامة : ١٤)

نستطيع أن نقول : إن الدعوة الإسلامية الحديثة استطاعت وإلى حد بعيد الانتصار في المعركة الأساسية ، وهي تحقيق الذات الإسلامية ، وتحديد معالم الشخصية الإسلامية وبيان مقوماتها وطرحها على الساحة من جديد ، والتحقق بالتميز الإسلامي على مستوى التصور ، وإن كان هذا التميز لا يزال بأشد الحاجة إلى الرشد . . ولعل صور الصراع المحتدم بين الإسلام وخصومه ، وشراسة المواجهة ، مؤشر واضح على تحقق الوجود الإسلامي على الساحة ، واء نُظر لذلك من خلال المؤمنين به المضحين في سبيله ، أو من خلال الخصوم تدادهم بالمواجهة .

كما أن الدعوة الإسلامية الحديثة استطاعت الانتصار أيضاً في معركة التحدي لحضاري ، والصراع الفكري ، وتخليص الجماهير المسلمة من مركب النقص مام الحضارة الأوروبية الغازية المتفوقة مادياً ، وتجاوز المشكلات التي قُذف بها العالم الإسلامي ليكون ذلك وسيلة ومدخلاً لاسترداد الحلول الاستعمارية لعالم المسلمين وادعاء عجز الإسلام عن المواجهة وتنظيم أمور الحياة . . .

وحـــدة العـــالم الإســـلامي

وهذا لا يعني بالطبع التخلص النهائي من بعض الشراذم والأعشاب الضارة التي ما تزال تعيش في الحقل الإسلامي ، وتمارس عملية النفاق الاجتماعي لإخفاء حقيقتها وتعمل لمصلحة غيرالمسلمين ، لأن الشر من لوازم الخير ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ (الفرقان : ٣١) كما استطاعت الدعوة الإسلامية الحديثة الاحتفاظ بشعور المسلمين بوحدة العالم العربي والإسلامي وإقناعهم بأن ذلك دين لا يجوز التفريط فيه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء : ٩٢) فالأمم أقوى من الحكومات ، والمبادىء أبقى من السياسات رغم واقع التجزئة الذي جاء به الاستعمار الحديث ليثأر لهزيمة الحروب الصليبية بعد أن أجمع على تقطيع أوصال دولة الخلافة ، وأمعن في تفتيت وتذويب العالم العربي ـ قلب الأمة الإسلامية ودماغها ـ وفرض واقع التجزئة وأقام الكيانات الإقليمية والدويلات مستخدماً كل النزعات القبلية والعشائرية والعائلية والجنسية والقومية ، وبعث كل الفوارق من مرقدها لتكون حواجز في وجه الأمة الواحدة على شكل لم يحدث له مثيل في العالم حتى بعد الاقتسام الاستعماري لتركة الرجل المريض !! ذلك أن التمزيق لم يأت بحسب جنسية الاستعمار ، وإنما مزقت البلاد العربية والإسلامية شر ممزق ، وقُطِّعت إرباً إرباً رغم أن العلم الاستعماري كان واحداً ، فالبلاد العربية التي كانت تابعة للاستعمار البريطاني وواقعة تحت انتدابه ، كالعراق وفلسطين والأردن ، جعل لكل منها كيانها الخاص ، وفي مناطق أخرى من العالم العربي كانت واقعة تحت الحماية البريطانية حيث بلغت التجزئة وعدد الدويلات صورة لا يقبلها العقل . . . كما قسم الاستعمار الفرنسي سورية ولبنان ، وجعل المغرب العربي مغارب ، ورسم الحدود وضمن حراستها ، وأقام السدود والحواجز حتى بات العربي المسلم اليوم قادراً على التحرك في معظم أنحاء العالم إلا في وطنه العربي . . . وكذلك حاول الاستعمار إيجاد البدائل الفكرية والسياسية والتربوية على الأرض الإسلامية على شكل لم يحدث ما يشبهه في مختلف مناطق الاستعمار في العالم ، ونبش القبور وقرأ الحجارة والصخور في محاولة يائسة لتثبيت الكيانات ودعم الدويلات باسم :

الفن الشعبي والفلكلور ، وغير ذلك كثير من المصطلحات . . .

المواجـــهة المكلـــفة

لذلك نقول : إن الدعوة الإسلامية الحديثة خاضت معارك متعددة الجوانب ، وكانت المواجهة مكلفة خلال نصف قرن من الزمان .

إنه قدر هذه الأمة في هذه المرحلة من الحياة ، كما أنها قدمت تضحيات وخاضت معارك ضد الظلم والاضطهاد والاستعمار والاستعباد أعادت للذاكرة صور الجهاد الأولى ، ودقت ناقوس الخطر اليهودي والتبعية الثقافية بشكل مبكر ، ومبكر جداً ، فلعلنا ندفع اليوم ثمن الانسلاخ عن الإسلام ، وضريبته من التفرقة والتخلف

نعود إلى القول : إن الدعوة الإسلامية الحديثة ، رغم كل محاولات التفتيت ، استطاعت الاحتفاظ بشعور المسلمين بوحدة العالم الإسلامي ، وعملت على تنمية هذا الشعور ، وبدأت بإقامة بعض المؤسسات الجامعة على مستوى العالم الإسلامي ، وعقد المؤتمرات الشعبية التي تعاظم أمرها إلى درجة اضطر معها الرسميون في عالم المسلمين إلى رفع شعارات الوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، بعد أن كاد بعث الكيانات الإقليمية يعصف بها ، ويهدد تاريخ الأمـة ، ويمزق رقعة تفكيرها ، ويقضي على وحدتها الشعورية الجامعة . . .

كما أنها استطاعت أن تعيد الجماهير المسلمة إلى الاعتزاز بالإسلام ، والاستعلاء بالإيمان ، وتجديد الأمل بقدرة هذا الدين على مواجهة المشكلات المعاصرة بما له من تاريخ وتجربة حضارية ، ولقد ساعد على ذلك عوامل كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ، لعل من أهمها : سقوط الحضارة الغربية الأوروبية وعجزها عن الإجابة عن مشكلات الإنسان وإخفاق خريجي المدارس الاستعمارية وتلامذتها ، الذين مكّن لهم الاستعمار ، من تحقيق أي أمل أو تقديم أي عمل للجماهير المسلمة ، وأن ما طرح من شعارات وبدائل فكرية لم تخرج في الحقيقة عن أن تكون أقنعة اختبأت خلفها الطائفيات والإقليميات التي

تحمل الكيد التاريخي للإسلام ، أو وسائل للابتزاز السياسي وممارسة سلخ الجماهير عن إسلامها ، أو الأمرين معاً ؛ رغم المحاولات المستميتة لجعل الهزائم انتصارات ، وتقديم فلسفة المبررات ، فقد تكرس الانفصال وبوركت التجزئة ، وقامت المعارك بين العرب والمسلمين بعضهم بعضاً .

حل المعادلة الصعبة بين العلم والدين

ولعل من الإنجازات الكبيرة على المستوى الفكري : استطاعة الدعوة الإسلامية حل المعادلة الصعبة التي توهمتها الجماهير المسلمة بين العلم والدين حتى كادت تسقط في فرية أن العلم من لوازم الإلحاد ، ذلك أن البعثات التي تمت تحت رقابة الاستعمار ، أو ضمن مناخه اختيرت غالباً من المارقين والمترفين ، ومن البيوتات المفتونة بالحضارة الغربية المادية إلا من رحم الله ، ليعودوا إلى قيادة المجتمع ويبرهنوا عملياً أنهم إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الحصول على الشهادات والمراتب العلمية بسبب انفصالهم عن الدين . . . فقدمت الدعوة الإسلامية نماذج إسلامية رفيعة على أرقى ما يكون الانتماء والالتزام ، وجاءت في الوقت نفسه على أرقى المستويات في التخصص العلمي .

ولسنا الآن بسبيل أن نعرض لحصاد الدعوة الإسلامية خلال نصف قرن من تفويت لأغراض الاستعمار وإفساد لمخططاته ، وحسبنا في ذلك الهجوم الشرس ومحاولات التصفية الجسدية التي توقع على المسلمين من أعداء الإسلام بعد أن سقطوا فكرياً وحضارياً ووطنياً ، ولم يبق أمامهم إلا اللجوء إلى القوة والعضلات ، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم في مواجهة النبوة الذي قصَّه علينا الله تعالى في عديد من آياته :

﴿ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ (الأنبياء : ٦٨) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (إبراهيم : ١٣) .

إن الدعوة الإسلامية استطاعت أن تقدم هذا الرصيد ، رغم عمليات المطاردة والمحاصرة وعدم إعطائها الفرصة والحرية لإثبات وجودها والبرهنة على قدرة الإسلام على حل مشكلات الأمة . . . وقد أشرنا بأنه لا يعنينا هنا أن نعرض لحصاد الدعوة الإسلامية خلال نصف قرن إنما الذي يعنينا ما يمكن أن

نهتدي إليه من عيوب ـ رحم الله امرءاً أهدىٰ إلي عيوبي ـ يأتي التنبه إليها مسدداً للعمل وآخذاً بيده إلى سبيل الرشاد ، وتكاد تكون المشكلة المطروحة الآن على العاملين للإسلام ، وعلى القيادات الإسلامية بشكل خاص ، أو القضية المطلوبة الآن بعد أن آمنت الجماهير بالإسلام وتوجهت صوب مبادئه من جديد ، بعد أن آمنت به مبادىء عامة ومثلاً رفيعة وقيمًا ثابتة ، وبدأت رحلة العودة وتجديد الانتماء ، **فهل يعني هذا أن العمل الإسلامي أدىٰ مهمته ؟**

من مرحلة المبادىء إلى مرحلة البرامج

إن الخطورة كل الخطورة تكمن في عملية التوقف عند حدود هذه الخطوة ، خطوة الاكتفاء بالإيمان بالإسلام مبادىء ومثلاً ، ومن ثم الاسترخاء وخداع النفس بالأماني والاستسلام لنوم عميق ، وعدم القدرة على تجاوز هذه الخطوة إلى مرحلة ترجمة المبادىء إلى برامج ، أو بعبارة أخرىٰ : الانتقال بالدعوة الإسلامية من مرحلة المبادىء إلى مرحلة البرامج ، الانتقال من مرحلة الخطب وزعامة المنابر إلى مرحلة الخطط ودراسة الاحتمالات ووضع الحسابات الدقيقة لكل حركة ، أي : وضع الخطط المرحلية على ضوء رؤ ية شاملة للظروف المحيطة والإمكانات المتاحة ، وإعطاء الزمن الكافي لإنضاج كل مرحلة وعدم استعجال الثمرة ، ولا يتحقق هذا إلا بالإدراك الكامل لمفهوم الوسع في التكليف القرآني ﴿ .. **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** ... ﴾ (البقرة : ٢٨٦) حيث لا يجوز أن نكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به ، فنقع في إحباطات وارتكاسات تعيق نمو العمل وتقوده إلى المهالك وتقتل الأمل في نفوس الجماهير المسلمة .

لا بد من الالتزام بمصلحة وحركة هذه الجماهير التي آمنت بمبادىء الإسلام ، والاعتراف بأنها مرحلة الاختبار الصعب ، ذلك أن المبادىء أثبتت مصداقيتها تاريخياً ، وكان دورنا تجديد ذاكرة المسلمين تجاهها ، لكن يبقى اختبارنا الصعب **هو ترجمة هذه المبادىء إلى برامج ، والآراء إلى مواقف وهو الوجه الآخر للقضية .**

وجود الرأي وفقدان الموقف

وفي اعتقادنا أن من المشكلات المهمة التي يعاني منها العمل الإسلامي اليوم : مشكلة وجود الرأي وفقدان الموقف ، فالكثير الكثير من دعاة الإسلام اليوم يتمتعون بآراء على غاية الأهمية والسداد ، لكنها الآراء التي تفتقد إلى المواقف الضرورية لمسيرة العمل الإسلامي ، فهل نوبخ آراءنا بمواقفنا ؟! ذلك أن العجز عن الالتزام بمصلحة الجماهير المسلمة وحسن قيادة حركتها وفق المبادىء الإسلامية يخشى أن يذهب بحصيلتنا كلها . . .

إن التوقف عند مرحلة الآراء والمبادىء وتركها معلقة على المنابر ، أو حبيسة الكتب دون تنزيلها إلى واقع المسلمين يحمل من الخطورة الكثير إلى درجة قد نساهم معها بإجهاض هذه المبادىء وحرقها على أيدينا إذا عجزنا عن تمثلها ، وبذلك لا نختلف عن غيرنا في نظام حياتنا ووسائل كسبنا وطرق إنفاقنا . . .

إن العجز عن ترجمة المبادىء والآراء إلى برامج ومواقف ، وعدم القدرة على ربط الأسباب بالنتائج ، وعدم القدرة أيضاً على دراسة الاحتمالات ، وغياب الحسابات الدقيقة والأمينة هو أزمة العمل الإسلامي اليوم أو أزمة القيادات الإسلامية بشكل عام ، ذلك أن عدم القدرة على ترجمة المبادىء والآراء إلى برامج ومواقف وربط الأسباب بالنتائج ودراسة الاحتمالات والحسابات الدقيقة يعني من وجه آخر الحكم على هذه المبادىء أنها أقرب في طبيعتها إلى المثالية البعيدة عن متناول البشر ، والخيالية الفلسفية التي قد ترضي العقل وتذكي العاطفة لكنها لا ترشد السلوك وتنظم الحياة ، وبذلك يدخل علينا أعداء الإسلام من النافذة من جديد بعد أن طردناهم من الباب بحجة أن الإسلام مثالي لا يمكن تطبيقه في مجتمعات اليوم ، وأنه كان يصلح لفترة معينة ولجيل بذاته ، أما الآن فأين هذا من واقع الأمـــة الذي يقتضي مبادىء من نوع آخر تمتلك القابلية للتطبيق . . . ومن هنا ندرك أهمية تربية الجيل الأول وكيف أن الصحابي كان لا يتعلم الآية ما لم يعمل بالتي سبقتها . . .

قد يكون صحيحاً إلى حد بعيد أن الهجمة الشرسة واستمرارية المدافعة وتعدد آفاقها فوّتَ الكثير من الفرص التي كان بالإمكان الإفادة منها في مجال ترجمة

المبادىء إلى برامج ، لكن يبقى الإلقاء بالتبعة كلها على غيرنا يعني في جملة ما يعني أننا دون سويّة المعركة ، ودون سوية التعامل معها ، وذلك بعدم القدرة على امتلاك زمام المبادهة فيها واستنفاد الجهد كله بالمواقع الدفاعية والتحرك في إطار الفكر الدفاعي . . .

ومع اعترافنا بأنه لا بد من الاستمرار في الدفاع عن المواقع الإسلامية المهددة ، والاستمرار في تحرير الأفكار الإسلامية المستهدفة لاستمرار الهجوم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ... ﴾ (البقرة : ٢١٧).

لكن هل المفروض على عالم المسلمين أن تبقى المعركة دائرة على أرضهم ، ويستمر الإسلام في معركة الدفاع عن النفس إلى ما لا نهاية ، وكلما رددنا تهمة ودحرنا شبهة ألقى إلينا أعداء الإسلام بأخرى لنتوجه صوبها دون إمهال ، أم أن « استراتيجية » المعركة بين الإسلام وخصومه تقضي بنقلها إلى أرض العدو ، فيكون خير وسيلة للدفاع الهجوم ، ونقل الإسلام من موضع الاتهام إلى موقع التحدي للمبادىء والأفكار التي عجزت عن حل قضية الإنسان ؟!

من المواقع الدفاعية إلى المواقف الفاعلة

إن الدفاع عن النفس المسلمة وصيانتها إنما هو في حقيقته وسيلة لتكون قادرة على عطاء معين من نوع آخر . . . إلى جانب أهمية التحديد الدقيق لمعركة الدفاع ومساحتها ووسائلها ، الأمر الذي لا يجوز له أن يستغرق جهودنا ويستنفد طاقاتنا ، فإن المواقف الدفاعية والاستمرار في مواقع الفكر الدفاعي لا تعني تقدماً ولا بصارة بالأمور ، ولا شمولية في الرؤية ، وإنما تعني مراوحة في المكان الواحد ولو بذل كل الجهد ، وتعني عجزاً في تقدير الأمور ودراسة نتائجها ، إنها تعني انفعالاً ولا تعني فعلاً ، تعني إثارة ولا تعني ثورة تغييرية للواقع غير الإسلامي ، قد تعني شدة بالصُّرعة لكنها لا تعني أبداً ضبط النفس عند الغضب ، ومن ثم حسن التصرف واختيار الموقع الفاعل ، وعدم استنزاف الطاقة والقدرة على التحكم . . .

إن الاستمرار في حالة الدفاع يجعل الزمام في يد أعداء الإسلام والمسلمين ، ويبقي التحكم بالمعركة في صالحهم زماناً ومكاناً ومضموناً ، فيكون الاستنزاف ، ويكون الإنهاك ، ويتحقق الاستهلاك ، وقد يتقن العدو اللعبة فيحسن إثارة المشكلات في الوقت المناسب ويتحكم بمسار المسلمين الفكري والكتابي . . .

وقد يلجئهم إلى مواقع يضطرون معها إلى بعض الممارسات التي هي محل نظر ابتداء من الناحية الشرعية تحت شعار : الضرورات تبيح المحظورات ؛ وبذلك نقع في أزمة الفكر المنكوس ألا وهو : **الاحتكام إلى النتائج والالتزام بها دون القدرة على مناقشة المقدمات التي أدت إليها** ، أو نبصر المقدمات الخاطئة بعد أن نسقط في النتائج حيث لا يفيد الندم والبكاء على الأطلال . . .

فإلى متى نفتقد زمام المبادرة في الطرح ، ونستمر في معالجة رد ومواجهة ما يطرح على ساحتنا ، ونعجز عن الطرح ؟! وإلى أي مدى يجب أن تبلغ المعركة الدفاعية التي كثيراً ما تكون خطة ذكية تصرفنا عن معالجة قضايانا الأصلية فنبقى نراوح في مكاننا ، خاصة عندما ينحصر جهدنا في استرداد المعارك القديمة والدخول فيها بعد أن استنفدت جهدنا ولا تزال ، وقد يكون ما قدم إليها فيه الكفاية ، كقضية العامية والمرأة وتحديد النسل والحجاب والسفور . . . وقد أشبعها أسلافنا بحثاً ودرساً ، ورُدَّت على أعقابها ؟!

إن المعركة التي دارت بين طه حسين والرافعي ما تزال مستمرة إلى اليوم ، وما يزال كثيرون منا يعانون من **عقدة طه حسين** !! ، والمفروض أن تكون قد انتهت ولم يبق منها إلا القيمة التاريخية . . . وبذلك نكون قد ساهمنا شئنا أم أبينا ، ومن حيث ندري أو لا ندري بصقل خصومنا ، وعملقة أعدائنا وتكبيرهم لكثرة ما عاودنا مناقشة أفكارهم وتجديدها ، الأمر الذي بناها وصلّبها ، وكأننا ما زلنا نحس بالغلبة في داخلنا ، وكثيراً ما تواطأ أعداء الإسلام في الخفاء على اصطناع وإثارة قضايا ومشكلات ، وطرح مؤلفات انتهى الرأي فيها تاريخياً ، وهم لا يزالون يبعثونها من مرقدها ليصرفوا جهد العاملين للإسلام إليها ، وتكون فرصة لهم لتوظيف هذا الجهد لإنهاك عدوهم الذي يعارضون ؛ وكثيراً ما اصطنعت المعارضات السياسية غير الإسلامية قضايا في المعاهد والمدارس والجامعات في العالم الإسلامي لإثارة دعاة الإسلام ، ومن ثم توظيف رفضهم وإدانتهم لأغراض سياسية ينهكون بها عدوهم ، أو يثيرونهم باتجاه

قضية جزئية ليمرروا ما يشاؤون من أمور كبرى تتعلق بأمن البلاد وحياة العباد ، وقد تتطور الأمور أكثر فأكثر لتصبح الدماء الإسلامية محلاً لتصفية الحسابات الدولية . . . إن الكثير من القضايا غير الإسلامية تصفى اليوم في عالم المسلمين على حساب الدماء المسلمة ، فهل نعيد النظر في حساباتنا ودراسة معاركنا وجدواها ، ونضع استراتيجية صحيحة لمعركتنا ، وننتقل من معركة تحقيق الذات إلى مرحلة تفتيش الذات وتقويم الذات ، قال تعالى :

﴿ بَلِ الْإِنْسَـانُ عَلَىٰ نَفْسِـهِ بَصِيرَةٌ وَلَـوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيـرَهُ ﴾ (القيامة : ١٤ ـ ١٥) . .

[شعبـــان : ١٤٠٤هـ ـ أيار (مايو) : ١٩٨٤م]

التراجع الى مواقع الفكر الدفاعي

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [حديث شريف]

الفكر الدفاعي أو الأدب الدفاعي ، كما يحب أن يسميه بعضهم ، هو مرحلة طبيعية تمر بها الأمة في معركة تحقيق الذات حضارياً ، وانتزاع الاعتراف بها ، وتحديد وجودها ، والدلالة على أن ما تمتلكه من المقومات لا يقل عما تمتلكه الأمم المتقدمة في المجال الانساني ، كما أنه ينسجم مع واقع الحياة المتطورة ولا يتخلف عنها ، وهو سلاح الأمة الوحيد بعد مرحلة السقوط الحضاري ، تشهره في وجه أعدائها لتدافع عن وجودها الثقافي ، وتثبت به هويتها ، وتبرز ذاتيتها ، وتعلن استقلاليتها ، وتخلص أبناءها مما يمكن أن يترسب في نفوسهم من عقد النقص نتيجة للهزائم الداخلية في مرحلة القابلية للاستعمار ، والمناخ الذي يخلفه افتتان المغلوب المتخلف بالغالب المتقدم ، خاصة عندما تكون مهمة الغالب وبغيته تذويب الأمة واغتيال وجودها التاريخي ، والقضاء على معالم أفكارها ، حيث يبدأ الغالب ـ وهذا أمر طبيعي ـ باستلام زمام المبادهة ، فيقذف الأمة بمجموعة من المشكلات والقضايا ، قد لا تعاني منها أصلاً ، يحتجز نشاطها ، ويستوعب فاعليتها ، ويستهلك جهدها ، ويتحكم بمساراتها العقلية ونشاطاتها الثقافية ، أي أنه يسيطر على ساحة الفاعلية ، ويتحكم بمعطائها مسبقاً .

والأمر الذي لا شك فيه أن سلاح الأدب الدفاعي ، أو الفكر الدفاعي ، بحجمه الطبيعي وكونه واقعاً ضمن إرادة الأمة ومتروكاً لاختيارها واختبارها ، أمر طبيعي . . وواقع مستمر ولازم لبقاء الأمة واستمرارها . .

ذلك أن ديدن الأعداء إنما هو باستمرار الهجوم الدائب ، ومحاولة التفتيش عن المواقع الضعيفة للتسلل منها ، ونحن بحاجة دائمة إلى حراسات متيقظة ترابط في المواقع الحضارية للأمة ، لضمان سلامتها ، وحفظ ثقافتها ، ورد كيد المبطلين عنها . .

لكن المشكلة ، كل المشكلة ، تكمن في هذه الحرب الحضارية القائمة على الاستنزاف المستمر للطاقات الفكرية ، والاستهلاك الدائم للنشاطات الذهنية لمجموع الأمة بحيث لا يترك لها من الوقت ما هو كافٍ للنظر في مشكلاتها الحقيقية والقدرة على تصنيفها ، ومن ثم صرف الجهود إلى معالجتها والتفرغ لها ، بحيث إنها كلما حاولت الانتصار على مشكلة أو كادت ، قذف إليها بغيرها لتبدأ من جديد في مواجهة الخروق الجديدة التي قد تكون موهومة في كثير من الأحيان ، كما أسلفنا ، تطرحها مراكز متخصصة لصناعة الاهتمامات على العالم المتخلف لإبقائه على الساحة الفكرية نفسها ، يراوح فيها ولا يستطيع تجاوزها . .

إن الأدب الدفاعي في نهاية المطاف يمكن أن يحقق للأمة مرحلة التمييز نوعاً ما ، لكنه على كل حال يبقى عاجزاً عن البلوغ بها إلى مرحلة الرشد ، إنه قد يحفظ الطاقات ، أو يحافظ عليها ، لكنه يبقى دون مرحلة التحكم بها وترشيدها وتحقيقها للغايات المنوطة بها . .

نعود إلى القول بأن المواجهة الدفاعية يمكن أن تشكل مرحلة من حياة الأمة ، وهذا أمر طبيعي وسليم ، وأن يكون سلاح المواجهة مستمراً كأحد أسلحة المعركة الحضارية ، فهذا أمر سليم أيضاً ، لكن أن تكون مرحلة الأدب الدفاعي هي البداية والنهاية ، ويكون السلاح الدفاعي هو كل ما تستخدم الأمة من أسلحة ، فهنا تكمن المشكلة وتحصل الخطورة التي نحذر منها ، والتي أقل ما يقال فيها : إنها عمليات لإلهاء الأمة عن مشكلاتها الحقيقية ، واستمرارية التحكم بنشاطها الثقافي وإنتاجها الفكري ، وصرف فاعليتها إلى الساحات التي يرسمها العدو ابتداءً بحيث تنتهي الأمة التي تُشْعَرُ بالخطر ، ولا تستطيع أن

تقدره حق قدره ، إلى التصرف بضرب من ردود الفعل لا تملك معها من أمرها شيئاً ، وكلما حاولت الانتصار في موقع ، فتح العدو عليها المعركة في موقع آخر ليصرفها إليه ، ويحنط جهدها في المكان الذي يحدده مسبقاً . .

ومن هنا يأتي القول بخطورة هذه المعركة ، واتساع مساحتها التي تستغرق جهد الأمة وكل طاقتها ، **ويكون الحصاد هشيًا . .**

التحــــكم الثقــاقي . .

لقد غدت القضية الآن من الخطورة بمكان ، ذلك أنها في الماضي كانت مجرد ثمرة لافتتان المغلوب بالغالب ، ومحاولة التقليد والمحاكاة فيما يمكن أن يسمى : «**مرحلة الانضباع الحضاري**» أما اليوم ، وبعد أن أصبحت الدراسات الإنسانية تخضع لمختبرات نفسية واجتماعية ، وبدأت بعض المراكز المتقدمة عالمياً بدراسة تاريخ الشعوب وعقائدها وعاداتها وتقاليدها ، ومن ثم رسم المداخل الحقيقية لشخصيتها ، وتحديد الدليل الثقافي للتعامل معها ، **فقد أصبحت القضية سياسة مرسومة لإبقاء الأمة في مرحلة التخلف والعجز الحضاري . .**

لقد أصبح في العالم المتفوق الآن مراكز متخصصة لصناعة الاهتمامات عند الشعوب ، يخضع لمعطياتها : **السياسيون والاعلاميون والخبراء في جميع المجالات** ، ولم تعد الأمور عفوية ، كما يتصور كثير من الناس . . **إن عملية التحكم الثقافي لها مؤسساتها ومختبراتها ودراساتها ووسائلها التي لا تقل أهمية عن عمليات التحكم العسكري ، والتفوق الاستراتيجي ، والتخطيط لمعارك هنا وهناك يحسبها البسطاء طبيعية ، ويقرؤونها ببدائية عجيبة .**

لقد وصلت مرحلة الأدب الدفاعي قمتها بعد سقوط الخلافة أو إسقاطها ، إن صح التعبير ، ومحاولة الدول الاستعمارية تصفية الحساب مع البقية الباقية من الوجود الاسلامي ، **وطرح بعض الشعارات والمفاهيم التي باتت تشكل الأوثان الجديدة للمجتمعات المعاصرة** ، كمفاهيم : الحرية والديمقراطية ، والعدالة ، والعقد الاجتماعي ، وحقوق المرأة ، والعلمانية ، وفصل الدولة عن الدين . . **التي كانت سبباً في النهضة الأوروبية وتخليصها من سلطان الكنيسة** ، والتي اعتبرت من المسلمات التي يجب أن تقاس بها كل نهضة ، وتسلكها كل أمة

لتتخلص من واقعها المتخلف وقُذف بها إلى عالم المسلمين حيث زعم أنه يعيش في فراغ ، فكان أن نهض بمهمة الدفاع عن الأمة وعقيدتها ، ومحاولة رد التهم عنها ـ بعد أن أدخل الاسلام قفص الاتهام ، وحُمِّل أوزار الكنيسة التي مارستها خلال القرون الوسطى ، كما حُملت إليه وسيطرت على مناخ العالم الاسلامي آثار المعركة بين الدين والعلم ـ علماء ومفكرون .

ويمكن لنا أن نعتبر أن مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده كانت تمثل هذه المرحلة ، لقد انطلقوا في كتاباتهم وأعمالهم الاسلامية من نقطة رد التهم الموجهة ، وإبراز محاسن الاسلام وبيان أن عقيدته ومبادئه لا تقل عن ما طرح على السَّاحة من شعارات ، فالشورى التي جاء بها الإسلام كقيمة سياسية تشريعية هي الديمقراطية عينها التي تنادي بها أوروبا ، ونظرية العقد الاجتماعي ـ لروسو ـ هي ما أعلنه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الأولى «أطيعوني ما أطعت الله» . . إلخ .

وكان لهذه المدرسة من الايجابيات الأمور الكثيرة ، ذلك أنها دافعت عن الوجود الاسلامي ، وبذلت جهدها لإثبات عظمة الاسلام بشريعته وعقيدته ومحاسنه للغرب الأوروبي ليحوز الرضى ، ويلاقي القبول ، ولم يتوان أصحاب هذه المدرسة من الاستشهاد بأقوال الغربيين من فلاسفة ومستشرقين ، الذين كانوا في غالب الأحيان لا يرون مندوحة من بعض المديح للإسلام وتاريخه ليشكل ذلك غطاء ومظلة لتسللهم وسمومهم ، لكن هذه المرحلة ـ مرحلة الأدب الدفاعي ـ لم تخل من كثير من السلبيات ، وهذا قد يكون طبيعياً إلى حد بعيد ، ذلك أن الذي يواجه من مواقع الدفاع قد لا تتاح له الفرصة الكاملة لاختبار وسائل دفاعه ، ومعرفة أرض المعركة ليحسن التعامل معها . .

من هذه السلبيات : الانطباع الذي ساد الساحة الثقافية من اعتبار أن ما جاءت به الحضارة الأوروبية هو الحق المطلق ، والمقياس الثابت الذي لا يتسرب إليه الخلل ، الصالح لكل الأمم في كل الأمكنة ، فبدأت قولبة الاسلام وصبه في القوالب الحضارية الأوروبية ، حتى أدى الأمر إلى التعسف في تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ، وإخضاعها لمعان مسبقة : فالطير الأبابيل مثلاً : جراثيم الحمى . والشيطان : جرثومة تنمو في الإناء المثلوم . والشورى هي الديمقراطية التي جاء بها الغرب . والنبوة : عبقرية . .

وأدى الأمر كذلك إلى تمييع الاسلام بحجة صلاحيته لكل زمان ومكان ، واستبدال تشريعات بشرية به تحت عنوان : فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله . . .

وأخذت المؤلفات لوناً من التدجين لمبادىء الاسلام ، وقياس واقع العالم الإسلامي ليس على الأصول الاسلامية ، بل على أصول حضارة غريبة عنه ، هي الحضارة الاغريقية والرومانية التي تشكل الأصول الحقيقية للحضارة الأوروبية ، فالحضارة الأوروبية كانت منطقية في هذا مع نفسها لأنها نمت على أصولها ، أما هذه المدرسة ، أو بعض أفرادها فقد حاول قياس الواقع الاسلامي على غير أصوله ، كما قدمنا ، ومن ثم كان لابد أن تبدأ مرحلة التمييز الاسلامي نوعاً ما ، فجاءت هذه المرحلة بكثير من المؤلفات تحاول تنقية المناخ الثقافي بالكتابة عن شمول الاسلام لجميع جوانب الحياة ، وخلوده وعدم اقتصاره على تنظيم العلاقة بين الفرد وربه ، كما أريد له ، وأنه دين ودولة ، وأن المعركة بين الدين والعلم هي في حقيقتها معركة بين الكنيسة والعلم ، وأن الاسلام دين العلم ، وأن العلم يدعو للإيمان ، وأن علماء الدين في الاسلام ليسوا طبقة معينة تشكل إكليروساً له رسومه وأشكاله ، يحرم ويحلل على هواه ، ويحتكر العلم الديني ، وإنما هم العلماء المتخصصون ، ومن عرف حجة على من لم يعرف ، وهم بشر يخطئون ويصيبون ، ويؤخذ من كلامهم ويرد ، ومعيار القبول والرد موافقة الكتاب والسنة . . . وأن المشكلات التي يقذف بها إلى العالم الاسلامي مشكلات وهمية لا وجود لها حقيقة وإنما هي مشكلات مصنوعة لابد من إثارتها للتمهيد لاستيراد الحلول (في مرحلة استيراد المشكلة واستيراد الحل لها) .

القـــابلية للتراجـــــع

ثم أعقب ذلك مرحلة الاعتزاز بالاسلام ، والاستعلاء بالإيمان ، وتبدلت المواقع ، وانتقل المسلمون من مرحلة الدفاع هذه إلى مرحلة التحدي ، وخرج الاسلام منتصراً لتدخل الحضارة الأوروبية المادية قفص الاتهام ، حيث بدا سقوطها ، وظهر زيفها ، وباتت عاجزة عن تحقيق إنسانية الانسان ، . . فالاسلام دين الانسان ، والاسلام دين الفطرة ، والاسلام هو الحضارة ،

والمستقبل لهذا الدين ، وهو الطريق لخلاص البشرية من الطواغيت ، وتحررها من العبوديات وتسلط الانسان على الانسان ، والذي مُورِسَ تحت شتى العناوين والشعارات الزائفة ، ليس على المستوى الاسلامي فقط ، وإنما على المستوى الانساني أيضاً . .

وفي تقديرنا أن المشكلة ، كل المشكلة ، تكمن الآن في محاولة إرجاع المسلمين إلى مواقع الفكر الدفاعي من قبل خصوم الاسلام مجتمعين على مابينهم من تناقض ، لأنهم أحسُّوا بأن الجسم الاسلامي بدأ يتحرك من جديد بعد هذا السبات الطويل ، وبدأ يخرج عن وصايتهم ويهدد مصالحهم ، والمشكلة الأكثر خطورة الآن هي : القابلية النفسية عند بعض المسلمين للتراجع إلى مواقع الفكر الدفاعي ، ذلك أن مراكز صناعة الاهتمامات في العالم مستمرة في عملها ، والتحذير من الصورة الاسلامية والصحوة الاسلامية أصبح ظاهرة ملفتة للنظر ، وأن طرح المشكلات ووضع بعض التصرفات الشاذة تحت المجهر أصبح واضحاً لكل ذي عينين ، وذلك لإعادة المسلمين إلى مواقع الفكر الدفاعي . .

ولسنا الآن بسبيل الاستقصاء للنماذج والأمثلة الكثيرة المطروحة على الساحة الاسلامية ، من العودة إلى قضايا المرأة وحقوقها وعملها ، والطلاق والتعدد ، والهجوم على اللغة العربية بأكثر من أسلوب وفي أكثر من بلد اسلامي ، لأن ذلك لا مجال به في هذه العجالة التي تفترض الإشارة إلى القضايا والمشكلات ، وإثارة الأذهان باتجاهها فقط ، من هنا كان لابد من الوقوف عند بعض النماذج .

خصصت مجلة تايم في عددها الصادر يوم ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٩م موضوع الغلاف لصورة مؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وجاء الموضوع تحت عنوان : «عودة المجاهد» وبعد الحديث عن ظاهرة انتشار الاسلام ، والتحذير من هذه الظاهرة في أكثر من منطقة ، وأنها تمثل روح التعصب والعودة إلى همجية القرون الوسطى ، قالت المجلة : إن الشعب المصري قد عاد من جديد إلى التلفظ بكلمات إسلامية مثل : إن شاء الله . وبسم الله ، والحمد لله ، عندما يركب السيارة أو يأكل . . . إلخ . . ويقول الكاتب : إن الظاهرة لا يقودها إلاَّ الشباب !!

وفي الجزائر : الصبي البالغ من العمر ١٤ سنة على اتصال دائم خمس مرات

يومياً بجماعة تشرف عليه في المسجد . .

وفي تونس : الطلاب يشنون حرباً على الشر والرذيلة ، وذلك بطلاء الصور العارية على الجدران ، وكتابة آيات قرانية . .

وفي مصر : مئات من الطالبات الجامعيات يتحجبن ويطالبن بعدم الاختلاط . .

حتى في «إسرائيل» هناك إقبال على الاسلام من قبل الشباب .

يقول «رافي اسرائيلي» وهو محاضر للدراسات الاسلامية في الجامعة العبرية في القدس :

إن هناك اتجاهاً جديداً عند الشباب المسلم نحو الاسلام ، مليء بالبهجة والسرور ، إذ أصبح الاسلام قصة هذا القرن .

وتقول «مارفن زونيس» الخبيرة اليهودية في جامعة شيكاغو :

الاسلام يستعمل كوسيلة مدرعة لرد الضربة الثانية على الغرب ، فقد بدأ المسلمون يحسون أن الغرب كان متحكمًا فيهم خلال المائة والخمسين سنة الماضية . .

وفي عدد آخر يقول مراسل المجلة نفسها في القدس «دافيد أيكمان» :

يلاحظ الزائر لجامعة «بير زيت» في الضفة الغربية المحتلة العديد من اللوحات واللاصقات والبيانات التي تبدأ بعبارة :

بسم الله ، من هنا نبدأ . . وتختتم المجلة تحقيقها قائلة :

يبدو أن السلطات الاسرائيلية في الوقت الحاضر تدرك مدىٰ معارضة الجماعات الاسلامية للاحتلال الاسرائيلي ، وأنها ستجعل من هذا الاحتلال على المدىٰ البعيد عملية صعبة .

ويقول مسؤول اسرائيلي في الضفة الغربية :

إذا نمت وتطورت هذه الجماعات فإنها ستكون ناراً علينا . .

وجذور هذه القضايا ، والتخويف منها ، والهجوم عليها لتشويه الصورة الاسلامية ليس غائباً عن كثيرمنا ، فلا يزال أكثرنا يذكر أو يتذكر الضجة الرهيبة

الرعيبة التي أثارتها الصحافة في الغرب في أعقاب نكبة حزيران ١٩٦٧م من التحذير من عودة روح الجهاد إلى المنطقة ، أو عودة ما يسمى بالتطرف أو التعصب الديني . . .

فالعدوان الاسرائيلي ليس قضية ، واحتلاله الأرض ليس مشكلة ، وترويع الآمنين لا يحرك ضميراً ، وإقامة «إسرائيل» على الحقد والتعصب والعنصرية ليس أمراً ذا بال ، إنما المشكلة ، كل المشكلة ، تكمن في عودة التعصب الديني للمسلمين ؟!! وانبعاث روح الجهاد من جديد في الجسم الاسلامي !! . . وفي هذا ما فيه من الخطورة على المصالح الأجنبية .

صناعـــة التطـــرف ..

وما يزالون وراء هذه القضية يجندون لها الكتاب والصحفيين ، والدبلوماسيين السياسيين ، ويستنفرون لها أتباعهم من كتاب وصحف ومجلات ، ويضعون المظاهر الشاذة منها تحت المجاهر يوجهون إليها الأنظار ويغرون بها ، وقد تكون إلى حد بعيد من صنعهم ، حتى أصبحت مشكلة مطروحة ذات أبعاد ودلالات لابد من مواجهتها ، تفرد لها الملفات ويستدعى لها الكتّاب والمفكرون ، وتحدد لهم مسبقاً الجوانب التي يعالجونها والمساحات المطلوب إليهم التحرك فيها ، وهنا نرى أيضاً أن بعض الكتاب والمفكرين أخضعوا لمحاضر تحقيق ، لكن من نوع آخر ، هي سلطة بعض رجال الصحافة بأسئلتهم المحددة ، وليست سلطات الأمن ، لوضعهم في موضع آخر من مواقع الفكر الدفاعي . . . وكم كانت الدهشة كبيرة عندما سألت أحدهم ، وهم عالم فاضل ثقة ذو فقه ودراية : لماذا لم تعرض لأسباب المشكلة وأنت من أدرى الناس بذلك ؟ فقال : هذا الجانب الذي طُلب مني معالجته ، واعتُذِر إليَّ عن الوجه الآخر بحجة أنه أُنيط بغيري !!

وأصبح التطرف الديني مصطلحاً شائع الاستخدام في وسائل الاعلام ، وعلى ألسنة الناس ، وكثيراً ما يستخدم بهدف إيجاد حالة من الرعب والإرهاب الفكري لشل حركة الدعوة إلى الله التي تخضع لمعايير منضبطة مشروعة من الله عزَّ وجل لا يد للانسان فيها . . والأمر المستغرب حقاً أن هذا الاصطلاح استعمل

أول ما استعمل في «اسرائيل» عندما بدأ الشباب المسلم في الأرض المحتلة يعي ذاته بعد أن أخفقت التجمعات الشيوعية ومن يدور في فلكها من أن تقدم شيئاً للقضية ، والتي لم تخرج في حقيقتها عن وسيلة من وسائل يهود لامتصاص النقمة وتنفيس الطاقات للحيلولة دون انفجارها ، والتسلل من خلالها إلى العالم العربي ، من هنا بدأت توجهات الشباب من جديد لتلمس الشخصية الحضارية للأمة والعودة إلى المسجد . . .

فالاسلام دين التوسط والاعتدال ، ولا شك عندنا أن الغلو والتطرف أمر مرفوض شرعاً ، ومهما كانت المبررات والأسباب ، وليس من الاسلام ، وهو ظاهرة أصيب بها أتباع الأديان السابقة وكانت سبب دمارهم ، وهي من علل المتدينين التي قصها الله علينا ليحذرنا منها فلا نقع بما وقع فيه غيرنا من الغلو والتطرف والتحريف والتأويل الفاسد وما إلى ذلك . . .

ونحن لا ننكر أيضاً أن الغلو والتطرف يمكن أن يتسرب إلى بعض جوانب الحياة الاسلامية ، ومن السهل على الناظر في التاريخ الاسلامي أن يتعرف أن فترات الرفض والتطرف والخروج هي رؤوس الفتن ذات النقاط السود في تاريخنا التي أنهكت الأمة ، وشلت قواها ، وشغلتها عن عدوها ، وعن متابعة رسالتها الانسانية ، لكن المشروعية العليا في حياة المسلم كانت دائماً للكتاب والسنة ، وهما المعيار الدقيق والمقياس المنضبط الذي يجب أن يحكم الأمور . . كل الأمور ، قال رسول الله ﷺ :

«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» فالذي يحكم على السلوك هو الاسلام وليست الأمزجة الشخصية .

والمشكلة الخطيرة الآن ، والتي قد تزيد الأمور سوءاً : أننا نحاول معالجة آثار الظاهرة ولا ننظر في أسبابها ، إلاّ لمسات خفيفة قد لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا شك أن تنقية الواقع الثقافي للجيل المسلم وترشيده ، والأخذ بيده لالتزام المقياس الاسلامي في الحكم على الأشياء ضرورة وعهدة شرعية من العلماء العدول الذين أخبر عنهم الرسول ﷺ بقوله :

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عن تحريف الغالين . . .»

وكلمة «العدول» هنا ذات دلالة واضحة ، فالذي يتصدى لعملية مواجهة

التطرف والغلو هم العلماء العدول والذين هم موضع ثقة من حيث العلم ، ومن حيث الغيرة الاسلامية ، والذين لهم من سلوكهم وجهادهم ما يؤهلهم لحمل العلم ونفي الانحراف ، وليس الكتّاب الذين يعوزهم الحد الأدنى من الفكر والسلوك الاسلامي ، والذين يقيمون من أنفسهم أوصياء على الحياة الاسلامية ، ولا «بعض علماء الدين الرسميين» لأنهم يتكلمون ويصدرون الأحكام ، ويطبقون في هذه القضايا قانون السير ذي الاتجاه الواحد ، ولا يرون إلاّ بعين واحدة ، فالانحراف والظلم والقمع ومصادرة الحريات لا يقولون فيه كلمة ، ولا يأمرون بمعروف أو ينهون عن منكر ، ولا يسمعون إلاّ من طرف واحد ، وينطلقون غالباً في معالجاتهم ، ويشكلون قناعاتهم من محاضر تحقيق سلطات الأمن ، فكيف يستطيعون تقويم اعوجاج أو معالجة قضية تعتبر من أخطر القضايا ، ومن أوائل الشروط لمعالجتها نزع أزمة الثقة . . وتقوى الله في التناول .

والأمر الخطير حقاً الآن هو أن عقدة التطرف الديني هذه تسللت إلى أجواء الدعوة الاسلامية ، تشل حركتها ، وتشكك بوسائلها ، وتحيطها بجو من الارهاب لتحنطها وتعطل مسارها والأمر الأخطر أيضاً هو التراجع إلى مواقع الدفاع الذي أصاب كثيراً منا ، وأصبح ما يطرحه الأعداء مسلمات غير قابلة للنقاش لشل الذهن وإنهاك القوى ، والتحكم بالمسارات العقلية والنشاطات الثقافية ، والتخويف من الدعوة الاسلامية ، فإلى متى نتوقف عند مرحلة «درء المفاسد» فقط ولا تأخذ مرحلة «جلب المصالح» المساحة المطلوبة في حياتنا الاسلامية ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد .

[جمادى الآخرة : ١٤٠٢هـ ـ نيسان (ابريل) : ١٩٨٢م]

مواقف في غزوة الأحزاب

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران : ١٥٩)

هذه مواقف مختارة من غزوة الأحزاب . ليس المطلوب لها الاستقصاء التاريخي ، ذلك أن سير الحوادث التاريخية متوفر في مظانه من كتب التاريخ والسير والمغازي ، وإنما هي محاولة لقراءة معاصرة لبعض قضايا هذه الغزوة من خلال المعاناة التي يعيشها الجيل المسلم اليوم ، مساهمة منا في تصويب المسار ، والسعي وراء تأصيل بعض المفهومات التي كادت تغيب عن حياة المسلمين ، أو تستغلق على شكل معين يمكن أن يُكتشف بعض خطئه بإعادة المقايسة والمقارنة ، والمسلم مطالب دائماً بعملية المراجعة ، وعملية المقايسة خشية أن يكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فيضيع الأجر ويتبدد العمر ، ويتخلف النصر في الدنيا ، ونصاب بالعجز والانكسار ، وقد لا نجد مهرباً من ذلك إلا بإلقاء التبعة على الخارج ، على الآخرين : الاستعمار وأعوان الاستعمار ، لنعفي أنفسنا من المسؤولية ، ونحول دون ممارسة التصويب أو القدرة عليه ، وقد ينسحب بعضنا من المجتمع لعدم القدرة على التعامل معه ،

ينسحب إلى الماضي ، يفاخر فيه ، ويطرب لإنجازاته ، ولا يستطيع الاغتراف منه وإخصاب تصوره والعودة إلى مجتمعه بما يصلحه ويسدد خطاه ، بل يكتفي بترديد شعارات لا تفسر ظاهرة اجتماعية وتدرس أسبابها ، ولا تبدل موقعاً إسلامياً إلى موقع آخر أكثر جدوى وفائدة للإسلام والمسلمين ، ولا تستبدل وسيلة فاعلة بأخرى متخلفة . . .

والذي لا بد لنا من الاعتراف به ابتداءً أن السيرة النبوية في حياة الناس ـ إلا من رحم الله ـ لا تعدو أن تكون فترة زمنية أو حلقة تاريخية انتهت بأشخاصها وأحداثها ، غير قادرة على تقديم الأطر والقواعد لمشكلات الإنسان المعاصر ، سواءً في ذلك من يتنكر لها بقوله وعمله أم من يسلك مسلكاً آخر ممن ينتصر لها عاطفياً ويبقى عاجزاً عن تحقيق النقلة ، وتعدية الرؤية ، وحسن البصارة لمواطن الخطأ والصواب ؛ تبقى النتيجة واحدة ، ولا يختلف الفريقان إلا بالعناوين ، وقد يكون أحد الفريقين سقط في مخادعة نفسه ومخادعة الناس ، وكان موقفه العاجز دليل فشل مقولته ، وجاء واقعه مخالفاً لشعاراته ، لذلك فهو يساهم مساهمة سلبية في إجهاض الرؤية الإسلامية ، ويكون حاجزاً سميكاً بين الناس وبين هذا الإسلام العظيم ، وقد لا يكون المطلوب من مسلم اليوم أن يكون قادراً من خلال رصيده التاريخي وتراثه الثقافي وقيمه الأصيلة في الكتاب والسنة ، قد لا يكون المطلوب منه فقط القدرة على « التفسير » للحوادث المعاصرة ، وإنما تجاوز ذلك إلى « التغيير » ودقة تحديد موقعه الفاعل ، لأن « التفسير » هنا هو مقدمة لـ « التغيير » وكفاية لمسلمي اليوم الوقوف عند عتبة المقدمات وعدم تجاوزها إلى النتائج . . . فهل نستطيع في هذه العجالة إثارة الذهن المسلم تجاه بعض المواقع والمرتكزات التي لا نزال نشهد آثارها ، ولا تزال تتكرر في عالم المسلمين من خلال بعض المواقف التي نعرض لها في غزوة الأحزاب ؟

يهــــود وراء تحــزيب الأحـــزاب

المعلوم من أخبار هذه الغزوة أنها على بعض الروايات كانت في ذي القعدة ، ولكن معظم الروايات تعتمد زمن حدوثها شهر شوال ، وقد امتد الحصار فيها شهراً تقريباً ، فقد تكون ابتدأت في شهر شوال ولما تنتهي إلاّ في ذي القعدة . . من السنة الخامسة للهجرة ، وذلك أن يهود بني النضير خرجوا حتى قدموا قريشاً في مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش ـ التي جربت الحرب مع رسول الله ﷺ في بدر وأُحد واكتوت بنارها ـ : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟! قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . . وشهدوا لقريش أن أصنامها أولى بالاتباع من إلـه محمد ﷺ ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾ (النساء : ٥١) .

فَسَرَّ ذلك قريشاً ، ونشطوا لما دعوهم إليه ، واجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج يهود حتى جاؤوا غطفان ، وهكذا طافوا على بقية القبائل عارضين عليها مشروع غزو المدينة المنورة وموافقة قريش على ذلك .

وهذه ليست حادثة تاريخية عابرة ، خاصة في هذا العصر بعد أن أصبحت الشعوب تحاكم إلى تاريخها ، ولم يعد سراً أن يهود كانوا ولا يزالون وراء تحزيب الأحزاب في معظم المراحل ، ابتداءً من الحملات الصليبية على عالم المسلمين ذلك أن اليهود ركبوا الحصان الأوروبي بشكل مبكر حيث استقرت هجراتهم في أوروبا تاريخياً ، ووجهوه الوجهة التي يريدون . . فكانت الحروب الصليبية وكان الاستعمار ، ويركبون وليده الأمريكي الآن والنتائج ماثلة للعيان . . .

كما أنه لم يعد سراً أنهم كانوا وراء تقويض الخلافة الإسلامية ، وصناعة الأحزاب ذات الدعوات الإقليمية وتقديم البدائل الفكرية عن الإسلام بعد مرحلة سقوط الخلافة . . والشهادة لهذه البدائل أنها أهدى من الإسلام سبيلاً ؛ كما أنهم وراء تحزيب بعض الكتاب الذين انتهوا إلى مناخ الثقافة اليهودية

التلمودية ، ولا همَّ لهم إلا الانتقاص من الإسلام والمسلمين ، وَتَسَقُّطِ العورات وتتبعها والتخصص فيها ، والقدرة العجيبة على البجاحة في الكلام عن الحرية والديمقراطية ، وهم من سدنة الظلم والظالمين ، في الوقت الذي يدفع المسلمون دماءهم في أكثر من موقع دفاعاً عن الإنسان وانتقاص حقوق الإنسان ، لكنه العوار العقلي !! . .

لقد تم التحالف الوثني اليهودي القبلي ضد المسلمين ، كانت يهود وقريش وغطفان من أهم أعضائه ، واتفقوا على شروط ، من أهمها : أن تشارك غطفان بستة آلاف مقاتل ، وأن يدفع اليهود لها كل ثمار خيبر لسنة واحدة ؛ وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل فكانوا عشرة آلاف . . . . . . إن هذا التحالف لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ المسلمين الطويل وإن تغيرت أسماؤه وتبدلت وسائله . . . والمال اليهودي يمده على أكثر من مستوىً . . .

إن المال اليهودي الذي اشترى غطفان وحركها صوب المدينة هو الذي امتد إلى السلطان عبد الحميد ، فلما أبىٰ ذلك تقدم المال اليهودي لشراء رجال جمعية الاتحاد والترقي ، الذين كانوا الجسر الحقيقي لوصول يهود إلى فلسطين ، وإن التحالف الوثني الصليبي اليهودي الجديد هو الذي تقاسم مناطق النفوذ ، واقتسم تركة الرجل المريض ، وفرَّق عالم المسلمين ، وأسكن يهود في فلسطين ، لقد أسقط الحلفاء في الحرب العالمية كل وعودهم للعرب ، والتزموا بكل وعودهم ليهود ، ولا يزال العالم الإسـلامي يعاني من مسألة « الشرق الأوسط » أو « المسألة الشرقية » . . ولا يزال يعاني من لعبة الوفاق الدولي في فلسطين وأريتريا وأوغادين وكشمير وأفغانستان ولبنان وغيرها . . . ويراد للمسلمين أن يكونوا في ذلك أدوات ، توظف دماؤهم في عملية الوفاق الدولي ، ولا يسمح لحركاتهم الجهادية أن تتجاوز المدىٰ المرسوم لها مسبقاً والحجم المقرر لها سلفاً .

تأصيـــل الشـــورىٰ

لما سمع رسول الله ﷺ بزحف الأحزاب إلى المدينة ، وعزمها على استئصال شأفة المسلمين ، استشار المسلمين ، وقرروا بعد الشورىٰ : التحصن في المدينة والدفاع عنها ، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله ، إنَّا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا . . . فأمر بحفر

الخندق ، واستمر الحصار نحو شهر تقريباً ، كما قدمنا ، وعظم البلاء وانخلعت القلوب وشاع النفاق ، وظن بالله كل ظن ، وبلغت القلوب الحناجر ، ونكتفي هنا بمثال واحد : قال بعض المنافقين « معتب بن قشير » : كان محمد يعدنا بكنوز كسرىٰ وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وقال « أوس بن قيظي » على ملأ من رجال قومه : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنَّا ، فأْذن لنا فلنرجع إلى دورنا . . .

فلما اشتد البلاء على الناس ، وحقناً لدماء المسلمين ، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف المري ـ قائدي غطفان ـ يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلح ، وهموا بكتابته ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمته إلا المراوضة في ذلك ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمر تحبه فنصنعه ؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا من حاجة . . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . فقال رسول الله ﷺ : فأنت وذلك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

إن ما يلمحه الإنسان في هذه الغزوة وفي غيرها من حوادث السيرة أن الرسول ﷺ أنزل الشورىٰ منزلتها وأصَّلها في حياة الأمة ، إذ لا بد من توسيع قاعدة الرأي ، والحاجة إليها إنما تكون خاصة في الشدائد والقرارات المصيرية والملمات على غاية من الأهمية ، حيث يكون الخطأ قاتلاً ، فالشورىٰ استفادة من كل الخبرات والتجارب ، واجتماع للعقول في عقل ، وقضاء على الاستبداد والفردية في الرأي ، وبناء يساهم الجميع في إقامته ، ومن ثم تكون أعلى أنواع

التضحية والبذل في الدفاع عنه .

والرسول ﷺ مستغن عن الشورىٰ بالوحي ، فهو المؤيد بالوحي ، وهو المسدد به ، ولا حاجة به إلى الشورىٰ ، لكن لا بد من تأصيلها لتكون أصلاً من أصول الحكم لا يملك المجتمع المسلم أن يحيد عنها ، كما لا يملك الحاكم المسلم أن يتجاهلها أو يعتدي عليها ، ويقظة المسلم دائمة في العمل لها وعدم التنازل عنها ، لأن ذلك إلى جانب كل مضساره في الدنيا مدعاة لسخط الله الذي جعلها من سمات مجتمع المسلمين بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورىٰ : ٣٨) ، ومع ذلك لا يزال في عالم المسلمين اليوم من يستهوَيه الاستبداد ، ويتصيد الوقائع التاريخية ، ويجهد نفسه في تفسير النصوص ليخرج على المسلمين بأن الشورىٰ ليست ملزمة للحاكم ، وإنما هي معلمة له فقط ، وأن الحاكم بالخيار إن شاء عمل بها وإن شاء تركها ، وأعطيَ الحاكم في الدولة وأعطيَ المسؤول عن أية جماعة مسلمة من العصمة ما لم يعطه النبي المرسل ﷺ عندما سأله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة : شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟

وإذا كانت إلزامية الشورىٰ أو إعلاميتها اجتهاداً يمكن أن يخطىء ويصيب ، كما هو الحال في سائر الاجتهادات ، فما هو المسوغ للاستمساك بعدم إلزامية الشورىٰ والدفاع عن ذلك بعد هذه الانهيارات الرعيبة وألوان الاستبداد في عالم المسلمين ، وهذا التردي والتصرف الفردي في بعض الجماعات التي تعمل للإسلام ؟!

البيعــة العامــة

وهناك قضية أخرى تشكل الوجه الآخر لاجتهاد واعتقاد أن الشورىٰ معلمة وليست ملزمة ، وهي قضية هامة مطلوب إعادة النظر فيها بإلحاح ، وهي قضية البيعة العامة ، وما يترتب عليها من أحكام شرعية وقضايا سلوكية ، وكيف أن البيعة العامة في الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون إلا لأمير المؤمنين الذي يمتلك من الصلاحية والمسؤولية ما يجعله قادراً على إقامة الدين وإنفاذ الأحكام ، وتنفيذ العقوبات الشرعية ، وإعلان الحرب ، والجنوح إلى السلم ، وما إلى ذلك مما هو مختص بأمير المؤمنين في التصور الإسلامي ، وأن كل الزواجر التي

وردت في شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة وما إلى ذلك إنما هي في هذا المجال .

أما البيعة الخاصة فهي عهد على تنفيذ مهمة معينة من خلال الظروف المتاحة والامكانات المتوفرة ، كقول الرسول ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم » ، لتنظيم الحياة الاجتماعية ، ولضبط السلوك في البنية الاجتماعية كائنة ما كانت ، وبالتالي فلا يمكن لنا أن نجير أحكام البيعة العامة الفقهية لبعض مسؤولي الجمعيات والجماعات ، لأن المقومات الأصلية مفقودة ، فهو ليس أمير المؤمنين ، ولا يمتلك من ذلك شيئاً ، فكيف والأحكام ثمرة لذلك ، فنفتقد الأصل ونستمسك بالفرع ؟! لذلك لا بد من التحري في ذلك لأنه محل نظر من الناحية الشرعية ، وقد سبب الكثير من الارتكاسات من ناحية السلوك العملي .

فالشورىٰ ليست ملزمة ! والبيعة عامة ! والمقومات مفقودة ، والنتائج كما نرىٰ ، فكيف يجوز أن يستعملا سيفاً مسلطاً على رقبة الفرد يحولان دون مناقشة الخطأ تحت عنوان : « في عنقه بيعة ، والشورىٰ غير ملزمة » !!

تحـــديد الموقـــع الفاعـــل

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما كان من الشدة والبلاء من الخارج ، وشكوك المنافقين وإشاعتهم الرعب في النفوس من داخل الصف :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف : ١١٠) .

وقد بلغت المحنة غايتها ، جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » ، فأتى بني قريظة فقال : قد عرفتم ودّي إياكم ، لا تقاتلوا محمداً مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رُهُناً ، فإنهم إن لم يصيبوا نهزة لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبينه ببلدكم ، ولا طاقة لكم به . . . قالوا صدقت .

فأتى قريشاً فأظهر لهم إخلاصه ونصحه ، وأخبرهم بأن يهود قد ندموا على

ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأميناً للعهد ، وسيسلمونهم إلى النبي ﷺ فيضرب أعناقهم . . وقال لغطفان مثل ما قال لقريش ، فكان كلا الطرفين على حذر ، وطلب أبو سفيان ورؤ وس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين ، فتكاسل اليهود وطلبوا منهم رهائن من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق حديث نعيم وامتنعوا عن تحقيق مطلب يهود ، وبذلك تحقق اليهود من صدق نعيم كذلك . . . وتوغرت صدورهم على يهود ، ودبت الفرقة بين الأحزاب ،

وهكذا تمزق الشمل ، وتفرقت الكلمة ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وهنا لا بد من وقفــة وإن كانت هذه الوقفة ، مهما كانت طويلة سوف لا تعطي قضية نعيم حقها : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » لقد وضعه الرسول ﷺ على الجادة ، وأحسن نعيم السير . . . أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمرني بما ترىٰ . . . أية قدرة هذه في تحديد الموقع الفاعل للعمل الإسلامي من القائد ! وأية قدرة هذه على التصرف وحسن التحرك من خلال الظروف والامكانات من المسلم ؟! لم يعلم أحد بإسلامي ـ الحرب خدعة . . .

إن القدرة على التصرف من خلال الظروف المتاحة والإمكانات المتوفرة ، وتحديد موقع العمل الفاعل بدقة واختيار وسيلته المجدية هي مشكلة العمل الإسلامي اليوم . . .

إن السلوك النبوي في مرحلة الدعوة والإنجاز النبوي في مرحلة الدولة يمدنا برؤ ية زاخرة تبتدىء عتبتها من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... ﴾ (النحل : ١١٠) في مرحلة الدعوة ، واشتداد الظلم ، وفضل الصبر ، وتنتهي إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال : ٣٩) . إنها القدرة كل القدرة على تحديد مواقع العمل من خلال هذه السلسلة الطويلة من الآفاق المتعددة . . . ولعل العجز عن الرؤ ية هنا يأتي قاتلاً ، فقد نحنط أنفسنا أو يحنطنا أعداء الإسلام في موقع لا نستطيع أن نبصر غيره ـ وقد نتجاوز المواقع الممكنة والمجدية ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، إلى المواقع المستحيلة فنكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به ـ ونرتاد مواقع لا نمتلك إمكاناتها ، الأمر الذي يوقعنا في الإحباط

والانكسار ، وقد يلجئنا إلى محاضن مرفوضة شرعاً تحت شعار : « الضرورات تبيح المحظورات » . .

إنها الضرورات التي صنعناها بأيدينا لتأتي النتائج المترتبة عليها أشبه بمسلمات تحكم العمل الإسلامي لا تجوز مناقشتها . .

[ذو القعدة ١٤٠٣هـ ـ آب (أغسطس) ١٩٨٣م]

المسلم ومسؤولية البلاغ المبين

﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾

(الجن : ٢٢ - ٢٣)

لا شك أن قضية الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وتخليص الناس من كل ألوان العبوديات ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، واستنقاذهم من حياة الضنك نتيجة إعراضهم عن منهج الله تعالى ، وإلحاق الرحمة بهم ، ووضع إصرهم والأغلال التي عليهم هي من أخص خصائص المسلم وأبرز مسؤولياته ، وهي الأمانة التي قبل حملها عندما رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً الذي كانت الغاية من إرساله ، ومن رسالته : إلحاق الرحمة بالعالمين ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، فكانت مهمته الأولى البلاغ المبين :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ... ﴾ (المائدة : ٩٩) .

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور : ٥٤) .

العكوف على تربيـــة الذات

لذلك يبقى الأمر المطروح دائمًا على المسلم الذي يسير على قدم النبوة أن يبدأ بتنمية نفسه وتزكيتها بالإسلام ليكون على مستوى خطاب التكليف ، قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ١٠) .

وأن يطور وسائله في الدعوة إلى الله ليكون في مستوى المهمة التي يتطلبها إسلامه وعصره على حد سواء ، قال تعالى :

﴿ ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّــكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّــكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِـهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥) ، وقال :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) . .

فالمسلم مطالب دائمًا أن يمارس عملية العكوف على الذات لتربيتها على أمر الله ، وأخذها بشرع الله ، ولا نعني بذلك ضرباً من السلبية والهروب من الحياة ، وفقدان التوازن الاجتماعي وذلك بالانسحاب من المجتمع ، والانقطاع إلى الرياضات الروحية في الكهوف والجبال ، وممارسة الزهد الأعجمي بترك التعامل مع الحياة ، وإنما نرىٰ أن ميدان تربية الذات وتزكيتها أكبر من ذلك بكثير ، إنه الحياة بكل ما فيها من جوانب الخير والشر ؛ إنها التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية ، والمعاناة اليومية والتحديات المحيطة ، واستشعار هذه التحديات ، وعدم الذوبان والسقوط أمامها ، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة ، وإن اختلفت فيها مساحة الكر والفر حسب الظروف ومقتضى الحال ، ذلك أن التربية الذاتية ، أو العكوف على تربية الذات بهذا المعنى هو الذي تفرد به الإسلام عن سائر الأديان ، بزهدها ورهبانيتها ، وسلبياتها . . .

البلاغ المبين ..
من أبرز خصائص التربية الميدانية

وقد يكون من أبرز خصائص التربية الميدانية التي أشرنا إليها ، ومن أولى ثمراتها : عملية البلاغ المبين ، تلك المهمة التي ابتعث من أجلها الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ (آل‌عمران : ٢٠) ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ (الرعد : ٤٠) ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (العنكبوت : ١٨) إلى آخر هذه الآيات الكثيرة ، والكثيرة جداً ، التي تحصر مهمة الرسول ﷺ ، بل رسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام بإبلاغ الناس شريعة الله ، وحمل البشارة إليهم إن هم استقاموا على الطريقة . . .

ولما كان الرسول ﷺ محل الأسوة والقدوة بالنسبة للمسلم ، فإن مهمة المسلم في هذا العصر ، وفي كل عصر ، تتحدد بقدرته على تحمل الإسلام وتربية نفسه عليه وأخذها به ، وعلى الأداء وذلك بالقيام بعملية البلاغ المبين ، فهي حياته في الدنيا ونجاته في الآخرة :

﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ (الجن : ٢٢-٢٣) .

إن فهم عملية البلاغ وإدراك أبعادها ، والصبر عليها ، والحكمة في أدائها ، والقدرة على إبصار وإنضاج وسائلها وما يمكن أن يترتب عليها من مسؤوليات وتكاليف قضية على غاية من الأهمية ، إنه الإدراك للقضية الإسلامية عامة ، والقدرة على القيام بالمسؤولية وأداء الأمانة للخروج من عهدة التكليف . . . وقد يسارع بعضهم هنا ، وبفهم مبتسر ، إلى الظن بأننا بدعوتنا إلى إدراك أبعاد عملية البلاغ ، وامتلاك وسائلها ، وتحصيل الحكمة في ممارستها إنما ندعو إلى إيثار الراحة وركوب المركب الهين السهل ، والهروب من تكاليف الدعوة إلى الله ومسؤولياتها وما يمكن أن يترتب عليها من تضحيات ، أو يعتبر ذلك رد فعل لواقع معين أو لاجتهاد معين ، ولا يستطيع أن يتجاوز فهمه هو للإسلام الذي اختاره وانتهى إليه حتى أصبح المقياس الذي تقاس به فهوم الناس جميعاً

والحقيقة التي يجب أن تكون واضحة ابتداء : أن عملية البلاغ هي مهمة الأنبياء ، من لدن آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن التضحيات والمسؤوليات التي تحملها الأنبياء ومن يسيرون على طريقهم نتيجة لذلك دليل على أنه الطريق الصحيح والمركب المأمون إلى الآخرة . . . وأن الهروب منها أو العدول عنها وعدم القدرة على الصبر عليها بدعوىٰ اختصار الطريق ، أو تسريع السير ، أو الحصول على وفرة في النتائج هو في حقيقته : العدول عن الطريق الصحيح والقفز من فوق سنن الله ، وعدم القدرة على التعامل معها ، وعدم الطاقة على الالتزام بها ، والهروب منها والانخداع بالفجر الكاذب . . .

إن قضية الإيمان بالله ونبذ العبوديات ، ومن ثم القيام بعملية البلاغ المبين قد تكلف صاحبها حياته ، بسبب من شراسة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأضل أعمالهم فينقمون من المؤمن الداعي إلى الله لا لشيء وإنما لإيمانه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج : ٨) ، ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج : ٤٠) .

قال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وقال : « سيد الشهداء حمزة ثم رجل قام إلى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله » أمره ونهاه : بلّغه الحق ونهاه عن الباطل ، قام بعملية البلاغ التي كلفه الله بها ولم يتجاوزها فكان مصيره القتل . . .

الإعلام من أقوى الأسلحة المعاصرة

إن عملية البلاغ والقيام بمهمة الأنبياء ليست من السهولة بالقدر الذي يتراءىٰ لبعض الناس ، خاصة في هذا الوقت الذي أصبح فيه الإعلام أقوىٰ الأسلحة التي تمتلكها الدول وتحرص عليها وتتسابق في ميدانها ، والتي يمكن أن تكون أشد فتكاً من أسلحة الدمار والتدمير كافة ، ذلك أن الإعلام لم يكتف بعمليات التضليل وقلب الحقائق إلى أباطيل وإنما تجاوز ذلك إلى مرحلة زرع الاهتمامات وإعادة صياغة الإنسان .

لقد أصبح فناً خطيراً ، وظّف الكثير من العلوم لخدمته ، سواء في ذلك العلوم

والدراسات الإنسانية ، كعلم النفس وعلم الاجتماع . . أو العلوم والدراسات التجريبية ، حيث أصبحت التكنولوجيا كلها في خدمته تقريباً . . . ونحن لا نزال نرى عملية البلاغ المبين بوسائلها البسيطة والساذجة ، وأنها من الأمور السهلة التي لا يميل إليها إلا من يؤثرون الراحة ويفرون من المسؤولية والتضحية . . وقد يفهمها بعض المسلمين فهمًا ساذجاً بسيطاً لا تزيد أبعاده عن ارتداء لباس معين ، والخروج والنوم في العراء ، في هذا العصر الإعلامي المعقد !!

فإذا عرفنا أن علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم جاءت تاريخياً ثمرة لعمليات التنصير ، حيث كان لا بد للمنصِّرين من المعرفة المسبقة بعادات ونفسيات الأمم التي يمارسون عليها عملية التنصير ، وعرفنا الخلفية الحقيقية لعمليات الاستشراق التي كانت تدرس مكونات الشعوب وثقافتها وعقائدها وتراثها ومسارها الحضاري ، ذلك أن المستشرقين ينتجون المواد والمنصِّرون يُسَوِّقونها ويمارسون عملهم على أساسها ، وحسبنا أن نقول : إن كثيراً من دراساتهم لا تزال إلى الآن مرجعاً لكثير من باحثينا لفقر المكتبة الإسلامية إلى أبحاث ناضجة في هذا المجال ، ومع ذلك لا نزال نعتقد أن عملية البلاغ التي ابتعث من أجلها الرسل عليهم الصلاة والسلام عملية بسيطة . . وكثير منا لا يقدر عليها ويحاول القفز من فوق السنن ، ويظن أن عملية التغلب على الخصم إنما تتم بشدخ رأسه والقضاء عليه ، بينما منهج النبوة والدنيا من حولنا تمارس تغييره من الداخل . . .

أين يمكننا أن نصنف صورة وواقع عملية البلاغ اليوم التي ابتعث من أجلها الرسل ، وأنيطت بمن يسيرون على دربهم من المسلمين ، من صورة الإعلام العالمي بكل طاغوته وطغيانه والمراحل التي قطعها صوب الإنسان حتى أوقعه في أسره ، والوسائل المتخلفة التي نمارسها نحن المسلمين ، ويحلو لبعضنا أن يطلق عليها تسمية « الإعلام الإسلامي » وكأن هذه الصور الهزيلة والبدائية المتخلفة هي الإعلام الإسلامي والبلاغ المبين التي أرادها الله للسائرين على طريقه !! وقد تكون الخطورة كبيرة والآثار خطيرة أن نأتي لصور من تخلُّفنا ونفصِّل عليها أثواباً ونرفع فوقها عناوين وشعارات لتصبح هي الإسلام !! . .

والحقيقة أننا لا نزال دون سوية خطاب التكليف في قضية البلاغ المبين التي

مضى على التكليف بها أربعة عشر قرناً ، وتخلفنا فيها لا يغتفر ، وأن الكثير منا عدل عنها ، أو هوَّن من شأنها ظناً منه أن بإمكانه القفز من فوقها . . .

حســـن اختيـــار الوسيـــلة

ما هي وسيلة الدعوة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ والتي تعبدنا الله تعالى بالاستمساك بها لتؤدي عملية البلاغ المبين آثارها التغييرية ، قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) ، إنه بحسن اختيارنا للوسيلة المناسبة ، وحسن استعمالنا لها نغيره من الداخل ، فبعد أن كان عدواً لدوداً فإذا به صديق مناصر ودود . . إنه التغيير من الداخل الذي يمارسه الإعلام علينا صباح مساء ، فيرسم في أذهاننا الصور التي يختارها ، ويصنع لنا الاهتمامات التي يريدها ، ويأخذنا إلى المواقع التي يحددها ، ونسلب كل قدرة على المواجهة بالمثل إلا قدرة التبعية والتلقي . . .

لقد شوه الإعلام صورة المسلم اليوم ، وشكك بدعوة المسلم اليوم ، واستطاع أن يلتقط من واقع المسلمين صوراً مشوهة قدمها على أنها هي الإسلام ، وأن هؤلاء هم دعاة الإسلام ليخدم أغراضه ويدلل عليها . . . أليس من العجيب ، بعد أربعة عشر قرناً ، أن تكون وكالات الأنباء العالمية التي أصبحت تمتلك الاختصاص في صناعة الخبر وأداته ، وتأخذ برقاب العباد وتتصرف بمقدراتهم ، جميعها صهيونية أو صليبية أو شيوعية ، وليس للإسلام والمسلمين فيها نصيب ؟!

ونحن إزاء ذلك مصابون بالعجز ، ليس عن إبلاغ دعوتنا ونشرها وإيصا‌[لها] للناس ، وقد تجاوز العجز ذلك إلى عدم القدرة على تقديم الحماية لصور[تها] الإسلامية الصحيحة . . . ولا يعوزنا المال في العالم الإسلامي ولكننا بحاجة إلى الإنسان المستشعر للمسؤولية .

أين هي الحكمة التي افتقدناها في عملية البلاغ والدعوة التي أمرنا الله بها بقوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) ؟

أين هي الحكمة ضالة المؤمن وهاجسه الدائم ليكون في مستوىٰ إسلامه وعصره ، والتي قرنها الله تعالى بالكتاب ـ القرآن ـ لضرورتها وأهميتها ؟! فإذا افتقدناها فقد أقمنا الجدران النفسية بين الناس وبين الكتاب ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (النساء : ١١٣) ، حتى إن بعض المفسرين يرىٰ أن الحكمة تعني السنة ، وقد يكون الحق في هذا ولا ضير ، فمن أقدر من الرسول القدوة ﷺ على وضع الأمور بمواضعها ، ووزنها بموازينها ، وهو المسدد من ربه ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

والحكمة أهلية رفيعة المستوىٰ ، ومنحة من الله لأهل التقوىٰ من خاصة خلقه ، يمكن أن تتحقق بالاكتساب من النظر والتدبر في كتاب الله تعالى والالتزام بسنة رسوله وطريقته في البيان ، إنه الرسول الذي أمر أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأخذ الناس بأحكام التشريع شيئاً فشيئاً ، حتى إن القرآن الكريم استمر نزوله ثلاثة وعشرين عاماً ، ولا يخفى ما في هذا التدرج من الجوانب التربوية ، ومكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله ويبلغ الناس أمر ربه ، ويسلك لذلكَ كل مسلك حتى تستبين صورة الإسلام والدعوة الجديدة ، وكان في مكة يومها (٣٦٠) صنمًا تقريباً تعبد من دون الله ، وتملأ على الناس حياتهم ودروبهم ، وما كان شيء أبغض للرسول ﷺ من اللات والعزىٰ ، ومع ذلك لم يتعرض لهذه الأصنام طيلة فترة الدعوة في مكة ، إلا أنه بعد مرحلة الدولة ـ بعد فتح مكة ـ لم يقبل بها لحظة واحدة ، بل كان أول عمل قام به : كنس الأصنام من البيت الحرام . . .

إنها الحكمة في عملية إبلاغ دعوة الله تعالى والأخذ بيد الناس إلى الخير ، فهو الرحمة المهداة ، انظر الحكمة في قوله لعائشة رضي الله عنها : « لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة وأقمتها على قواعد إبراهيم عليه السلام » !!

الأرهـــاب الفكـــري والتغييـــر

إن عمليات التغيير لا يمكن أن تتم بجو يسوده الإرهاب الفكري والتعصب الديني ، وتسرب علل الأديان السابقة إلى الإسلام والمسلمين ، وقد بين الله ذلك لرسوله المعصوم ليكون تحذيراً للمسلمين بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية : ٢١-٢٢) ، وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) ، وقوله : ﴿ فَأَنْذِرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥) ، وقوله تعالى للمؤمنين :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة : ١٠٥) طبعاً بعد القيام بعملية البلاغ كما يفيد سبب النزول ، وكما بين أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . . .

من هنا كان الصحابة رضوان الله عليهم ثمرات لهذه الحكمة ، يقول علي رضي الله عنه : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، أتحبون أن يُكَذب الله ورسوله ؟! » ويقول الرسول ﷺ لمعاذ رضي الله عنه بعد أن أطال الصلاة : « أفتّان أنت يا معاذ ؟! » .

فالإسلام دين الفطرة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولذلك شرعت الرخصة في السفر والمرض . . إن العقيدة مقرها القلب ، ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الحق والدليل ، والإحسان الذي كتبه الله في كل شيء ، وحسن التعامل معه . . . فلا مجال في الإسلام لصور الإرهاب الديني والفكري التي مارسها أصحاب الأديان السابقة ، والتي يمارسها بعض الناس باسم الإسلام .

وقد يكون من صور الفشل في عملية البلاغ المبين بدؤها ببيان صورة الإسلام العقابي ، والذي نريد له أن يكون واضحاً أن العقوبات في الإسلام لا تقيم مجتمعاً إسلامياً وإنما تحمي المجتمع الإسلامي من الشذوذ والانحراف ، والحروب في الإسلام لا تقيم دولة إسلامية ، وإنما تحمي الحدود من الاعتداء ، وتزيح الطواغيت من طريق عملية البلاغ المبين ، وتهيء المناخ السليم لانتشار الدعوة وإبلاغها إلى الناس . .

تحديد الموقع الفاعل

إن لجوء المعلم في العملية التربوية لسلم العقوبات ـ مع تناسي أن العملية التعليمية والتربوية قائمة على الحوافز والمكافآت ، وأن مشروعية العقوبات إنما تكون لحماية العملية التربوية التعليمية ـ عجز وفشل تربوي وعدم إدراك لأصل المهمة . . . لذلك لابد من تغيير صورة المسلم الداعية التي رسمها أعداء الإسلام في أذهان الناس على شكل معين ، ذلك أن التضليل الإعلامي ترك الناس ضحايا القلق مما يعرفون عن الإسلام والمسلمين ، وما يقدم لهم من صور ساهمنا بتقديمها لخصومنا ، كما أسلفنا ـ وقد يكون ذلك عن إخلاص وحسن نية ، بعيداً عن الإدراك والصواب .

والحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها أن الخطأ القاتل الذي ابتلينا به في هذا العصر هو العجز عن التحديد بدقة لموقع العمل الإسلامي والدعوة إلى الله الذي يمكننا معه أن نمتلك الفاعلية والتأثير ، والخلط المحزن بين الأمنيات والإمكانات من خلال صورة المجتمع ، وذلك لانعدام الرؤية الدقيقة لسلم المشكلات والاستسلام لأحلام اليقظة . . . إن إعادة النظر من حين لآخر بسلم المشكلات وإعادة تصنيف هذه المشكلات وترتيب الأولويات حماية للجهد ، واغتنام لفرصة العمر وتوفر الطاقات ، والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات ، وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم والعاملون للإسلام ، وإعادة النظر أيضاً بوسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر ، ومن خلال مشكلاته ، وعدم القفز من فوق السنن والنكوص في عملية البلاغ ، وإهمال شرائط النهوض بها ووسائل الإبانة عنها التي هي وظيفة المسلم الرئيسة ، وقضيته المحورية ، والتقدم في قضية الدعوة (البلاغ المبين) واكتشاف المنابر المؤثرة والمواقع الجديدة التي أخذت مكاناً في المجتمع الحديث ، واعتلاء هذه المنابر العلمية والثقافية عن جدارة واختصاص ، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة ، والقدرة على الإبصار ودراسة شبكة العلاقات الاجتماعية ، والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم هو المطلوب لهذه الأمة لحل معضلة

انفصال العلم عن الدين التي عانى منها الجيل الماضي . . . أصبح قضية الحياة بالنسبة لمسلم اليوم ، فلا مجال للسذج والبسطاء في عالم الأذكياء . . .

والأمر الذي لا بد للتنبيه عليه هنا أننا بدعوتنا إلى تحديد موقع العمل الإسلامي من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة لا يعني بحال من الأحوال عملية تقطيع للإسلام ووقوع في النظرة الجزئية التي تؤدي إلى النمو غير الطبيعي في بعض أطراف الجسم الإسلامي ، وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً هو أننا ونحن نعيش الإسلام في الموقع المتاح لنؤدي مسؤوليتنا كاملة لا نعدم القدرة على إبصار الساحة الكاملة التي يجب أن يملأها الإسلام ، وأن يرتادها العاملون والدعاة إلى الله ، وتبقى العملية المطلوبة أنه عند عدم القدرة على الحمل الثقيل نقوم بعملية التجزيء والتقسيم على مراحل وبالتدريج ، والمهم أن تكون الخطوة التي نملكها في طريق الصواب ، ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها . . .

نعود إلى التذكير بأن المهمة الأصلية بالنسبة للدعاة هي البلاغ المبين ، فهو حياتهم في الدنيا ، وهاجسهم الدائم ، وهو نجاتهم في الآخرة ، ولا نجاة بدونه ، وأن ديدن المسلم هداية الخلق وعدم الحقد عليهم ، وشعاره قول الرسول ﷺ : « عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » .

لا بد من إعادة النظر بوسائلنا في الدعوة إلى الله . . وإعادة المسلم إلى صورته الحقيقية التي جاء بها الإسلام ، وتقديم الدليل على أن الإسلام دين الرحمة والحب للإنسان ، وليس هو الإسلام الذي صنعت صورته المخيفة وسائل الإعلام المعادية . .

[شـــوال : ١٤٠٣هـ ـ تموز (يوليه) : ١٩٨٣م]

والفتنة أكبر من القتل

﴿ وَلَو رَدُّوهُ إِلىَ الرَّسُولِ وَإِلىَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم ﴾ (النساء : ٨٣)

إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد ، وهذه الشهور من حدود الله وشعائره ، التي لها حُرمتها ولها أحكامها المعروفة في مظانها من كتب الفقه والحديث ، والتي لا سبيل إلى الحديث عنها في هذا المقام ، فلذلك حديث آخر . . قال تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ...﴾ (المائدة : ٢) .

ولقد عرف العرب قبل الإسلام هذه الشهور ، وشيئاً من حرمتها ، وهم على إرث بقية من دين إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام . لكنهم لم يرعوا لها حرمة ، إلا بالقدر الذي يظنون معه أنه يحقق مصالحهم فكان النسيء ، وكانوا يحلونها عاماً ويحرمونها عاماً . فجاء الإسلام وأقر لهذه الشهور حرمتها ، وحرَّم انتهاكها ، واعتبرها من حدود الله كما أسلفنا . . .

قراءة في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه

والأمر الذي نريد أن نعرض له هنا بهذه المناسبة ونقرأ من أخباره هو سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه ،التي كانت مهمتها استطلاع أخبار العدو . إلا أنه حدث اجتهاد خاطىء أخرجها عن مهمتها الأصلية ، فبالغ الكفار بالتشهير في هذا الخطأ واستغلوه ، وأرادوا أن يجعلوا منه سهمًا يرمون به الإسلام ، ويلحقون المعرة بأهله ، ليغطوا جرائمهم الكبيرة ويتخذوا منه وسيلة إعلامية ، يمارسون من خلالها التضليل ، فماذا كان موقف المسلمين ؟

هل أنكروا الخطأ وتستروا عليه ؟ وكابروا فيه وكذبوه ؟ كيف عالج الوحي هذه القضية ؟! هذا ما نريد قراءته في خبر تلك السرية . . ذلك أن هذه الحادثة كانت في رجب الشهر الحرام ، وأن العالم الإسلامي والدعاة إلى الله اليوم يعانون من أحوال مماثلة إلى حدٍ بعيد ، ويعيشون مشكلات قد تبدو في ظاهرها معقدة ، ولا يهتدون فيها إلى حلٍ ، وفي تقديرنا أن المعادلة الصعبة التي نعاني منها على أكثر من مستوى والتي ذهب الناس في حلها بين الإفراط والتفريط ، يمكن لنا من خلال القراءة المبصرة في الكتاب والسنة ، والسيرة العملية ، أن نلقي عليها بعض الإضاءات ، التي تجعلنا أكثر إدراكاً لأبعاد المعركة بين الإسلام وخصومه ، وأكثر قدرة على المواجهة ، وأغنى حكمة في المعالجة ، ولنبدأ بقراءة الحادثة كما وردت في السيرة الصحيحة :

قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب مقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد . . وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه ، حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فتَرْصُد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم . . » فلما نظر في الكتاب ، قال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بما في الكتاب وقال : قد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ .

فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد . . . حتى نزل نخلة فمرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة . فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا وقال : عمّار ، لا بأس عليكم منهم ، وتشاور الصحابة فيهم وذلك في آخر يوم من رجب ، فقالوا : والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعنَّ به منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم .

ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمىٰ واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القومَ نوفل بن عبد الله فأعجزهم .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما قدموا على رسول ﷺ قال : « ماأمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم فظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . . وقالت يهود ، تفائل بذلك على رسول الله ﷺ : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله : عمرو : عمرت الحربُ ، والحضرمي : حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقدت الحربُ . فجعل الله ذلك عليهم لا لهم .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فيه كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ..﴾ (البقرة : ٢١٧) .

أي : إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر

به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم والفتنة أكبر من القتل ، أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ...﴾ .

قال ابن إسحاق : فلما تجلى عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن ، طمعوا في الأجر ، فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزاة نُعطى فيها أجر المجاهدين ، فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٨) ، فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء . (ابن كثير الجزء الثاني ص ٣٦٦ ـ ٣٦٩) .

هذا خبر سرية عبد الله بن جحش والملابسات التي رافقت الأمر ، كما رواها الحافظ ابن كثير في كتابه ، وما ورد في كتب السيرة الأخرىٰ وأسباب النزول لا يخرج بمجموعه عما ذكره ابن كثير رحمه الله . . .

مجموعة حقائق ..

ونرى أن مجموعة من الحقائق لابد من تسجيلها ابتداءً وقبل الانتهاء إلى تلك الإضاءات التي كنا وعدنا بها ، والتي من أجلها كانت القراءة لهذه السرية ، والتي نأمل من خلالها أن نكشف كثيراً من جوانب المأساة التي يعاني منها مسلم اليوم ، ونأخذ بيده قدر المستطاع لسلوك طريق الرشاد .

● أولى هذه الحقائق : أن القرآن خالد ، مجرد عن حدود الزمان والمكان ، وأنه منهج النبوة الأخير للبشرية ، وهذه مدلولاتها تعني : أن القرآن قادر على العطاء دائمًا وأن معينه لا ينفد ، ونظن أن ذلك ليس محل شك أو مماراة عقيدة على الأقل بالنسبة لأي مسلم يدرك أبعاد إسلامة وحدود إيمانه ، لكن يبقى الأمر المطروح إلى أي مدى استطاع مسلم اليوم أن يترجم هذه العقيدة إلى واقع ، ويحقق الرؤية القرآنية في حياته وفي نظرته للأمور وحكمه عليها وتعامله معها بكل شمولها وخصبها وعطائها وتفسيرها للحياة وتحديدها لمسارها وبيانها للقوانين

والسنن التي تنتظمها أو يصطبغ فعلاً بها سلوكه : لتحقق لديه ملكة الفرقان ، التي أخبرنا الله بها كثمرة للتقوى ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ فُرْقَاناً ﴾ .

والذي نراه عند أكثر المسلمين اليوم ، أن قضية الاعتقاد بخلود القرآن والانتصار لها لا يخرج بمجموعه عن الاقتصار على الموقف العاطفي الذي لا يُحدث الأثر المطلوب في سلوكنا ، والتغيير المشروع في حياتنا ، والرؤ ية القرآنية الشاملة لقضايانا ، ولئن كان بعض المسلمين اليوم مصاباً بالعجز عن تمثل خلود القرآن ، وأن خلوده لا يعني عند كثير منهم أكثر من استمرار تلاوته ، والتبرك به . فهذا لا يغير شيئاً من حقيقة الأمر ، إذا اقتصرنا عليه .

● الحقيقة الثانية : أنه لابد لنا حتى ندرك الرؤ ية القرآنية بشكل واضح وسليم من بيان الموحى إليه من ربه ، الذي أنيطت به مهمة البيان . . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..) (النحل : ٤٤) والالتزام بحدود هذا البيان ، الذي يشكل بمجموعه السنة الصحيحة والسيرة العملية . . ومن هنا يمكننا القول بخلود السنة الصحيحة والسيرة العملية . وأن هذا البيان وهذه التطبيقات لابد منها لمعرفة الأبعاد العملية للرؤية القرآنية .

● الحقيقة الثالثة : أن السنة الصحيحة والسيرة العملية إلى جانب الكتاب هي الحاكم وهي المقياس والمعيار الذي به تقوم الأمور ، وأعمال العباد وتصرفاتهم محكوم عليها . وبالتالي فعلى الرغم من الاسقاطات التي يمكن أن تتم للحاضر ، من خلال الحادثة التاريخية وعلى الرغم من تعدية الرؤ ية القرآنية وتحقيق شمولها لأحداث الحاضر ، وعملية المقايسة التي يمكن أن تصيب كما يمكن أن تخطىء . يبقى للسيرة تفردها وللصحابة تميزهم وخصائصهم ، كجيل فريد كانت حياتهم هي الأوعية الشرعية التطبيقية لمدلولات الخطاب القرآني . . وعملية المقايسة والاسقاط التاريخي إنما تكون لإضاءة الطريق وإغناء التصور ليستقيم التطبيق ، وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تأخذ الحادثة الحاضرة مهما بلغت عملية المقايسة من الدقة مكانة ومنزلة أحداث السيرة وحياة الصحابة فالرسول ﷺ عندما قال قبيل معركة بدر حين رأى قريشاً بخيلائها ومعاداتها لله ورسوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض » أمر خاص بالبدريين مهما اشتدت الأحوال واحلولكت الظروف بالنسبة لأية جماعة من الجماعات أو مجتمع من المجتمعات الإسلامية بعد قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ..﴾ وقوله : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ..﴾ لذلك فإعطاء بُعْد السيرة ومنزلتها لأي جماعة من الجماعات في تصرفاتها خطأ عقيدي وتاريخي وحضاري لابد من التنبيه عليه ، فالمقاس لا يقاس عليه هنا .

● الحقيقة الرابعة : أن محل القدوة والأسوة ، والمثل الأعلى هو الرسول ﷺ ، وليس ذلك لأحد من بعده مهما علا شأنه وعظمت مكانته ، لوجود العصمة للنبي ﷺ ، ولأن البشر خطاؤ ون ، وإنما يقتربون من المثل الأعلى ويبتعدون عنه ، بمقدار ما يؤتى كل منهم من خير وحكمة وبصيرة نافذة . . . وعلى ذلك يبقى للمثل الأعلى عصمته ومكانته ويكون لنا خطؤنا وصوابنا وقربنا من ذلك المثل وبعدنا عنه بمقدار ما يحالفنا التوفيق من الله ويتوفر لنا الإدراك والفقه . .

● الحقيقة الخامسة : أن أسباب النزول هي عبارة عن وسائل معينة ، وأضواء كاشفة ، لكيفية تنزل النص القرآني ، على الواقعة التاريخية ، وإدراك أبعاد الصور التطبيقية لمدلولات الخطاب ، حتى يمكن لنا بعد ذلك المقايسة والتعدية ومد الرؤ ية القرآنية وإعطاء الحكم الشرعي للأحداث المتجددة ، ولا يمكن أن نتصور أن النص القرآني مقتصر عليها ولا يتعداها إلى غيرها من الوقائع المماثلة لأن ذلك يقضي على حقيقة الخلود ، والقدرة على العطاء المستمر ، لذلك لا يمكن اعتبار أسباب النزول من السدود والقيود للنص خاصة وأن القرآن أكد على ضرورة الاعتبار لأولي الأبصار ، وأن العبرة عند علماء الأصول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . . .

بصـــائر لمأســـاة المسلميـــن

بعد هذه الحقائق والبدهيات التي أتينا على ذكرها نعود إلى القراءة في خبر سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه التي تشكل سبب النزول لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ..﴾ إلى آخر الآيات لنساهم من خلال حادث السيرة الذي نحن بصدده ببعض البصائر لأبعاد مأساة المسلمين التي يعيشونها أو للواقع الذي يعانون منه على أكثر من صعيد .

وأول ما يطالع الإنسان فيها ما كان من استنكار الكفار لسلوك المسلمين من

القتال في الشهر الحرام واستغلال ذلك وإلحاق المعرة بهم والتضخيم من هذا الخطأ حتى كاد يغطي على سلسلة أخطاء الكفار وجرائمهم التي لا نهاية لها ، وما كان من جواب رسول الله ﷺ وهو المثل والقدوة ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ من اعتراف بالخطأ وبأنه خطأ كبير لا شك في ذلك . وهنا لابد لنا من وقفة بسيطة وهي أن الرسول ﷺ لم يقتصر على معرفة الخطأ وترميمه وذلك بإيقاف الغنيمة والتفكير بدفع دية القتيل ، بل تجاوز المعرفة إلى الاعتراف الصريح المعلن بالخطأ ويحجم الخطأ أيضاً ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. ﴾ .

وفي اعتقادنا أن التنبه لهذه القضية على غاية من الأهمية والخطورة . . ذلك أن اجتهاد بعضٍ من مسلمي اليوم : أن أمر التستر على الخطأ والسكوت عنه في العمل الإسلامي ضرورة تنظيمية وخطة استراتيجية ومصلحة إسلامية ، ذلك أن الخطأ إذا كُشف استطاع العدو أن يوظفه لمصلحته ضد مصلحة الإسلام والمسلمين ، وكان بمثابة النوافذ التي يتسلل منها العدو وذلك بمعرفته المقاتل إلى جانب خلخلة الصف المسلم الذي يكون في نهاية المطاف لمصلحة أعداء الإسلام . .

أما بعضهم الآخر فيرى أن التستر على الخطأ أمر مهلك للأفراد والجماعات وسبب انقراض المجتمعات البشرية وسقوط الحضارات ، ومورث للّعن الذي لحق بني إسرائيل ، بسبب عدم تناهيهم عن المنكر ، وأن مخاطر وسلبيات الاعتراف بالخطأ ومطاردته وما يحدثه ، ومن ثم تصويبه لا يمكن أن تقاس بما يترتب على التستر عليه من هلاك وإهلاك .

إن الاعتراف بالخطأ وتصويبه وتقويمه هو سلامة في البناء وصلابة في القاعدة وإقامة للمجتمع على تقوى من الله ورضوان . . وإن التستر عليه والسكوت عنه بحجة عدم التشويش في الوسط وعدم الخلخلة في الصف المسلم من أوهام الإنسان وتلبيس الشيطان . . . فالحق أحق أن يتبع ، والتناصح والاعتراف وسيلة لاستقامة البناء المتين ، والتستر لون من الخداع والمخادعة والورم الكاذب قال تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. ﴾ .

وفي تقديرنا : أن في خبر سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه حل للمعادلة التي قد تبدو في ظاهرها صعبة نوعاً ما ، وإغناء للتصور الذي يمكن من الحكم

الصحيح وإضاءة هامة على طريق الحل . . ذلك أن المشكلة التي نعاني منها أن المجتمعات الإسلامية بدأت على أكثر من مستوى رحلة الانسلاخ من الإسلام كثمرة للغزو الفكري والتضلل الثقافي والتغريب الحضاري إلى درجة أصبح معها الإسلام غريباً أي مستغرباً مستنكراً على ما ألفه الناس ، من صور الإسلام التي صنعت لهم ، وأن الدعاة إلى الله أصبحوا غرباء في مجتمعهم وغرباء في سلوكهم الذي بات يستهجن ويستغرب ويوصم بشتى الصفات كالجمود والتشدد والتعصب والتطرف إلى آخر هذه المصطلحات ، والأمر ليس جديداً فلكل عصر مصطلحاته ، ولقد اتهم الرسول ﷺ من المجتمع الجاهلي بتهم شتى وكان كل من يخرج عن عقائد وعادات هذا المجتمع إلى الإسلام يسمى صابئاً ، ولا يكون هذا من أعداء الإسلام فحسب وإن كانوا هم وراء القضية ، بل من بعض المسلمين البسطاء الذين لم يألفوا هذا الفهم للإسلام .

خطــأ الداعيــــة أمــــر طبيعــي

والدعاة إلى الله قد يخطئون في الوسائل وأساليب العمل ، ويفتقدون الحكمة في نشر الدعوة بسبب من شراسة الأعداء التي تُحرجهم في بعض الأحيان فتخرجهم عن الطريق الإسلامي السوي ، أو بسبب من ضغط الواقع على أعصابهم وردود الفعل التي يمكن أن تلحق بهم كبشر في حالات ضعفهم البشري أو الفهم الخاطىء للإسلام والتعسف في تطبيق أحكامه . وهنا تكمن الصعوبة في المعالجة فبعض الناس يظن أن تخطئتهم إنما توظف لحساب أعداء الإسلام والمسلمين كما أسلفنا وتكون مساهمة سلبية في إنهاكهم وشل حركتهم وتمكين العدو منهم كرد فعل على الذين يقتصر دورهم في المعالجة على تطبيق قانون السير ذي الاتجاه الواحد في الموضوع : وهو تتبع خطأ العاملين للإسلام ووضعه تحت المجهر وتكبيره إلى درجة تشل حركة العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ، وتخوف منه لأنهم يظهرونه ككتلة أخطاء دون القدرة على تحديد موقع هذا الخطأ ، إن وجد ، من صور الخطأ العميم والجرائم الكبيرة التي يمارسها أعداؤ هم ، وكيف أن أخطاءهم إذا ما قورنت بخطأ خصومهم لا قيمة لها .

من هنا نستطيع أن نقول : إن في خبر سرية عبد الله بن جحش الضوء

الكاشف والجواب الشافي للمعادلة التي تبدو صعبة في ظاهرها . لقد أخطأ المسلمون في انتهاك حرمة الشهر الحرام ، وقتل وأسر من قتلوا وأسروا وعاب عليهم الكفار ذلك وبدأت رحلة الإعلام المضلل للنيل منهم . وتضخيم خطئهم فكانت هذه فرصة المسلمين أولاً للاعتراف بالخطأ ومطاردته في صفوفهم ، وهذا يقوي الصف ويقيمه على أساس متين لا شك كما أسلفنا لكن في الوقت نفسه امتلكوا القدرة على التصنيف التي رباهم عليها المنهج القرآني . . ماهي قيمة هذا الخطأ وحجمه وأثره إذا ما قيس بأخطاء أعداء الإسلام الذين يدمرون المجتمع ، ويمارسون الفتنة ويمنعون الخير ويشهرون الشر ؟!!! إن ما وقع فيه المسلمون من خطأ كان فرصة المسلمين بعد أن طرحت قضية الخطأ على الساحة . . أن يكشفوا أخطاء العدو ويطرحوا الموازنة والمقارنة التي تنهك العدو . . ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ..** ﴾ . إن الاعتراف بالخطأ والقدرة على القيام بالموازنة كان دماً جديداً في جسم الدعوة الإسلامية وكشفاً وإنهاكاً وفضحاً لمواقع العدو تحت شعار : الفتنة أكبر من القتل .

فما قيمة رد الاعتداء في الشهر الحرام أمام الصد عن الحق ومنع الناس من الوصول إلى المسجد الحرام وإخراج المسلمين من مكة واضطرارهم للهجرة ، وممارسة الاضهاد الفكري للحيلولة بين الناس وبين اختيارهم العقيدة الصحيحة !! إن سلسلة الجرائم التي يمارسها أعداء الإسلام ويُسْكَتُ عليها هي أكبر عند الله ﴿ **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ..** ﴾ (القلم : ٣٦) !!!

الاعتـراف بالخطــأ وتصـويبه

من هنا نستطيع أن نقول : لابد من الاعتراف بالخطأ وتصويبه وتقويم العوج ومطاردته في الصف الإسلامي ، وإن هذا ليس معرة وليس مساهمة سلبية في قوة الأعداء إذا امتلكنا الرؤ ية الصحيحة للمعالجة لكن بشرط أن لا يطبق قانون السير ذو الاتجاه الواحد ، فنرى القشة في عيون الآخرين ولا نرى العود في

أعيننا ، نسكت عن الجرائم الكبيرة ، التي تدمر الأمة وثقافتها وعقيدتها ، ونطارد الأخطاء والهفوات في المجال الإسلامي ، ونتحدث عنها . . وفي تقديري أن هذا الأسلوب يؤدي إلى تصلب الخطأ ويحول دون معالجته ، بل يسقط هذه المعالجة حتى لو جاءت من داخل الصف المسلم .

ويمكننا أن نعتبر إلى حد بعيد أن خطأ الذين تصدوا لمعالجة الموضوع وحاولوا «تجيير» بعض الأحكام الفقهية والمصطلحات الشرعية لصورة الواقع التي قد لا تمت للإسلام بصلة ، وتحدثوا عن خطأ المسلمين دون القدرة على تحديد موقعه وقيمته من سلسلة جرائم أعداء الإسلام كانوا يرون بعين واحدة ولم يكتب لمعالجتهم أن تؤدي الدور المطلوب ونخشى أن تكون حملت الإساءة للموضوع أكثر من أن تقدم الحل .

ولعلنا نلمح أمراً آخر في خبر السرية . . ذلك أن رجال السرية بقيادة عبد الله جحش رضي الله عنهم على الرغم من انتصاراتهم ونيلهم من عدوهم . أصابهم الغم وخافوا أن يحبط عملهم لأنهم أخطأوا فهم أمر رسول الله ﷺ . وعنّفهم مجتمعهم الإسلامي عندما تبين الخطأ . فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام . . .

وبعد فهل يحق لنا بعد هذا أن نطلب إلى الأخ القارىء العودة إلى قراءة الآيات التي تتحدث عن خبر السرية بتأمل وتدبر . .

[رجـــب : ١٤٠٣هـ نيسان (ابريل) : ١٩٨٣م]

العربية .. وثقافة المترجمات

« العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم العربية وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب »[ابن تيميه]

من الأمور التي أصبحت من قبيل المسلمات في هذا العصر أن معرفة أكثر من لغة إنما يعتبر ـ وإلى حد بعيد ـ بمثابة الحواس الإضافية ، أو هي وظيفة أساسية من وظائف الحواس الأصلية ، وأن الذي يحرم من ذلك فقد حرم الكثير من المعارف والأفكار والثقافات والعقائد البشرية ، التي أصبح لا مفر للإنسان من الاطلاع عليها والتعامل معها بشكل أو بآخر ، وتحديد موقعه منها بشكل دقيق ، وقد لا يكون هذا الموضوع من الأهمية بالنسبة للجيل الماضي ، كما هو عليه الآن . ذلك أن العالم بثقافاته وأفكاره ومعارفه وعقائده ، أصبح وكأنه دولة واحدة ، وساحة صراع فكري ، وحوار عقائدي بعد أن اختصر الزمان وانتقص المكان ، وأصبح الإنسان يرى العالم ويستمع إليه من مكانه أو من وراء مكتبه ، من خلال ما قدمته المدنية الحديثة من وسائل إعلام مرئية أو مسموعة أو مقروءة ، أو من خلال وسائل النقل المتقدمة وأدوات الاتصال العجيبة . . .

ويمكننا القول : إن الذي يرضى لنفسه أن يعيش بعيداً عن إدراك الصورة العالمية للحياة ومعرفة التعامل معها ـ وقد أمكنه ذلك ـ فقد أخرج نفسه من صورة الحياة ، وقبل أن يعيش على هوامشها في عالمه الصغير الذي قد يراه كل شيء ، وعطل ملكة التعلم التي وهبه الله إيَّاها وأمره بتسخيرها واستخدامها . . . وقبل لنفسه أيضاً أن يكون أحد أفراد جماعة الصم البكم . . والله تعالى يقول :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

أهمية اللغة في البلاغ المبين ..

فإذا كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، كما يقول علماء المنطق ، وقد نُهي الإنسان عن اتباع أمر ليس عنده به سابق علم وتصور ، فكيف للإنسان المسلم أن يعمل لدعوته ويتعامل مع مجتمعه والناس عامة ، الذين هم أمة الدعوة ومحل الخطاب كما يصطلح لهم بعض علمائنا ، دون علم دقيق مسبق لواقعهم وعاداتهم وعقائدهم ؟!

كيف يستطيع الإنسان المسلم أن يحقق هدفه ، ويؤدي وظيفته ، ويقوم بدوره على هذه الأرض دون أن يمتلك الوسائل الموصلة إلى الهدف ؟! ولعل من أهم هذه الوسائل : المعرفة بأحوال الأمم وعاداتها وعقائدها ، ولا يتأتى هذا إلاَّ بمعرفة اللغات التي تشكل الأوعية الطبيعية لثقافتها ، والنوافذ الحقيقية التي لابد منها لتحقيق التصور الصحيح عنها ، ومن ثم يكون التعامل السليم معها .

والقرآن الكريم قدم للمسلمين صورة واضحة عن واقع العادات والعبادات والعقائد التي كانت سائدة في إطار اليهود والنصارى والوثنيين في عصر التنزيل ، ليتمكن المسلم من معرفتها ، ومن ثم تحديد وسائله للتعامل معها ، وهذا يشكل منهجاً لابد من التزامه في العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ، ورؤية قرآنية لابد من تعديتها وحسن التعامل معها ، وإلاَّ كيف يمكن للإنسان المسلم أن يوصل خطاب التكليف إلى البشرية جمعاء ، وهو على جهل بلسانهم يعقبه جهل بعاداتهم

وعباداتهم وعقائدهم ، والله تعالى يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...﴾ (إبراهيم : ٤)

فإذا كان الدعاة ورثة الأنبياء ، وإذا كانوا الخلف لمتابعة الطريق وحمل رسالة النبوة ، فلابد لكي تتحقق عملية البيان من معرفة اللسان ، فهل يمكننا أن نعتبر أن من رسالة المسلم في هذا العصر معرفة اللسان ؟ وأن خطاب الآخرين وإيضاح الإسلام لهم لا يمكن أن يتم إلاَّ بلسانهم ، وهذا قانون إلهي . . . ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ .

لذا كان لابد من النظر إلى هذه القضية بالجدية الكاملة ، وإعادة النظر بصلاحية المواقع القديمة والأحكام القديمة التي قد يشفع لها أنها كانت ثمرة لظروف وأحوال تبدلت ، وأهميات اهتزت ، وأولويات تغيرت . . .

إن معرفة لسان الأقوام الآخرين ، كنافذة على حياتهم ، وكوسيلة للتعامل معهم ، أصبح ضرورة تقتضيها ظروف الحال ، خاصة وأن علوم ووسائل المدنية الحديثة تكاد أن تكون حكراً على هذه اللغات الآن ، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها . . . فتعلم اللغات يشكل ضرورة لخطاب القوم ، ويشكل حاجة للتعرف على وسائل المدنية الحديثة التي غمرت حياتنا بخيرها وشرها ، ولابد من فهمها وحسن التعامل معها .

المنزلق الخطير ..

ولسنا الآن ونحن في هذه العجالة بسبيل أن نستوفي الكلام عن أهمية اللغات الأخرى ، ومدى فائدتها وضرورتها ، لكن الذي يعنينا هو الكلام عن المنزلق الخطير ، الذي تزداد خطورته يوماً بعد يوم ، والذي أصبحت ملامحه واضحة في حياتنا ، وصوره مكرسة ومألوفة في عالم المسلمين اليوم ، وخطورة هذا الأمر أنه لا يقتصر على العوام من المسلمين والبسطاء والسذج والأميين ، وإنما يتجاوزهم إلى بعض المؤسسات الإسلامية ، أو مؤسسات التعليم الإسلامي ، وبعض القيادات الإسلامية ، وكثير ممن نذروا أنفسهم ليكونوا دعاة إسلاميين يسيرون على ميراث النبوة ، ويحملون دعوة الإسلام إلى البشرية .

هذا المنزلق الخطير والشر المستطير الذي ينذر بسوء العواقب ، ويبتعد بنا شيئاً فشيئاً عن الأصول ، هو : اكتفاء بعض دعاة الإسلام ، وبعض القائمين على المؤسسات الإسلامية ، من العربية بحفظ سورة الفاتحة وسورة أو سورتين من قصار السور يؤدون بها صلاتهم ، وفيما وراء ذلك إنما يتعرفون على الإسلام والعقيدة الإسلامية من بعض الكتب المترجمة إلى اللغات الأخرى ، كالفرنسية والانكليزية وغيرهما من اللغات . . .

ونحن لا نريد هنا أن نحط من قدر هذه المؤلفات المترجمة عن الإسلام إلى اللغات العالمية ، ولا نقلل من أهميتها وقيمتها وفائدتها وآثارها الكبيرة والكثيرة جداً في التعريف بالإسلام والمسلمين ، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر الآثار الكبيرة والفوائد العظيمة التي تركتها كتب الأستاذ المودودي وغيره ـ رحمهم الله ـ ؟! ولكن الذي نريد إيضاحه عدة أمور :

إن هذه المترجمات يمكن قبولها ابتداء للتعريف بالإسلام والمسلمين ، لأنها تمنح الصورة الإسلامية ، وتغري بالبحث والمتابعة ، وتقود المسلم إلى التعرف على الإسلام من منابعه الأولى ، وفهمه من خلال لسانه ومعهود العرب في الخطاب ودلالات الألفاظ كما هي بالعربية . . نقول : إن هذه المترجمات يمكن أن تقبل ابتداء لتقود إلى ما بعدها ، وإن رضينا باستمرارها فيمكن أن يكون ذلك في مجال بسطاء المسلمين من غير العرب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالتحصيل والمتابعة ، أما أن يقبل دعاة الإسلام والقائمون على شأن بعض المؤسسات الإسلامية بهذه الحال ، وأن تكون معرفتهم الإسلامية وثقافتهم الإسلامية عن طريق هذه المترجمات عن الإسلام ، فهنا تكمن الخطورة . . . ذلك أن الترجمة مهما كانت دقيقة ومعبرة لا يمكن أن تعطي الصورة الصحيحة الدقيقة لمدلولات الألفاظ في لغة أخرى ، لها اصطلاحاتها ، ولها استعمالاتها ، ولها أوعيتها المرنة ومترادفاتها الغنية ، ولها مجازاتها واستعاراتها وكناياتها . . . حيث لا تتسع لذلك لغة أخرى مهما كانت المحاولة جادة وأمينة وصادقة ، ناهيك عن ثقافة المترجم وفهمه لمدلولات الخطاب الإلهي ومدى تأثره والمداخلة التي يمكن أن تتم خلال كل العوامل النفسية والثقافية المكونة لشخصيته الفكرية . . والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً ﴾ (يوسف : ٢) ويقول : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُبِينٍ ﴾ (الشعراء : ١٩٥) فطريق معرفته لا يمكن أن تتأتى إلاَّ من خلال معهود العرب في الخطاب ولغة العرب أيضاً . . . فإذا كان العلماء المحققون والباحثون الجادون اليوم ، على مستوى اللغة نفسها ، يحاولون تجاوز فهوم أبناء اللغة نفسها ، ويعودون للبحث عن الأصول والمخطوطات ، يعودون للمعاجم لدراسة مدلولات الألفاظ ، ويدرسون أيضاً رسم الخطوط ليتمكنوا من القراءة وليصلوا إلى الصورة الحقيقية والمدلولات الدقيقة للوحي الإلهي ، ولنص الكتب والمعاهدات والمقررات والعقائد والأديان ، فما بالنا نحن المسلمين ، وعلى مستوى القيادات ، نرى أنه بالإمكان أن نكون مسلمين ، وأن يكون فهمنا للإسلام من خلال التصور الذي رسمته لنا الكتب المترجمة . . .

الوسيلة الوحيدة .. لفهم الإسلام

ونعود للتأكيد مرة أخرى أن الدعوة نتعلم لغة العقيدة ، والتعرف على العقيدة من خلال لسانها لا يعني إلغاء الترجمة وبيان الإسلام باللغات الأخرى ، ولا التقليل من قيمة هذه الجهود المشكورة التي أضاءت الطريق لكثيرين ووصلتهم بالإسلام ولا تزال ، ولا أن نتخذ موقفاً معادياً لها ، وإنما نقول : إن العربية هي الوسيلة الوحيدة في نهاية المطاف لفهم الإسلام . . .

يمكن أن نلمح ذلك من أن الإسلام لم يقم وزناً لقضية الأجناس والألوان والأموال ، حَسْبُها أنها فوارق قسرية ، ليس من المقبول عقلاً أن تكون ميزان تميز وتفاضل ، ولو كان ذلك كذلك لكان الظلم عينه ، وكانت وسيلة للصراع والاقتتال ، ومن هنا أيضاً نلمح البدائية العجيبة عند الذين كانت القوميات والعصبيات والعنصريات والألوان والنزعات العرقية مناط دعوتهم ، وهدف حركتهم . . . وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقم وزناً لهذه الفوارق القسرية كلها إلاَّ أنه لم يتنازل عن قضية العربية ، لأن اللغات مكتسبة وتعليمية ، ولابد منها لصياغة الأمة الواحدة وتشكيل أوعية متجانسة للعقيدة الواحدة التي تحفظ روح الأمة وتعبر عن إرادتها . . ولذلك نرى التطبيق العملي لهذا في حياة المسلمين من غير العرب ، حيث لم يعتبر أحدهم أن بإمكانه الاستغناء عن العربية والاقتصار على ما يفهم من الإسلام بلغته ، أو من أبناء جنسه الذين أسلموا

وتعلموا العربية ، بل كانت العربية غاية مناه ووسيلة فهمه لإسلامه وعقيدته ، فكان منهم مؤلفون وعلماء ومفسرون ومؤرخون وأصوليون أدركوا من مدلولات الخطاب ما أدركه العرب أنفسهم ، بل وصلوا إلى مرتبة الإمامة في اللغة والفقه والتفسير والحديث وما إلى ذلك من العلوم التي لا تتوفر إلاّ لمن أتقن العربية وعلومها . . .

إنهم كانوا يدركون تماماً أن العربية من الدين ، وأن لا سبيل إلى فهم العقيدة والتزام الشريعة بغير العربية ، وبذلك يقول أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في «الموافقات» .

« إن هذه الشريعة المباركة عربية ، فمن أراد تفهمها فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولا سبيل إلى تطلب فهمها من غير هذه الجهة . . . » .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « تعلموا العربية فإنها من دينكم . . . » .

لذلك رأينا علماء الأصول يفردون في كتبهم مباحث نفيسة للغة العربية ودلالاتها باعتبارها وسيلة لفهم الشريعة . . . ومن هنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله ، وهو أول من أصَّل الأصول : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ومن التسبيح والتشهد وغير ذلك . . . » .

والرسول ﷺ يقول : « من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق » وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : « فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب . . . » .

الهجوم على العربية استهدف به الدين ..

والعربية : اللسان ، والدعوة إليها من أمر العقيدة ، يستوي فيه موقع المسلم العربي والمسلم غير العربي ، على الرغم من ردود الفعل والإساءات التي حملها دعاة النزعات الإقليمية والعرقية ، والقوميات ، وأرادوا حبس لغة العلم والحضارة والعقيدة ضمن أسوار النزعات الاقليمية ، وكان بعضهم من البساطة لدرجة ظن معها أنه يحسن بذلك صنعاً ، ولم يدر أنه كان يمثل مطية لمرحلة كان لابد منها ، هي : **مرحلة العبور من الإسلام إلى اللادينية التي تحارب الإسلام ، وتحارب العرب مادة الإسلام ، وتحارب العربية لسان الإسلام . . .** ومع الأسف فإن البسطاء من المسلمين غير العرب وصل عندهم رد الفعل إلى المدى الذي رُسم لهم ابتداء ، فأصبحوا ينظرون بارتياب إلى كل دعوة إلى تعريب اللسان ، وما دروا أنهم بذلك أساؤ وا لأنفسهم وإسلامهم ، ووقفوا عن غير قصد منهم في صف أعداء الإسلام ، **فأصبحوا يعتبرون أن كل دعوة للعربية هي دعوة للإقليمية ، وفاتهم أن موقعهم من لغة العقيدة لا يختلف عن موقع العرب منها أو موقعها منهم** ، وأن دعاة الإقليمية من العرب كانوا تاريخياً أعجز الناس عن تقديم أية خدمة للعربية ، بل معظمهم لا يحسن النطق بها ، ولا يقيم لسانه بالقليل منها . . .

ولقد كنا نتوهم أن الهجوم على العربية بأشكاله المتعددة ، ووسائلة المختلفة ، الذي تولى كِبْره ، **كمال أتاتورك على المستوى السياسي** ، أصبح تاريخاً بعد أن سقطت الأقنعة عن الوجوه ، وارتدت الأسلحة إلى نحور أصحابها ، لكن الحقيقة أن أعداء الإسلام الذين يقول الله عنهم :

﴿ ... وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ... ﴾ (البقرة : ٢١٧) . لم يكلُوا ، ولم يملُوا ، وكلما سقطت راية رفعوا غيرها ، وكلما انكشفت وسيلة استبدلوها بسواها ، وكلما خسروا معركة تحرفوا لموقع آخر يقاتلون فيه ، ويمكن أن يكون خرق اللغة ، بالنسبة إليهم ، هو من أعظم الخروق التي ينفذون منها دون ضجيج وبشكل هادىء .

لقد أدركوا أن الهجوم المباشر على العربية ، والدعوة المباشرة إلى استبدال

العامية بها ، ترك ردود فعل قوية على مختلف المستويات ، فكان لابد من تغيير الوسيلة والتسلل لتحقيق أهدافهم بهدوء وصمت . . . فمن دعوى إلى تطوير الحرف العربي والخط العربي ، وتقديم المسوغات التكنولوجية لذلك ـ وصناعة التكنولوجيا بأيديهم كما هو معلوم ـ إلى الدعوى التي تقول بضرورة التفريق بين لغة العلم ولغة الدين ، وأن العربية لا تصلح كلغة علمية ، لأنها لغة دينية مكانها المعابد والمساجد والكتب المقدسة ، كالسريانية واللاتينية والهيروغليقية وبعض اللغات الميتة التي تقتصر معرفتها على بعض رجال الدين بعيداً عن واقع الحياة ، ولعل هذه القضية هي مظهر واضح من القضية الأساسية ، فصل الحياة عن الدين .

عجمة اللسان تؤدي إلى عجمة القلب والفكر

ولقد حقق أصحاب هذا الاتجاه معظم أهدافهم ، ذلك أن دراسة العربية وعلومها بالشكل المطلوب أصبح معزولاً عن مدارسنا وجامعاتنا ، ومقتصراً على بعض المدارس الشرعية التقليدية ، وفي حلقات المساجد ، والكثير من العلوم والدراسات تقرر في عالمنا العربي والإسلامي باللغات الأجنبية ، ولعل الجامعة الوحيدة التي تدرس العلوم بالعربية هي جامعة دمشق ، ولا زالت عملية ترجمة العلوم وتعريبها والجهود في هذا المجال تعيش في الخطوط الخلفية للمجتمع العربي الإسلامي ، وقليل من يستفيد منها ، وإلى الآن لم تؤخذ بقوة . . .

ولقد تسللت المؤامرة على العربية إلى بعض الأجواء الإسلامية ، وسقط في مناخها بعض الإسلاميين ، وإنما أوتوا بسبب عدم معرفتهم العربية ، فخرجوا على الناس بمسوغ أن لا مانع من إسلامية التفكير وأعجمية التعبير ، لذلك نرى بعض دعاة الإسلام في هذا العصر من ضحايا هذه النظرة يحاولون الفصل العضوي ، ويعيشون على ثقافة المترجمات ويعجزون عن الاتصال بالمنابع الأولى ، وفاتهم أن التعبير يطبع التفكير ، والتفكير يطبع التعبير ، وأن التفاعلات النفسية والاجتماعية التي تترافق مع ألفاظ اللغة ومصطلحاتها أصبحت من القضايا الواضحة في هذا العصر . . .

ولا شك عندنا أن اللغة كائن حي يقوى بقوة الأمة ، ويضعف بضعفها ، وأنها الوعاء الذي حفظ للأمة عقيدتها وتراثها ، والحصن الذي حمى قيمها من الاضمحلال والذوبان أمام الموجات الاستعمارية ، وأن تراجع العربية هو ثمرة لضعف الإسلام في نفوسنا ، وأن العلوم الحديثة ـ التي تهتم بوسائل الإنسان ـ جاء معظمها باللغات الأجنبية ، وأن تخلفنا الحالي لا يسمح لنا بأن نكون من روادها ، وعجزنا اللغوي يقصر بنا عن ترجمتها إلى العربية . . . لذلك فإننا نتعلم من جانب ونتعجم من جانب آخر ، وأن اللغة هي وسيلة النقل الحضاريّ بين الأجيال ، والخطورة بأن تقود عجمة اللسان إلى عجمة القلب والفكر ، ويبقى تعلم اللغات الأخرى حاسة إضافية وضرورة للفرد المسلم ، لكنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يلغي حواسَّه الأصلية ، أو أن يكون البديل عنها . . . ذلك أن اللغة العربية هي مستودع شعوري هائل يحمل خصائص الأمة وتصوراتها وعقيدتها وتاريخها ، وهذه الخصائص هي التي تمثل روح الأمة المسلمة .

[صفر : ١٤٠٣هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) : ١٩٨٢م]

هوامش حول
تطبيق الشريعة الإسلامية

﴿ والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ إنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف : ۷۰)

العدالة والمساواة من أهم الخصائص والمرتكزات التي تميز بها نظام الحكم في الإسلام ، وهما الأمر الذي يمثل إلى حد بعيد روح الحضارة الإسلامية الذي ضمن لها الاستمرارية والتواصل الحضاري رغم عوامل الإنهاك ومحاولات الإنهاء ، وهو سر البقاء والخلود الذي افتقدته الحضارات الأخرى جميعاً ، وخضعت لمقياس النمو والارتقاء ومن ثم السقوط والفناء ، ولم ينطبق هذا المقياس على الحضارة الإسلامية حيث لم يعدم أي عصر من عصور التاريخ الكثير من النماذج والصور العملية على المستوى الفردي والجماعي التي تشكل النوافذ الحقيقية الأمينة ، والتي يمكن أن يطل منها كل من يريد إلى الحق الذي يتمثل في العدالة والمساواة التي جاء بها الإسلام ، والرسول ﷺ يقول « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله »

إنها الطائفة التي تمثل هذا التواصل الحضاري الذي أشرنا إليه ، والروح الإسلامية المستمرة التي تنتقل من جيل إلى جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . إنه الوجود والحضور الإسلامي القائم الدائم الذي قد تختلف مساحته من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، لكنها لا تختفي على كل حال . . . وعملية التواصل الحضاري في الإسلام ، تلك الميزة الفريدة ، لا يتسع المجال للوقوف عندها أكثر الآن ، ولابد من العودة إليها - إن شاء الله - فهي سر الخلود للرسالة الخاتمة . .

حق السيادة والألوهية

إن قضية تحقق العدالة والمساواة على مستوى السلوك في الحياة يأتي ثمرة لقناعة عقيدية على مستوى التصور بأن السيادة لله ، وأن التشريع بيده ، وأن القيم التي يتحاكم إليها الناس وتحكم سلوكهم هي من وضع الخالق العليم الحكيم ، والتسليم بأن خالق الإنسان هو أعلم بالمنهج والقيم التي تحقق له السعادة ، وتضمن له العدالة والمساواة ، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) .

ذلك أن معظم الشر والشقوة في الحياة ، وفقدان العدالة والمساواة كامن في نزوع الإنسان إلى التأله والسيادة ، وفي تسلط الإنسان على الإنسان ، وأن هذا التسلط أخذ على مر التاريخ صوراً شتى وممارسات متعددة ، وكانت حقيقته واحدة ، فتارة كان يأخذ صورة التمييز العنصري أو اللوني ، أو القومي ، أو الطائفي ، أو الحزبي ، أو العشائري القبلي ، أو الطبقي . . وأخرى قد يلبس أثواباً دينية ويمارس إرهاباً فكرياً باسم الدين ورجاله ، والتسلط هو التسلط . . . وبالتالي فلا يمكن إيقاف هذا التسلط وتحقيق العدالة والمساواة إلا بأن تكون السيادة لله والتشريع بيده ، وبذلك فقط يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد ، إذ لايمكن أن يتصور عقلاً بأن يعطي الإنسان المخلوق نفسه حق السيادة والألوهية ، فيتصرف بالآخرين من أمثاله وفق رغائبه ورؤاه ، ويشرع لهم قيمهم التي تنتظم سلوكهم وتحكم تصرفاتهم وتتحكم بمصائرهم بعلمه المحدود ، وعمره المحدود ، ووقوعه تحت تأثيرات كثيرة

ومتعددة ، فيأتي تشريعه قاصراً من جانب ومحققاً لمصلحة طبقته وفئته وحزبه أو طائفته مستغلاً للآخرين ومستبداً بهم . . . من جانب آخر .

لذلك كان الاعتقاد بأن السيادة لله ، والتشريع بيده ، والقيم من وضعه من أولى الحقائق والبدهيات في التصور الإسلامي التي لا يمكن أن تتحقق العدالة والمساواة بدونها أيضاً . . . ومن هنا نستطيع أن نقول :

إنه لا يكتمل إيمان المؤمن ما لم يعتقد ذلك ، ويسعى جهده لإبلاغه للناس وإقناعهم به واستفراغ الوسع في العمل على تطبيقه في حياة الناس ، لأن تحكيم الشريعة والاحتكام إليها ثمرة طبيعية ، وقضية لازمة لعملية الإيمان الأولى كما أسلفنا ؛ ذلك أن ادعاء الإيمان والنكوص عن الالتزام بالشريعة والانضباط بمقياسها يبقى دعوى بلا دليل ، ومن يخالف فعله قوله كان كالذي يوبخ نفسه ، وكثيرون في عالمنا الإسلامي من أولئك الذين تسموا بأسماء المسلمين ممن أصبحت حرفتهم اللعب بالمبادىء والتلاعب عليها ، وإماتة المطالبات بتطبيق الشريعة الإسلامية في أدراج اللجان ، وتغييبها عن المواقف الجادة ؛ والعبث بعواطف المسلمين من تسويف المبطلين ، والاعتذار بالغيرة على الأمة وذلك بتقديم القضايا الهامة والخطيرة في أولويات البحث والمناقشة ، وكأن البحث في تطبيق الشريعة ليس من القضايا الهامة ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء : ٦٥) .

ولا نجد أنفسنا بحاجة إلى الوقوف عند مدلولات الآية لأنها من الآيات المحكمة التي لا لبس فيها ولا تشابه ، ولا مجال لتأويل أو تمحل ؛ والذي يزعم أنه مؤمن بالله ثم يتحاكم ـ فيما يستطيع ـ إلى غير شرعه فقد وقع في الضلال والخزي ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (النساء : ٦٠) .

وقد يكون من الأمور الضرورية هنا إلقاء بعض الأضواء ، وتحديد أبعاد خطاب التكليف بدقة ، وعلاقة ذلك بالوسع والطاقة ، ونصيب كل فرد من أفراد المجتمع من خلال موقعه من هذا الخطاب ، ذلك أن الفهم المعوج أو الإخلاص الذي يفتقر إلى الإدراك قد يؤدي في بعض الأحيان إلى استجابات

مغلوطة تحمل بعض المساوىء للقضية الإسلامية نفسها ، حيث يكلف الإنسان نفسه بما لم يكلفه الله به ، و ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴾ .. فالخطاب كما هو معلوم ، لكل مسلم حاكماً أو محكوماً ، فرداً أو جماعة ، لكن نصيب كل فرد ومسؤ وليته في الاستجابة ، ومساحة تلك الاستجابة ، تختلف من إنسان لآخر ، ومن موقع لآخر .

أيضاً ، فالإيمان بسيادة الله وأن ثمرة ذلك تحكيم شريعته بين الناس دين يتساوىٰ فيه الجميع ، لكن القدرة على إبراز ذلك وإنفاذه تختلف من مسلم إلى آخر بحسب موقعه وإمكاناته ، كما أسلفنا ، ومن هنا نقول : **إن القيام على تطبيق شريعة الله وتنفيذ حدودها لابد له من سلطان إسلامي ، وإن تطبيق بعض الأحكام من قبل بعض الأفراد على أنفسهم أو على الآخرين فيما يخص السلطان المسلم ، من إنفاذ العقوبات وما إلى ذلك ، إنما يمكن أن يصنف في إطار الفهم غير السليم وغير السوي للاستجابة الإسلامية للأحكام الشرعية ... ونعتقد هنا أن نصيب الفرد من خطاب التكليف ليس في أن يقيم من نفسه حاكماً يمارس ما ليس له شرعاً ، وإنما العمل على وجود السلطة المسلمة التي تلتزم ذلك وتقوم به .**

معنىٰ تطبيق الشريعة

ولقد كان طبيعياً جداً أن تتزامن المطالبة بتطبيق شريعة الله في عالم المسلمين بكل جوانبها ، السياسية والاجتماعية والثقافية والقضائية والأخلاقية ، مع حركة المد الإسلامي بعد هذه السنوات الطويلة من التجارب المريرة ، والغربة الموحشة ، والرحلة الشاقة من القهر والظلم والاستعمار والتسلط ، وبعد أن بددت طاقات المسلمين وأهدرت كرامتهم ، ومزقت أشخاصهم ، وأكلت مواردهم ، وسقطوا فريسة لأعدائهم ، وبعد أن حكم على إسلامهم ـ الذي كان سبب حضارتهم ووجودهم التاريخي عملياً ـ بعدم الصلاحية ، وطرح جانباً وأقصي عن مجالات الحياة وتنظيمها حتى بدأت تسوغ ذلك فلسفات ، وفرضت عليهم شرائع وقوانين لا تمت إليهم بنسب ، والذي ضمن لها البقاء والاستمرار إنما هو حراب الاستعمار ، والأيدي التي انتقلت إليها هذه الحراب في عصر ما بعد الاستعمار ...

والأمر الذي نحب أن يكون واضحاً ابتداءً ، وخاصة لأولئك الذين لا يرون من حكم الإسلام إلا الجانب العقابي ، ولا يفهمون من تطبيق الشريعة إلا قطع يد السارق ورجم الزاني وقتل القاتل ، وينظرون إلى ذلك من خلال سلوكهم وممارساتهم . . ومن خلال المجتمعات القائمة بكل ما فيها من سرقة أموال وانتهاك أعراض واستباحة دماء ، فيخرجون بنتيجة أن المجتمع الإسلامي المنشود تملؤه مجموعة من المشوهين والمطاردين بسوط الإرهاب الديني . . . نريد أن نوضح لهؤلاء أن تطبيق الشريعة أو المطالبة بتطبيقها لا يعني أبداً إقامة الحدود فقط ، ذلك أن الحدود لم تُشرع لإقامة المجتمع المسلم ، وأن الاقتصار عليها لا يقيم المجتمع الإسلامي ، ولا يعني قيام المجتمع الإسلامي ، كما يتراءى لبعض البسطاء من المسلمين حيث يُخادَعون بذلك ، وإنما شرعت لحماية المجتمع الإسلامي ووقايته ؛ ذلك أن المطالبة بتطبيق الشريعة تعني أول ما تعني : التربية الإسلامية للفرد ، والشورى في الحكم ، والطاعة في غير معصية للحاكم ، ورفض الاستبداد السياسي مهما كان ، والعدل والمساواة في القضاء ، وإباحة التملك بالوسائل المشروعة ، وتحريم الربا والميسر والاحتكار ، والتربية العسكرية الجهادية وسريان روح الجهاد والاستشهاد والإعداد والاستعداد قدر الطاقة في الدفاع عن الأمة وحماية الفضيلة من أن يعبث بها أو يعتدى عليها . . .

أما الفهم المبتور من بعض البسطاء ، أوتصوير المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع السيوف المشرغة والسكاكين القاطعة ، مجتمع الاقتصار على إيقاع العقوبات ، ومن ثم ، لا يحكم الإسلام بعد ذلك أمور الحياة ولا ينظمها ، فهذه قضية على غاية من الخطورة والإساءة للإسلام نفسه . . . ذلك أن اليد التي تحارب الإسلام فكرياً في مكان قد تكون هي اليد نفسها التي تحاول تطبيقه بشكل مشهوه وفهم معوج في مكان آخر لتقتل أي أمل في التطلع إلى حكم الإسلام بعد رؤية هذه النماذج المشوهة من تطبيقات الشريعة .

بين السلطـــان والقــرآن ..

ولا يخفى هنا أنه قد يكون من وسائل أعداء الإسلام ـ في حربه ـ رفع شعارات إسلامية وإبراز صور إسلامية غالية ومتطرفة ، فاقدة للمقومات والمرتكزات الصحيحة ، ثم ممارسة إجهاضها من الداخل للبرهنة على أن الإسلام أصبح أمراً ذا قيمة تاريخية ، عاجزاً عن الحياة في المجتمع المعاصر ، وهذا أمر وارد وله أكثر من دليل في أكثر من موقع على خريطة العالم الإسلامي ـ، غير أن الحقيقة أصبحت أمراً آخر ، ونحن على اطمئنان أن الجماهير المسلمة في كل مكان قد تجاوزت هذه المرحلة ، وأعطت ثقتها الكاملة للإسلام ، وولاءها التام لشرعه بعد هذه الرحلة الشاقة من الممارسات غير الإسلامية التي خدعتها ولم تُحمل لها إلا الهزائم والفرقة والتمزق والوهن وسيطرة الأعداء ، وهي قادرة دائماً على التفريق بين الصور المشوهة للإسلام وبين صحة وصدق العقيدة والشريعة ، وأن الفشل إنما هو في الممارسة والتطبيق وأن الثقة في المنهج باقية لا تهتز ، وتكون العلة في التطبيق .

فقد ينهزم السلطان لسبب أو لآخر ، وقد يتنكر السلطان للإسلام ، وقد ينفصل السلطان عن القرآن لسبب أو لآخر أيضاً ، لكن على كل حال يبقى القرآن وتبقى الثقة في القرآن المعصوم القادر على بناء أمة من خلال سطوره ومبادئه في كل زمان ومكان ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف : ١٧٠) .

روى أبو نعيم في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ قال :

« ألا إن رحىٰ الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار ، ألا إن كتاب الله والسلطان سيختلفان فلا تفارقوا الكتاب . . . » وقضية أخرى ، أو وسيلة أخرىٰ من وسائل أعداء الإسلام في محاربته ، وهي التشكيك في كل دعوة أو مطالبة ، والتخويف من أي صورة لتطبيق شريعة الله ، وتفسير المطالبة بتطبيق الشريعة أو الإقدام على بعض التشريعات التي من شأنها تطبيق الشريعة بأنها نوع من الابتزاز السياسي والنشاط الانتخابي أو اللجوء إلى التأييد الشعبي

لبعض الأنظمة المتداعية بعد أن تصل إلى مرحلة ما قبل السقوط ، ونحن لا نريد مناقشة صدق هذه المقولة أو دفع الاستدلال لها هنا ، ولكن الذي نريد قوله : إنه لو كان ذلك حقيقة ـ كما يزعمون ـ فإن لهذه الحقيقة وجهاً آخر ، مهما أغفلوه أو حاولوا تغييبه ، وهو أن الإسلام هو المحرك الوحيد في حياة المسلمين وأن الجماهير المسلمة سرعان ما تتعاطف مع من يرفع شعار الإسلام ، لأنه يمثل وجودها وإرادتها ، وكيانها وأملها ، ولا ترضى بغير حكم الله بديلاً ، ولا تؤيد غيره ، ولا أدل على ذلك في عالمنا الإسلامي من المبادرات العفوية التي ما نزال نلحظها عندما يرفع شعار إسلامي ، أو يشرع قانون إسلامي ، وما نلحظ بالمقابل من حراسات وحراب سلطات الأمن وتنوعها في فرض وحماية القوانين الوضعية ، غير الإسلامية ، لدرجة أصبح معها أعداء هذه الأمة يقولون صراحة : إن العالم العربي لا تنفع معه إلا سياسة العصا الغليظة ، ويستدلون لذلك بالكثير من القوانين والأنظمة التي تحكم عالم المسلمين ولا تعيش إلا في ظل الحراب . . .

لقد كان الأولى بالذين يخافون ويخوفون من تطبيق أحكام الشريعة ـ تحت عنوان الغيرة على الإسلام ، أو مصالح الناس أو حماية الأقليات التي ما طبقت الشريعة إلا وضمنت لهم العدل والمساواة ـ كان الأحرى بهم أن ينكروا ويستنكروا الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي ، والأنظمة الجبرية والأحكام الاستثنائية وقوانين الطوارىء التي تطبق في كثير من بلدان العالم الإسلامي حيث تلغى إنسانية الإنسان وتطارد الحرية وتصادر باسم مواجهة المحتل واسترداد الأرض ، الأمر الذي أضاع الحرية والأرض معاً ، وكأن المفروض بالذين يدافعون العدو ، ويستردون الأرض أن يكونوا طبقة من الأرقاء والمشوهين إنسانياً . . . ونحن على يقين بأن كثيرين من المتنفذين في عالمنا الإسلامي يعرفون إرادة الجماهير المسلمة ، يعرفون هذه الحقيقة ثم ينكرونها ، لكنهم يحاولون ابتزاز هذه الجماهير في المواسم والمناسبات . . .

فقــه التعـــــامل ..

لذلك فقد يكون المطلوب الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، من دعاة الإسلام والعاملين في الحقل الإسلامي - إلى جانب الحيطة والحذر واليقظة الدائمة ، للحيلولة دون ممارسة عمليات الاحتواء عليهم وخوض المعارك بدمائهم ، وتصفية الحسابات بين الخصوم بسواعدهم - أن يبرهنوا للناس أنهم دعاة أفكار ومبادىء ، وحملة مقاييس منضبطة ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون ، وليسوا إقطاعات بشرية لأشخاص كائنين من كانوا حتى ولو خرجوا من الصف الإسلامي نفسه ، وأن المطالبة بتطبيق الشريعة ليست حكراً على أحد أو عنواناً لجماعة أو طائفة أو حزب ، وإنما هي مطلب جماهيري من ورائه جميع المسلمين للتخلص من المناهج والقوانين غير الإسلامية التي كانت أداة تمزيق فرضت على العالم الإسلامي بقوة المستعمر وحراب رجاله ، فأوقعت العالم الإسلامي بعد أن فرقته بوهدة التخلف ، ذلك أن تطبيق القوانين والمناهج غير الإسلامية في بلاد المسلمين يورث مزيداً من التخلف ، ويقتل الإبداع ، ويصيب المسلم بمركب النقص ، ويوقع في عقدة التفوق للأجنبي ، ويورث مزيداً من العطالة ، ويشعر المسلم بالإثم الدائم من تعطيل شريعة الله ، ولا يجد من نفسه أي احترام لقانون لا يمت إليها بصلة ..

نقول : قد يكون المطلوب من العاملين للإسلام ، أكثر من أي وقت مضى ، التفريق بين الأفكار وبين الأشخاص ، أو بعبارة أدق : الانتقال من مرحلة الأشخاص إلى مرحلة الأفكار عملياً ، نعرف الحق فنلتقي عليه ونستمسك به ، وندور معه حيث يدور ، ونلتقي مع الأشخاص عليه ونفترق عليه ، ونؤيد كل عمل وتشريع بمقياس الإسلام ، ونرفض ما نرفض بمقياس الإسلام ، وبذلك نبرهن على أننا أصحاب مبادىء ولسنا رجال مصالح .

وقد يكون المطلوب من العاملين للإسلام الآن أيضاً امتلاك القدرة على فقه التعامل مع المجتمعات والانفتاح أكثر وفتح منافذ جديدة للدعوة الإسلامية وامتلاك قدر أكبر من المرونة مع الإبصار الكامل والدقيق والأمين للأهداف والتقدير للإمكانات ، والخروج من العزلة التي كادت تحيط بهم لتجعل منهم

جسماً غريباً منفصلاً عن جسم الأمة ، وتجعل لهم أهدافاً منفصلة أيضاً عن أهداف الأمة ، الأمر الذي يسهل على أعداء الإسلام ضربهم ، ومن ثم القضاء عليهم تحت شتى العناوين والشعارات .

إن الوقوف عند حدود الرفض والإدانة لواقع الأمة . . والاكتفاء بالخطب الطنانة الرنانة لم ولن يغير شيئاً من هذا الواقع ، وإنما ينقلب إلى حالة سلبية لا يحسن صاحبها غيرها ، وقد يكون إلى حد بعيد ستاراً لإحساس بالعجز عن المدافعة في معترك الحياة وحماية لشخصية هشة عاجزة عن المواجهة وحسن التدبير والتصرف .

إن فقه التعامل مع المجتمعات الذي نرمي إليه لا يعني أبداً التعاون معها على ما هي فيه من قيم وتشريعات بعيدة عن الإسلام ، كما لا يعني أبداً أن يكون دعاة الإسلام دماً جديداً في قوة الباطل ، أو أن يُوظف الإسلاميون لغير الأهداف الإسلامية وإنما يعني النزول إلى الساحة وفهم واقع الناس حتى يجيء الأخذ بيدهم ثمرة لهذا الفهم ، ذلك أن الناس هم محل دعوة الله ، وأنهم خليقون بالشفقة والإنقاذ .

إن استعلاء الإيمان الذي أراده لنا الإسلام بقولة تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩) لا يخرج عن كونه ضرباً من الاعتزاز بهذا الدين ، وحصانة نفسيه تحول بين المسلم وبين الهزيمة والذوبان في المجتمع غير الإسلامي رغم قوته وانتصاره الظاهري ، وفقدان عملية التوازن الاجتماعي حيث لا يرى المسلم إلا أحد طريقين :

إما الذهاب إلى المجتمع والذوبان فيه وعدم العودة إلى الإسلام وانطفاء الفاعلية ، وإما عمليات الرفض والإدانة والجلد للمجتمع . . الأمر الذي يحول بين المسلم ووظيفته في عملية البلاغ المبين .

إن استعلاء الإيمان هو حصانة ضمن المعركة الاجتماعية لا يعني بحال من الأحوال الكبر والاستكبار والترفع عن الناس والهروب من الساحة ، وإنما يعني التواضع ولين الجانب والمرونة والابتعاد عن الفظاظة والغلو الذي يعين الشيطان على إبعاد الناس عن الإسلام ويؤدي إلى المساهمة السلبية في التنكر لهذا الدين وأتباعه .

المطلوب : فقه التعامل مع المجتمع لإنقاذه ، وليس التعاون معه على الباطل ، أو النكوص عن الدعوة والهروب من الساحة ، والحكم على الناس غيابياً .

لقد آن الأوان لنعرف كيف نتعامل مع الصورة القائمة في حياة المسلمين ، إننا مع كل من يلتزم بهذه المبادىء كائناً من كان ، ولسنا مع من يتنكر لها أو يتحايل عليها كائناً من كان ، ولو كان أقرب الناس إلينا ، وإن كل إنسان يخطىء ويصيب إلا المعصوم ؛ وإننا سنؤيد كل خطوة صوب الإسلام مع الوعي الكامل لدوافعها ووسائلها ، ونرفض كل ما لا يمت للإسلام بصلة بمختلف الوسائل المتاحة . . .

[ربيع الأول : ١٤٠٤هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) : ١٩٨٣م]

مفهومات بحاجة إلى مراجعة

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ (النساء : ٦٦)

إن نهوض المسلمين وتقدمهم ، وردم فجوة السقوط الحضاري التي يعانون منها ، واختصار فترة التخلف التي ما تزال تتسع بشكل رعيب ، مرهون إلى حد بعيد بإعادة فهمهم للإسلام ، وإدانة الكثير من المفهومات التي استغلقت في أذهانهم ، وأظلوها بمظلة الإسلام ، فأورثت الكثير من التواكل ، والعجز ، والقعود ، وانطفاء الفاعلية ، والنكوص عن إدراك شروط النهضة ، وفهم سنن الله في الآفاق والأنفس ، وحسن تسخيرها وكيفية التعامل معها ، وتسييرها دافعة عجلة الحضارة ، مؤدية وظيفة عمارة الأرض على الصورة التي أرادها الله : كما أورثت تمزيق الرؤية الإسلامية الشاملة ، وتقطيعها إلى أبعاض وتفاريق ، يعيشها مسلم اليوم عاجزاً عن النظرة الكلية الشاملة ، الأمر الذي أفقده التوازن النفسي ، الذي يمكّنه من وضع الأمور في نصابها وإعطائها ما تستحق من الحيِّز والمكانة في سلم الحياة الاجتماعية ، ذلك أن فقدان التوازن النفسي يقود بالتالي

إلى ما هو أخطر ، يقود إلى عملية الانكسار أمام المجتمعات والمبادىء غير الإسلامية ، وعدم القدرة على التعامل معها ، ومن ثم هدايتها ، فيكون الانسحاب من المجتمع وتكون السلبية وبعض الممارسات الخاطئة ، والانخداع بأن هذا هو الفهم السوي ، الذي لا فهم سواه ولا يعدم صاحب هذه النظرة الجزئية القاصرة عن الرؤية الشاملة العاجزة عن الإدراك الكامل ، أن يجد بعض الآيات التي يقطعها عن سياقها ، ويجردها عن أسباب نزولها ، يبرر بها موقفه ، ويسوغ سلوكه ، وقد يحدث الوجه الآخر لفقدان حالة التوازن النفسي والاجتماعي ، بسبب من النظرة الجزئية هذه ، يحدث الذوبان في المجتمع ، وإعلان العجز ، وافتقاد القدرة على التغيير ، وانطفاء الفاعلية ، والاستسلام للواقع ، باسم الواقعية ورفع شعار : «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» . . ويذهب في تفسير القدر إلى صور ما أنزل الله بها من سلطان ، صور تغتال العمل ، وتقتل الأمل ، وتعطل موازين الثواب والعقاب ، وتسوي بين المجاهد والقاعد ، فالواقع على عوجه وفجوره لا يخرج في نظره عن أن يكون قدراً من الله ، لا تجوز مواجهته وتغييره ، وأن أية محاولة في هذا السبيل تعتبر محاربة لقدر الله ، ولو أراد الله غير هذا لبدَّل الواقع !!

يرى أنه لا يخرج عن كونه ريشة في مهب الريح ، هكذا بهذه البساطة وهذا التصور المحزن ، وهذا الفهم العليل يضرب بفهم الرسول القدوة ﷺ للقرآن ، وبسنته العملية في البيان ، وبكل الإنجازات الحضارية التي قدمها المسلمون ، على مختلف الأصعدة والمستويات ، عرض الحائط ، ليصبح فهمه هو للإسلام الذي تشكل من خلال مكوناتة النفسية ، وإمكاناته العقلية ، وثقافته الجزئية ، وظروفه الاجتماعية ، هو الحجة ، وهو البينة ولو أدى ذلك إلى التعسف في تفسير الآيات وفهم الأحاديث وتطويعها لتوافق هواه . . .

ذهـــاب العلـــم ...

ونستطيع أن نؤكد مطمئنين أن فهمنا للإسلام الذي نحن عليه ، والذي نرى صوره وآثاره السلوكية هنا وهناك ـ إلا من رحم الله ـ يغاير فهم الصحابة . . . والإسلام هو الإسلام ، ولعل في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه زياد بن لبيد

ما يدل دلالة واضحة على ما نحن عليه :

أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن ماجه بإسناد صحيح ، من حديث زياد ابن لبيد قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال : «وذاك عند ذهاب العلم» قال : قلنا يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ، ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم ، إلى يوم القيامة ؟ فقال :

« ثكلتك أمك يا لبيد ، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء» . .
وفي رواية : «أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله » .

فهل انتقلت إلينا عدوى علل أهل الكتاب التي حذرنا الله من السقوط فيها والانتهاء إليها ؟!!

من هنا فإننا لا نغالي ، ولا نجافي الحقيقة ، عندما نقول : إن مشكلة المسلمين اليوم لا تخرج عن كونها مشكلة ثقافية بالمفهوم الشامل لمصطلح الثقافة ، وإن كل مظاهر الأمراض التي نراها ، وصور التخلف التي نعيشها ، لا تخرج عن كونها أعراضاً لمشكلتنا الثقافية ، وهنا يتحدد الطريق ويتوحد الحل ، وذلك بمعالجة المشكلة الثقافية وتصويب المسار الثقافي ، وتنقية عالم أفكارنا من كل دخيل وعارض ، والتخلص من المناخ الثقافي غير الإسلامي الذي يقطع رؤيتنا الإسلامية ويمزقها ، ويمارس ضغوطه المختلفة علينا فيشوه نظرتنا ، ويخرب مقياسها الذي يمكّننا من التحكم بالمعطيات الحضارية ، ويمنحنا القدرة على الأخذ والترك ، ويُعجزنا أن نكون في سوية القدرة على الرؤية القرآنية والاستجابة لها . . .

إن المناخ الثقافي غير الإسلامي ، الذي تشكل بسبب من الغزو الفكري ، والذي كان من أخطر آثاره : تدمير الرؤية الإسلامية الشاملة ، والانتهاء بنا إلى صور من الممارسات الفاقدة للبصر والبصيرة ، وحسن الدراية والفقه ، ورسم المداخل الصحيحة للواقع الذي نعيشه ، وتحديد موقعنا منه وامتلاك الوسائل المناسبة لحسن التعامل معه ، وإيصال دعوة الله إليه . . . هو الذي يتحكم في رؤيتنا الإسلامية وممارستنا العملية .

استحضار البعد الإيماني الغيبي

ونريد هنا أن ننبه إلى أمر ، نعتبر الانتباه إليه على غاية من الأهمية ، ذلك أننا لا نعني بقولنا : إن مشكلة المسلمين اليوم هي مشكلة ثقافية ، وما نعاني منه لا يخرج عن كونه مظهراً لها ، أن مشكلة المسلمين مفتقرة إلى وجود فلسفة ، أو الحصول على معرفة بقراءة كتاب معين ، أو الاطلاع على كتاب في الأحكام الفقهية ، أو حفظ بعض المصطلحات والقدرة على استعمالها بعيداً عن التربية الميدانية والتدريب على المعاني الإسلامية والمجاهدة والجهاد ، وإنما الذي نعني بالقضية الثقافية التي تشكل بمجموعها مشكلة المسلمين : استقامة النظرة ، وانضباط المنهج ، وسلامة الممارسة ، وحسن الفقه والدراية لواقع المجتمع ، والمساهمة بصياغته صياغة إسلامية ، وتقويم الأفكار المعوجة ، وتحصيل الإرادة العامة ، واستعادة الفاعلية التي ولدها الإيمان وسددتها التقوى ليصبح ذلك روح الأمة وضميرها ، وهاجسها الدائم ، وقوتها اليومي ، وعدم اقتصار ذلك على فرد أو أفرد أو جماعة في عالم المسلمين . . .

المقصود بالثقافة هنا : الممارسة الإسلامية واستحضار البعد الإيماني الغيبي في العقيدة والحركة ، والضابط الأخلاقي الموجه الصحيح لسلوك الإنسان في الممارسة ، وليس العلم بالشيء فقط والقعود عن السلوك والممارسة ، ذلك أن العلم على أهميته وضرورته لا يخرج عن أن يكون بعض جوانب القضية . . .

إن مشكلة الثقافة لا تضم في مفهومها قضية الأفكار فحسب ، وبذلك ينقلب العمل للإسلام إلى نادٍ فكري أو تجمع سياسي «أيديلوجي» أو قطاع فلسفي ، وإنما هي تشمل قضايا أعم من ذلك بكثير ، إنها تعني فيما تعني : أسلوب الحياة في مجتمع معين ، والسلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الأفراد في ذلك المجتمع ، والتدريب العملي اليومي على ذلك ، وتوازن الأبعاد في الإنسان المسلم وتوازي الخطوط للشخصية الإسلامية وعدم تقاطعها ، إنها مجموعة العناصر الجوهرية في بناء الفرد والمجتمع . . .

الثقافة هي الجو والمناخ الذي يمتص فيه الفرد تلقائياً عناصر معينة فينطبع بها سلوكه وتوجهه الفكري ، فيندفع إلى إتقان العمل وحسن الأداء ، وديمومة

البحث والتعرف على سنن الله في الآفاق لتسخيرها وحسن التعامل معها ، وسننه في الأنفس لتربيتها وتوجيهها وتغييرها صوب الهدف الإسلامي الواحد ، وقد يخطر ببال بعضهم أننا بذلك نريد مزيداً من الكتب نضيفها إلى المكتبة الإسلامية المترعة بالمفيد وغير المفيد ، أو مزيداً من القراءة والمدارسة النظرية فقط بعيداً عن الممارسة والتربية الميدانية ، أو يشتم من وراء الكلام توجهاً تربوياً أو خطأ تربوياً مقابلاً لغيره ، يأتي كرد فعل لواقع معين ، أو نريد للعمل الإسلامي أن ينقلب إلى مدرسة فكرية ، والذي يدفع إلى هذا التصور هو عدم القدرة على الرؤية الكلية والعيش على صورة جزئية يعتبرها البداية والنهاية ، ويعجز عن إدراك ما سواها مما قد يكون من مكملاتها .

والذي نريد أن يكون واضحاً ابتداءً : **أننا نحاول أن نتلمس الطريق من خلال الحقائق الإسلامية والتربية الإسلامية والرؤية الإسلامية الشاملة والتربية العملية في سنّة رسول الله ﷺ وحياة الصحابة .. إلى جانب استحضار العبرة من التجارب الإسلامية الكثيرة .**

إن هذا التمزيق وهذا التجزيء والتقطيع في الرؤية الإسلامية مرفوض ، وهو الذي يقبع وراء الكثير من معاناتنا ، **إننا لا نريد أن ينقلب العمل الإسلامي إلى مجموعة سواعد فقط يمكن أن تستخدم كوقود في معارك لا يكون للإسلام فيها نصيب ،** ويسهل خداعها بالبرق الخلبي أو بالفجر الكاذب ، ووضعها في موقف حرج يسهل توظيفها واحتواءها ، ولا نريد أيضاً أن ينقلب العمل الإسلامي إلى ساحة استرخاء فلسفي ، واجترار نظري ، ومعارف باردة ، وفقة أوراق ، وإيثار للراحة .

إعادة تشكيل الرؤية الإسلامية

إن المقياس والميزان الذي يحكم أعمالنا وأقوالنا هو ميزان الإسلام ، وليس سلوك فرد أو جماعة أو مؤسسة مهما كان عنوانها كبيراً ، ولا يمكن لأحد اليوم من القادرين على النظر والتبصر ، الناظرين إلى مواقع العمل والجهاد في العالم الإسلامي ، وبعض صور التضحية الرائعة التي تقدم النفس والمال ، وتستسهل في سبيل الله كل شيء ، وتستهين بالدنيا والتي يمكن أن تنتسب في إخلاصها

وتضحيتها إلى عصر الصحابة والتابعين ، لا يمكن لأحد أن يتهمها بعدم الإخلاص بعد هذا الذي قدمته ، وإنما تبقى المشكلة كل المشكلة بالقدرة على الصواب والتصويب وتحقيق الشروط الفنية ، وحسن الاستفادة من هذه الطاقات ووضعها في مكانها الذي هو مسؤولية القائمين على العمل الإسلامي ، للأخذ بيد المخلصين في الطريق الصحيحة ، وترجمة هذا الإخلاص إلى مردود إسلامي يكون في مصلحة الإسلام والمسلمين .

وهنا نرى أنفسنا مضطرين إلى العودة أكثر من مرة إلى إيضاح مظهر من مظاهر القضية الثقافية نعاني منه على أكثر من مستوى ، ونظن أنه يأتي في مقدمة المشكلات التي تجب معالجتها ومطاردتها ، ونحن في الطريق إلى صياغة الفرد المسلم ، وإعادة تشكيل الرؤية الإسلامية الشاملة .

إن الهروب من بحث المشكلة والتستر عليها ، أو عدم إعطائها ما تستحق من المدراسة والدرس ، والإيضاح والتدريب والأضواء الإضافية ، يعني أول ما يعني : القبول بواقع المسلمين ، ومواقع نشر الدعوة والعمل الإسلامي ؛ وهذه تتلخص في السؤال التالي :

هل الانتماء للإسلام أم للجماعات والمؤسسات ؟ وهل الالتزام بالأفكار أم بالأشخاص ؟ . . .

إن هذه القضية لا تعتبر مشكلة من الناحية النظرية ، ولو كان ذلك كذلك لكان بالإمكان الحصول على الجواب الصحيح بسهولة ، لكنها تبقى مشكلة على مستوى الممارسة والتطبيق ، وكثيراً ما استهلك المسلمون من أوقاتهم وجهودهم تاريخياً ، ولم تكن المشكلة التي يعانون منها مشكلة أفكار وإنما كانت مشكلة الاختلاف على أشخاص وظفت لها الأفكار وفصلت عليها الأحكام ، وامتلأت الساحة الإسلامية بكثير من الإقطاعات البشرية والولاءات الشخصية كانت السبب الكبير في التدمير والقيل والقال وضياع العمر وذهاب الأجر .

الرشـــد الإنســـاني

ولا شك عندنا أن الانتماء للإسلام ، والالتزام بالمنهج ، والطاعة المبصرة ، ضرورة لسلامة الطريق ، ودليل الرشد الإنساني والحصانة الأكيدة ضد صور

الإحباط والانكسار التي يمكن أن تلحق بالجيل نتيجة الانتهاء للأشخاص ، والعدول عن الانتهاء للإسلام ، وأن المطلوب إسلامياً الالتقاء مع الأشخاص على المنهج الصحيح والافتراق عليه (. . . ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك وافترقا عليه) ؛ فالقيم الإسلامية ثابتة معصومة ، والأشخاص أعراض زائلون ، والأحياء لا تؤمن عليهم الفتنة ، وإن ميزان الكرامة : التقوى والعمل الصالح ، وإن الذي يهمنا ويشكل المخرج الصحيح من مأساتنا هو : الحكم على العمل ومدى انطباقه على المنهج الإسلامي والقدرة على تمييز الخطأ والصواب ، وإعطاء العلامة للأعمال وليس للأشخاص ، والالتزام بالأدب الإسلامي عند وجود الخلاف . .

فالأشخاص يقاسون بالمنهج الإسلامي والقيم الإسلامية ، ولا يقاس الإسلام بهم مهما علا شأنهم ، والذي يمثل محل الأسوة والقدوة بالنسبة للمسلم هو المعصوم عليه الصلاة والسلام . . .

وكل البشر يخطىء ويصيب ، ويؤخذ من كلامه ويرد إلاّ المعصوم ﷺ ، وهذا في نظرنا يشكل الضمانة الأكيدة لسلامة العمل واستمراره وسداده . . . ذلك أن المشكلة في التصور الإسلامي الآن ، كما يبدو ، أننا قد نصل في تقديس الأشخاص إلى مرحلة العصمة عن الخطأ ـ إلى مرحلة الملائكة ـ فإذا تكشف لنا شيء من الخطأ ـ وهذا أمر طبيعي وكل ابن آدم خطّاء ـ أنزلناهم فوراً إلى مرحلة الشياطين . . لذلك يقتصر التعامل في نظرنا إما مع ملائكة لا تخطىء أو مع شياطين جبلت على الخطأ والخطيئة !! أما التعامل مع البشر الذي يخطىء ويصيب ، والقدرة على إبصار الصواب والخطأ وإعطاء كل أمر علامته ، وعدم بخس الناس أشياءهم ، فهذا لا يزال غائباً عن حياة بعض مسلمي اليوم . . والله تعالى يقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وبعضنا يظن أن التطفيف إنما يكون في الميزان والكيل فقط . . .

إن القيم معصومة وثابتة ، كما قدمنا ، والأشخاص أعراض زائلون وبشر خطاؤون ، وقد تسقطهم أخطاؤهم ، وقد يسقطهم أعداء الإسلام بوسائلهم الماكرة التي تتوجه أول ما تتوجه للدعاة لتحطيمهم ، وذلك بإساءة سمعتهم ، وقد تستطيع احتواء بعضهم وتوظيفه لسبب أو لآخر من رغبة أو رهبة ، وقد يسقطون من تلقاء أنفسهم لأن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء ، ولا سبيل

إلى الحصانة ضد صور الانكسار والإحباط والتمزق إلا الالتزام بالقيم ، والاعتصام بالكتاب والسنة ، فهو الطريق الذي يبعث الأمل ، ويدفع إلى العمل ، ويقضي على اليأس والقنوط .

إن الالتقاء مع الأفراد والجماعات والمؤسسات والحكومات وسيلة وليس غاية بحد ذاته ، الغاية تبقى دائمًا : إرضاء الله ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب الوسائل غايات أو تتلبس الوسائل بالغايات . . فيصبح شعارنا : خطأ الشيخ خير من صواب المريد !! كما قدمنا ، وتسود مناخنا الثقافي الإسلامي مفهومات مغلوطة . . وتتوقف عملية المناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي صانت الرسالة الإسلامية والأمة الإسلامية في تاريخها الطويل من الانحراف ، وحملتها على الولاء للمنهج وعدم التحريف والشذوذ الجماعي والعثرات المردية على طريقها الطويل ، وحفظت القادة والزعماء والدعاة والمفكرين والعلماء من الافتتان بالرأي ، والإعجاب بالنفس ، والانزلاق بالخطأ ، كما حفظت الأمة أن تقع فريسة لشذوذ أو تطرف أو غلو أو تعثر أو تمزق .

أهميــة الرقــابة العامــة

هذا وقد تختلط قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمناصحة في بعض الأذهان اختلاطاً يكون من تلبيسات الشيطان ، فتوهم أنها تتعارض مع مصلحة الإسلام أو جماعات المسلمين في عصر من العصور . . فيسود الإرهاب الفكري ويضمن الشيطان استمرار الانحراف ومتابعة الانزلاق .

ولو أخذ المسلمون في اعتبارهم في الماضي أن حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تؤدي إلى إحداث تشويش أو اضطراب في الصفوف ، وكفوا عن التنبيه عن الزلل والخطأ باسم وحدة الصف أو وحدة الأمة ، لا نقطع المؤشر الحيوي ، وهذا الضابط اللازم لكشف التيارات البعيدة عن هذا الدين باسم الدين ، واختفاء كثير من الحقائق الإسلامية عن ساحة التصور الإسلامي السليم والثقافة الإسلامية الرشيدة . . .

إن التستر على الأخطاء باسم المصلحة العامة وحفظ الكيان ، والتوهم بأن النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تؤدي إلى البلبلة والتمزق أمر خطير ، ومفسدة فظيعة تدفع الأمة ثمنها الدماء ، وتكون محلاً لِلَّعْنِ الذي قصَّهُ الله على لسان الأنبياء لبني إسرائيل .. قال تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة : ٧٨) .

لذلك يبقى تصويب الخطوة وصوابها هو الأصل في نظرنا ، وذلك مهما كانت مساحتها محدودة ، وسيرها بطيئاً ، المهم أن نكون على المحجة البيضاء النقية ، ونستفرغ جهدنا في الإعداد والاستعداد ، والبذل والعطاء ، مستشعرين الأبعاد الإيمانية والأخلاقية لحركتنا وسيرنا وسلوكنا ، أمناء على انتقال القيم الإسلامية صافية سليمة للجيل القادم ، فقد يستبطىء بعضنا ثمرات الصواب ويقتضيه الاستعجال السير بخطوات عريضة ، وقد يتجاوز بعض الحواجز الإسلامية ، ويتساهل ببعض الضوابط الأخلاقية الإيمانية متعللاً بوفرة النتائج وتحقيق المصلحة ودرء المفسدة وارتكاب أخف الضررين ، ويظن في بعض المراحل أنه قادر على ذلك فيدع المركب السهل المشروع إلى المركب الصعب غير المأمون . . .

وبعد : فهل نصغي من جديد إلى قول الرسول ﷺ :

« الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . .

وقد يكون المطلوب الآن وأكثر من أي وقت مضى : العودة إلى تجديد الفهم للإسلام ، واستبدال الممارسة للحياة الإسلامية . .

[ربيع الآخر : ١٤٠٣هـ ـ كانون الثاني (يناير) : ١٩٨٣م]

الهجـرة ..
وحركة الانسحاب من المجتمع

(... ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [حديث شريف]

يمكن أن تكون قضية الهجرة التي تعني بأبسط مدلولاتها الانتقال من مكان إلى مكان ، أو هجر مكان إلى آخر لأكثر من سبب ، قديمة قدم الإنسان على الأرض ، وملازمة لحركة الحياة والأحياء على الرغم من قساوة الظروف ووعورة المسالك وعدم توفر الوسائل ، وما يمكن أن يعاني المهاجر من ترك مألوفه ومعروفه ، لأن الإنسان مدفوع بتحقيق هدفه والبحث عن وسائل سعادته وتأمين مصيره ، ودوافع الهجرة كثيرة وكثيرة جداً ، لكن تشرف التحركات بشرف الغايات وشرعية الوسائل ، لذلك تأتي الهجرة إلى الله ، من عزائم الأمور ، سواءً أكانت هجرة نفسية ، وذلك بالانخلاع من كل العادات والعبادات والتصورات غير الإسلامية ، أم كانت هجرة عملية حركية بالانتقال من موقع تبين أنه عقيم في مجال العطاء الإسلامي ، إلى موقع أكثر خصباً ونماءاً أو كانت ابتداءً في الخروج لنشر الدعوة واستنقاذ البشرية من شقوتها بإبلاغها دعوة الله والتمكين لدينه في مواقع أخرى ؛ تحقيقاً لمسؤولية المسلم في عملية البلاغ

المبين ، وثمرة لعالمية الدعوة .: قال تعالى :

﴿ وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُـونَ ﴾ (الأنعام : ٢) .

الرؤية الإسلامية لقضية الهجرة

والقضية التي نريد لها أن تكون واضحة ابتداءً : أن الهجرة تعني أول ما تعني معرفة الحق ، ومن ثم الارتحال إليه ، والالتزام به والثبات عليه ، وهي طريق الرسل والذين يسيرون على دربهم ، وثمرة الإيمان الطبيعية ، التي تقتضي التحرك به ، وموقع من مواقع الصراع الدائب بين المؤمنين بقيادة الرسل والكافرين بمناهجهم التي يقف على رأس كل منها شيطان ، ونسارع هنا إلى التأكيد : **بأن الهجرة في الإسلام حركة إيجابية جهادية تمثل قمة الفاعلية والحركة على أرض المعركة الدائرة بين الإسلام الذي موطنه الدنيا كلها والكفر** ، ولا تندّ عن ذلك الهجرة للقيام بتكاليف البلاغ المبين كمسؤولية منوطة بالمسلم كما قدمنا ، وليست الهجرة بالمفهوم الإسلامي حركة سلبية انسحابية من المعركة هروبية من الموقع ، يؤثر صاحبها السلامة ويختار طريق الدنيا ، فإن حصل ذلك لفترة ضعف ، أو سقوط همة أو عجز رؤية ، أو غلبة دنيا ، فهجرته إلى ما هاجر إليه وليست الهجرة الإسلامية ، فالمهاجر في نظر الإسلام لا يزال في ساحة المعركة ، وليس خارجاً منها ، ذلك أن المعركة قد تبلغ مرحلة معينة تقل معها الفاعلية على هذا الثغر أو تكاد تنعدم ، فلا بد والحالة هذه من اختيار موقع آخر فاعل أو أكثر فاعلية ، لا بد من وجود الرؤية والقدرة على التحرف لقتال ، أو التحيز إلى فئة ، إنه تغيير الموقع وليس الانسحاب من المعركة على كل حال ، وليست تولية الدبر ، والتولي عن المواجهة المُوقِع في غضب الله . قال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَـارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَـةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال : ١٦ ـ ١٧) .

وليس هذا وحسب ، وإنما قد تنتهي المعركة إلى مصلحة الإسلام والمسلمين ؛

فلا يعني ذلك الانكفاء والأنانية والاسترخاء ، وعدم التطلع إلى مواقع أخرى لَمَّا تحرر بعد ، ولما تصل إليها دعوة الله بعد ، والمسلم مسؤول عنها ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ فلا بد من الانتقال والهجرة إليها وحمل دين الله إلى الإنسانية الحائرة ، ولعلنا نلمح ذلك في سبب نزول قوله تعالى :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(البقرة : ١٩٥) ذلك أن الله اعتبر القعود عن نشر الدعوة والهجرة إلى ذلك رغم الانتصار في الموقع الحالي مُوقِع في التهلكة . أخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سراً ، إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعزَّ الإسلام فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها . . . فأنزل الله يرد علينا ما قلنا . . . فكانت التهلكة : الإقامة على الأموال وترك الجهاد .

وفي رواية أخرى : قال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس : ألقىٰ بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية . إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره ؛ حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال ، والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما ؛ فنزل فينا : ﴿ ... وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة وترك الجهاد [رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم] .

والهجرة في المفهوم الإسلامي جهاد ، وقد تكون من أعلى أنواع الجهاد . قال تعالى بشأن الذين تقاعسوا عن الهجرة إلى المدينة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٤) .

وهذه الآية إنما نزلت فيمن آثر القعود وانشدَّ إليه عن الهجرة والجهاد .

ويمكننا أن نقول باطمئنان بأنه لولا الهجرات الإسلامية في القديم والحديث لما استقر الإسلام في كثير من بلدان العالم ووصل إليها ، ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن بعض بلاد أفريقيا فتحت أكثر من مرة ، ولم يستقر الإسلام فيها إلاّ بالهجرة إليها والاستيطان هناك .

المســلم وعقــدة الاغتراب

الأصل أن المسلم لا يعاني من عقدة الاغتراب ، ولا يصاب بأمراض وعلل الاغتراب ، من الضياع والذوبان والسقوط الحضاري والكثير من الآثار السلبية الأخرىٰ التي تسببها الهجرات ، ذلك أنه يعتقد أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وأن الدنيا كلها وطن له ومحل لدعوته ، وأن وجود الناس أياً كانوا مجاله ، وأن هاجسه الدائم استنقاذهم مما هم فيه وتحقيق سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، فهو كالقمر الذي لا ينطفىء ضوؤه ، فإذا غرب من مكان ظهر في مكان آخر فيكون النور ، وكالماء إذا حبس في مكان تفجَّر في مكان آخر فيكون الزرع ويكون العطاء . وهذا لا يتعارض مع قضية حب الوطن والعمل على حمايته وتنميته ، ولا شك بأن مكة كانت أحب بلاد الله إلى الرسول ﷺ ولولا أن قومها أخرجوه منها ما خرج قال تعالى : ﴿ ... وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠) ، والجهاد إذا احتل الوطن أو هدد بالاحتلال يصبح فرض عين على الجميع . قال تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ... ﴾ (التوبة : ٤١) لكن مع ذلك فالوطن هو القاعدة الأرضية للعقيدة ، وقد يصبح بلا معنى إذا حرم المسلم فيه من عقيدته التي هي من أولى حاجاته وأهم حقوقه في المواطنة ، فنصل إلى الحالة الصعبة التي تعاني منها بعض مجتمعات اليوم : وط بلا مواطنين ومواطنون بلا وطن . .

ولا بد هنا من التفريق ـ بين أمرين ـ بين عقدة الاغتراب كحالة غير سوي لأنها تؤدي إلى السقوط والذوبان وضياع الهوية ، وبين الحس بالاغتراب ، ذ أن الحس بالغربة حافز للتغيير ، وهاجس لصنع الحضارة ، وقلق سوي لا يؤد

إلى الانسحاب والهروب والرفض ، وإنما يدفع إلى الفاعلية وتلمس وسائل التغيير المشروعة والمجدية ؛ لأنه لو لم يشعر الإنسان بهذا التناقض بين القيم التي يؤمن بها والواقع الذي يعيشه ، إذا لم يشعر بالتحدي فأنَّىٰ له اكتشاف الأسباب واستكناه السنن ومحاولة التغيير التي تبدأ بنفسه وتنتهي بمجتمعه .

الهجــــرة مـن دار الإســـلام

دار الإسلام ودار الحرب أو دار الكفر قضية اصطلحها الفقهاء المسلمين لتقرير بعض الأحكام وللتمييز بين موطنين : موطن تسود فيه شريعة الإسلام ، وتنفذ أحكامه وتحد حدوده وترفع شعائره وتعتمد تربيته ، تسود فيه قيم العدل في القضاء ، والشـورىٰ في الحكم ، والحرية في المعتقد ، والإحسان في التعامل . . مجتمع خلص الناس فيه من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . **أما دار الحرب فهي كل وطن لا تسوده شريعة الله ولا تنفذ فيه أحكامه أو هو بكلمة مختصرة نقيض دار الإسلام .**

وقد حذَّر الفقهاء ـ من باب سد الذرائع ـ ولأسباب رأوها في زمانهم من **الهجرة إلى دار الحرب أو دار الكفر** ؛ لما يمكن أن يقع فيه المسلم من الفتنة في دينه والظلم في دنياه ، وأفردوا لذلك أحكاماً معروفة في مكانها من الكتب ، وقد يكون المطلوب الآن أكثر من أي وقت مضى إعادة النظر في جميع هذه الأحكام ، المبنية على النظر والاجتهاد ، والأحوال والمشاهدات القائمة وقتها ، وذلك لعدة أسباب لسنا الآن بسبيل استقصائها وإنما الذي يهمنا لفت النظر إليها .

إن دار الحرب أو دار الكفر إنما تتحدد خارطتها على ضوء وجود دار الإسلام ووضوح حدودها ، ونحن الآن لا نجرؤ على نفي الإسلام عن بلاد العالم الإسلامي كما يحلو لبعضهم ، ولكننا لا نستطيع أيضاً أن نقول بأنها دار الإسلام المستكملة للشروط التي وضعها الفقهاء ، إنها ليست دار الإسلام بكل معنى الكلمة . . لكنها ليست دار كفر وحرب وجاهلية كما يحب بعض من يدعو للإسلام أن يتعامل معها أو يصورها . . إنها ليست دار الإسلام بشروطها وإنما هي ديار المسلمين على كل حال التي أصابها ما أصابها تاريخياً .

إن هذه الأحكام التي قررها الفقهاء قد تكون إلى حد بعيد مرتبطة بجو الحرية الذي من المفروض أن يتوفر في دار الإسلام وينعدم في دار الحرب والكفر ، وقدرة المسلم على ممارسة الشعائر الإسلامية ونشر الدعوة والتحصن ضد الفتنة ، وفي اعتقادنا أن الأمر قد تغير الآن كما أسلفنا ، إن كثيراً من البلاد التي لا يمكن أن توصف بأنها إسلامية يجد فيها الإنسان نوعاً من الحرية والأمن قد يفتقده في موطنه ، ويستطيع أن يمارس فيه إسلامه على شكل قد لا يتوفر له في بلده ، لقد تغيرت الصورة وتغير الواقع ، وانتشرت المراكز والجمعيات الإسلامية في العالم كله والتي نرجو الله لها أن تؤدي رسالتها على الوجه المطلوب ، فلا بد والحالة هذه من إعادة النظر في هذه الأحكام الفقهية المبنية على الاجتهاد .
والرسول ﷺ قال لأصحابه :

« اخرجوا إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم الناس عنده » .

لقد سمح بالهجرة وأمر بالخروج من مكة إلى الحبشة لما اشتد الظلم ، وليست الحبشة دار الإسلام وإنما العدل وعدم الظلم متحقق فيها .

مفهومـــات مغلوطـــة

وقضية أخرى : فإذا كان ذلك كما أسلفنا فإن المصطلح أصلاً يصبح محل نظر ، ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا استبدلنا أمة الإسلام بدار الإسلام . . وأمة الدعوة بدار الحرب أو الكفر ، فقد يكون ذلك أكثر دقة وأقرب إلى الصواب .

فالناس قسمان : قسم أسلم ، وقسم آخر لا يزال محلاً لدعوة الإسلام . . وقد تنبه لهذا الرازي رحمه الله في وقت مبكر فسمى المؤمنين أمّة الاتّباع ، وغير المؤمنين بأمة الدعـوة .

وهنا لا بد من إثارة جانب آخر في موضوع دار الإسلام ودار الحرب غير قضية جواز الهجرة وعدم جوازها ، وهو لا يقل عنه أهمية : وهو أن بعض مسلمي اليوم يخلو لنفسه وتصوراته الخاصة الناشئة من النظر في بعض الجزئيات بعيداً عن الواقع ويرسم الخارطة العقيدية لدار الكفر ودار الإسلام ، ويعتمد مقدمات خاطئة أو يضع معادلات يخرج بنتيجتها إلى أن بلاد المسلمين الآن لا تعتبر دار إسلام بشروطها المعروفة ، وهذا يعني عنده أن له الحق أن يمارس فيها أنماطاً من

السلوك وأنواعاً من المعاملات هي محل نظر من الناحية الشرعية ، وقد تتطور الأمور عنده أكثر فأكثر فيحقد على المجتمع ويعلن الحرب عليه ـ لأنه غير إسلامي ـ وبذلك يلغي نفسه ويعطل رسالته وينهك أمته ويسقط عاجزاً عن التعامل مع مجتمعه وحمل الهداية له والخير ، ويفوته أن الرسول القدوة ﷺ كان يطلق عليه في المجتمع غير الإسلامي قبل البعثة (الأمين) وأنه بعد البعثة عندما اضطر للهجرة إلى المدينة المنورة وقد ائتمر به المشركون استخلف علياً يؤدي الأمانات إلى أهلها على الرغم من أن ذلك كان خطراً على حياته فأين نحن اليوم من المنهج الإسلامي السليم ؟

حضـــارة الهـــداية والأمـــن

لقد كانت قولة الأنبياء جميعاً على طريق الدعوة إلى الله : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّه ﴾ وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة يعيش منها ، لذلك فمن المعالم الأساسية على طريق النبوة أن الحضارة الإسلامية حضارة هداية وليست وسيلة جباية . . ومن هنا فإن عملية الاحتراف بالإسلام والأكل به وقبض ثمن الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي من أخطر التحديات التي تهدد الكيان الإسلامي وتواجه عالم المسلمين اليوم ، والفرق بعيد بعيد بين الذين يدفعون ثمن عقيدتهم ، وتكون حركتهم محكومة بقولة الأنبياء ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾وعمل الأنبياء ، ويكون نشاطهم كله في سبيل الله ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبين الذين يحاولون قبض ثمن الدعوة سواءً أكان ذلك من داخل العمل أم من خارجه ، فالهجرة الإسلامية إنما هي هجرة هداية وليست هجرة جباية فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . لقد انسلك مع المهاجرين وسار معهم وفي طريقهم . . لكن هجرته كانت للجباية . . لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها .

إن حضارة الأمن والهداية للناس لا يمكن أن تأتي بالأماني والأحلام والادعاء ، وإنما هي جهد ومعاناة وتضحية ابتغاء وجه الله وعدم استعجال وارتجال .

قال خبَّـاب بن الأرت رضي الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال :

« **قد كان من قبلكم ، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشـار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** » .

إنها حضارة الأمن والهداية ، وليست جاهلية الإرهاب الفكري ، والجباية والحقد ، إن إتمام الأمر إنما يكون بتحصيل الأمن للناس وهو أول شروط الحضارة والعطاء ، وهذا يذكرنا أيضاً بقولة الرسول ﷺ بعد عودته من الهجرة إلى الطائف وبعد أن كان الذي كان من العذاب وبعد أن عرض عليه ملك الجبال إيقاع العقوبة بالناس : « **عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً** » .

هجـرة العقـــول والسواعـــد

العقول النابغة والسواعد القوية هي أشبه ما تكون بالمناجم والمواد الخام المركوزة بالدول المتخلفة التي تعيش عصر ما بعد الاستعمار ، والتي تتطلع إليها كثير من دول العالم لاحتيازها وتحويلها إلى دم جديد يدفق في جسم الحضارة الاستعمارية التي تسيطر عليها عقدة التفوق والتعالي ؛ وبذلك يبقى الانهدام كبيراً ودائماً بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة ، ويستمر امتصاص العقول والخبرات كما تستمر عملية التحكم والاحتواء . ذلك أن الدول المتخلفة يُراد لها أن تبقى عاجزة عن الاستفادة من هذه العقول ، تماماً كعجزها عن الاستفادة من الخامات الموجودة في أرضها أو أشد عجزاً ، ويأتي التحكم في العالم الإسلامي وامتصاص عقله وخبراته وخاماته في الطليعة ، فالقضية جزء من عملية الصراع الحضاري والخوف التاريخي من يقظة العالم الإسلامي .

والسبب الذي يؤدي إلى الهجرة واضح ، فالدول الكبرى الاستعمارية هي القادرة على الاستفادة من هذه العقول وإغرائها بالهجرة إليها بتقديم المال من

جانب ، وتدعيم أجواء القمع والإرهاب التي لا تسمح بطبيعة الحال باستيطان هذه العقول من جانب آخر ، وإذا تغلبت هذه العقول على الإغراءات والظروف وحيل بينها وبين الهجرة لسبب أو لآخر فإنها تمارس نوعاً آخر من الهجرة وهي هنا ليست الهجرة إلى خارج الوطن ، وإنما هي الهجرة في الوطن نفسه ، ذلك أن أجواء القمع والقلق والإرهاب الفكري تصيب ملكات الإنسان بالعطالة الكاملة ، فتجعل من العالم والباحث والمفكر إنساناً عادياً يمارس طعامه وشرابه وشهواته كأي مخلوق آخر ، وقد يستنفد طاقته ليحصل على ذلك .

فكيف لنا والحالة هذه أن نطلب الإبداع والنبوغ والتقدم للمجتمعات المهاجرة ؟!

وفي الحقيقـة أن معظم الذين عرضوا لقضية هجرة العقول والخبرات إلى الدول المتقدمة تناولوا بمعالجاتهم الأعراض والمظاهر ، ولم يتناولوا الأسباب الحقيقية للظاهرة ؛ لأن تناول الأسباب بجرأة وصدق قد يجعل منهم مهاجرين .

والأمر القديم الجديد الذي يلفت النظر أن الأجـواء الرعيبة التي دفعت هذه العقول إلى الهجرة تحاول الامتداد والمطاردة والملاحقـة حتى في بلدان المهجر ؛ لأن وجود المهاجر مهما كانت الظروف يبقى شاهد إدانـة دائم على الأسباب التي اضطرته للخروج ؛ فلقد أرسلت قريش في إثر المسلمين المستضعفين إلى الحبشة تغري بهم ملكها ليسلمهم إليها لأنهم آبقون ، ونسيت أن الذي دفعهم إلى الهجرة الظلم ، وأن الرسول ﷺ قال لهم : « **إن في الحبشة ملكاً لا يُظلم الناس عنده** » . .

والمسلم اليوم أمام هذا المفترق من الطرق وأولى به أن يختار المركب الصعب فيبقى في بلده طالما أمكنه البقاء إذا تبين له أن إمكاناته وطاقاته ستوظف بهجرته إلى أعداء دينه وعقيدته ، وإن كان لا مناص من الهجرة لسبب خارج عن إرادته فليبصر أين يضع قدمه ؟ وكيف يفيد من ثغره الجديد ؟

[المحـرم ١٤٠٤هـ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٣م]

مواقف في مواجهة الهزيمة

﴿ وَلَاتَهِنُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَنْتُم الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
(آل عمران : ١٣٩)

في فترات التخلف والوهن يغيب الوعي الصحيح ، وتنطفىء الفاعلية ، وتتوقف القدرة على استيعاب الظروف وحسن التعامل معها ، وتختلط الأمنيات بالإمكانات ، وتتراجع المبادىء ويتقدم الأشخاص ، وتنقلب الأمة إلى مجموعة من الإقطاعات البشرية الحزبية أو الطائفية تختفي معها الوحدة الجامعة . . . وتهتز المشروعية العليا والأهداف الكبرى التي يجب أن تلتزم بها الأمة وتعمل لها ، ويصبح الماضي بالنسبة لكثير من الأفراد والجماعات هو المستقبل الذي يعيشون عليه ويقتاتون به ، كما يصبح التاريخ الذي يجب أن تُستلهم حقائقه وتُستقرأ حوادثه لتحقيق الاعتبار وإغناء التصور بالرؤية الضرورية التي تمكن من الإبصار والحكم على الأشياء المستجدة في ضوء السنن التي تحكم الحياة والأحياء ، والتي تملأ شواهدها صفحات التاريخ كأدلة عملية على نفاذ هذه السنن في مسيرة الحياة ، يصبح التاريخ مهرباً ومخدراً بدل أن يكون دليلًا ومرشداً . . . وتدخل الأمة « مرحلة القصعة » وتتداعى عليها الأمم ، وينقلب النظر إلى السيرة النبوية التي هي مجال للاقتداء والتأسي في السلم والحرب ، والنصر والهزيمة ، إلى ضرب من التغني

والطرب والابتداع في المواسم والمناسبات (ذكرى المولد ـ الهجرة ـ الإسراء والمعراج . . .) وتبدأ سلسلة من الهزائم النفسية والعملية على مختلف الأصعدة . . .

ولا بد من الاعتراف ابتداء بأن الهزائم في هذه الفترات قد تكون لازمة من لوازم إعادة بناء الأمم للقضاء على ما يلحق بها من صور الرخاوة ومظاهر الترف والسرف والرفاهية والفسق ، وللتمرس على الظروف القاسية ، والتدرب على الصبر والمعاناة ، وإلغاء الصور الهشة للوصول إلى القاعدة الاجتماعية الصلبة ؛ وقد تكون الهزيمة أكثر لزوماً عندما تسود الأمة الأمراض الاجتماعية ، ويحكمها الاستبداد السياسي ، ويشتد فيها الظلم ويختفي العدل ، وتغيب المساواة ، ويفسق المترفون ، ويكثر الخبث فتأتي الهزيمة لتكون العقوبة الموجعة التي تنفذ بأسلحة الأعداء ، إنها عقوبة مستحقة من الله ، وتسليط للأعداء يقع على الأمة علّها تستيقظ وتتنبه لمعالجة عللها ، فيكون التمحيص وتكون التنشئة على الظروف القاسية ، كما قدمنا ، فتتبلور من خلال ذلك كله القيادة المبصرة القادرة على الاعتبار وتصويب المسار . . .

ولا شك أننا بهذا لا نتمنى لقاء العدو ومباركة الهزائم المتكررة في عالم المسلمين ، وإنما نقصد إلى شحذ الهمم باتجاه استيعاب دروس الهزيمة وتحويلها من حالة سلبية تؤدي إلى التبعثر والضياع واختلاط الجهات واختلال التوازن الاجتماعي إلى ضرب من الإيجابية يجدد شباب الأمة ويقضي على الجوانب الشائخة ، ويحقق الاعتبار ويوصل إلى التحديد الدقيق للأسباب سواء في ذلك عوامل الإعداد والاستعداد المادي أو الشروط المعنوية اللازمة للنصر والحصانة النفسية التي تحول دون السقوط والإحباط والانكسار . . . وكثيرون أولئك الذين كانت الهزيمة وكان الابتلاء نعمة بالنسبة لهم صححت مسارهم ، وصوَّبت اتجاههم قبل فوات الأوان ، وكانت مرحلة لتوبة الفكر والسلوك . . .

ومن الأمور التي يجب أن تكون واضحة في تصور المسلم أن ساحة المحنة والابتلاء والتمحيص لا تقتصر على الهزيمة دون النصر ، بل لعل محنة النصر إنما تكون أشد وأعتى وأطغى إذا لم تترافق مع الوضوح الكامل لغاية الإنسان في هذه الحياة . . . ويمكن إلى حد بعيد في هذه القضية أن نقول : إن معظم

المسلمين اليوم تغلب عليهم النظرة النصفية فيعتقدون أن الابتلاء إنما يكون في الضراء والسلبيات وتسلط الأعداء ، حتى كاد هذا يطبعهم بثقافة غالبة ويصبح مناخاً شاملاً (ثقافة المحن وتسلط الأعداء) يفكرون ويعدون المواجهات لمحن الضـرَّاء والمطاردات السلبية ويجتمعون عليها وكأن السـرَّاء ليست بمحنة ، والله تعالى يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك : ٢) ، ويقول : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَـةً ﴾ (الأنبياء : ٣٥) .

والرسول ﷺ يقول : « عجباً لأمر المؤمن ، كل أمره له خير ، إن أصابته سـرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضـرَّاء صبر فكان خيراً له » .

فالإصابة حاصلة في الخير والشر وكثيرون أولئك الذين يسقطون في محنة الخير عند الصدمة الأولى ، فلا معنى لاعتبار المحن محصورة في إطار الشر والهزيمة فقط ، لذلك نرى أنه لا بد من نقل المواجهة الإسلامية والتربية الإسلامية لكامل ساحة الابتلاء في الهزيمة والنصر على حد سواء ، وإعداد الأوعية الشرعية لهذه المواجهة في الخير والشر أيضاً ، وإن كانت مساحة المحنة بالهزيمة أكبر وأبعد مدىً إلى درجة غابت معها مساحة المحنة بالنصر أو كادت تغيب عن حياة كثير من المسلمين في هذه السنوات العجاف .

ولعل الواقع الذي نعاني منه هو الذي يحملنا دائماً على الكلام عن الهزائم لأنها أصبحت وكأنها ضربة لازب على جيلنا ، ولأننا لا نزال نعتبر السـرَّاء ساحة بعيدة عن الامتحان ، وقد تكون الإصابات فيها أكبر والفواجع أخطر ، ويمكن أن نعتبر أن من أوائل الشروط لاستيعاب الهزيمة والاستفادة من درسها ومحاصرتها وعدم السماح بتكرارها ـ ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ونحن ما نزال نلدغ مراراً ـ الاعتراف بالهزيمة بجرأة ، وتحديد أبعادها ، ودراسة أسبابها وتحديد المسؤولية عنها ، ومحاصرة آثارها . . . ذلك أن عدم الاعتراف بالهزيمة ، وقراءتها بأبجديات خاطئة ، كما هو حاصل ، وسيادة فلسفات خاصة تجعل من الهزائم انتصارات لها بطولاتها وأبطالها ، وممارسة التضليل الإعلامي إنما هو لون من تكريس الهزيمة والسماح باستمرارها ، ومساهمة سلبية في تحقيق أغراض العدو ، وما أظن أن أحداً في تاريخنا الحديث على الأقل اعترف بهزيمته في الوقت المناسب لمعالجتها ، وإنما

نعترف بها بعد أن تتبدل الظروف ويفوت الأوان وتدخل في حيِّز التاريخ . . . وإن اعترفنا ببعضها فيما بعد فإننا نُحَمِّلُ أسبابها جميعاً للأعداء ومكائدهم وقدراتهم ، أما نحن فإننا دائمًا على أعلى قدر من الكفاية والمقدرة !!

والأمر المعروف أن القيادات التي تفشل في معاركها إما أن تعتزل وتعتذر وتتحمل التبعة ، ولا تُحَمِّلها العدو ، صوناً للواقع النفسي للأمة من الانكسار ، وإما أن تعجز عن المواجهة فتنتحر إذا كانت غير مسلمة لتبدأ عملية المراجعة وتحديد المسؤولية عن الهزيمة وتقييم الصور السابقة . . .

أما في عالمنا العربي والإسلامي ، فنحن دائمًا منتصرون ، دائمًا نرفع شارات النصر ونقدس أبطاله إلى درجة نحجر معها على فضل الله تعالى بأن لا أبطال سوى هؤلاء ولا يمكن للزمن أن يجود بمثلهم . . .

والحقيقة أن الخيبة التي نعيشها اليوم دليل على وجود خَلل في بنائنا العقيدي والفكري ، وجنوح عن طريق الوحي الذي رسمه لنا ، وعقوق لدروس وعبر السيرة النبوية الخالدة التي تشكل المنجم الثر والصورة العملية التطبيقية للحياة الإسلامية . . . لقد حفلت السيرة بدروس النصر كما تضمنت دروس الهزيمة ، والسيرة مجال للاقتداء والتأسي ليس في النصر فقط وإنما في معالجة الهزيمة أيضاً ، ولعل الحاجة للاقتداء في الظروف القاسية واستلهام كيفية المعالجة تكون أكثر إلحاحاً . . . وسوف نعرض هنا لبعض الملامح من السيرة النبوية لحالات الهزيمة علّها تذكر بأبعاد ضرورية للتأسي والاقتداء وتصويب المسار بعد أن كثرت الهزائم وقلّ الاعتبار . . .

السنن الجارية .. والسنن الخارقة

من الحقائق الأولى لهذا الدين أنه يتعامل مع الإنسان بكل مكوناته الفطرية والنفسية ومدىٰ قدرته واستطاعته على التعامل مع السنن الجارية التي شرعها الله تعالى للحياة والأحياء ، وأن غاية التكليف الشرعي من بعض الوجوه يتمثل في قدرة الإنسان المسلم على فهم هذه السنن وحسن تسخيرها والتعامل معها ، كما شرع الله ، وعدم الارتطام بها ، فهذه قوانين الله وسننه الجارية في الحياة والأحياء التي جاء الأنبياء وأوقفوا الناس عليها ، وقدموا لهم نماذج من حياتهم عن كيفية

التعامل معها ، أما السنن الخارقة ، فهي لون آخر من أقدار الله الغلّابة التي لا يد للإنسان فيها ولا اختيار له معها ولا يحاسب عليها ، ولو أراد الله نصرة نبيه في كل معركة بسنة خارقة لنصره بلا شك ، لكنها السنة الجارية التي تكمن في القدرة على التعامل معها كما شرع الله أمر التكليف ؛ فالقضية تخضع لسنن جارية وحسن الاستفادة من الإمكانات المتوفرة والفرص المتاحة ، ولا تتحقق بالأماني وأحلام اليقظة وانتظار المنقذ ، قال تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ... ﴾ (النساء : ١٢٣) .

لذلك فالرسول ﷺ انتصر بعد توفير الأسباب ليكون قدوة في النصر ، وهزم المسلمون في بعض معاركهم بسبب وتقصير منهم ليكون الاقتداء أيضاً بكيفية التعامل مع الهزيمة والتصرف بعدها . . . وتلك الأيام نداولها بين الناس . . .

ولعل أكبر الهزائم في تاريخ النبوة كانت معركة أُحد ، والتي كان عنوان الهزيمة الكبير فيها والأسباب التي أدت إليها قوله تعالى بعد التساؤل الذي طرح : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُم أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

ولا نزال منذ أربعة عشر قرناً إلى الآن نتلو آيات آل عمران التي تبين الواقع النفسي والتصرف العملي لهزيمة أُحد ليكون ذلك عبرة ودرساً نسقطه على واقعنا بمقدماته ونتائجه ، و نحقق تعدية الرؤ ية القرآنية لتكون ضوءاً كاشفاً لحياتنا ؛ والأمر المضحك أو المحزن حقاً أن يعتبر بعضنا نفسه فوق مرتبة النبوة والمساءلة ويعفي نفسه من الاعتراف بالتقصير ويلقي بالتبعة على الآخرين فإن خانه الدليل فعلى القدر ، ولا يرضى الاعتراف بالهزيمة ، الأمر الذي يشكل المرحلة الأولى والضرورية في المعالجة ، حتى لقد تعودنا أن نقرأ عن هزائمنا وأسبابها ونتائجها في كتب أعدائنا إلى درجة أصبحت معها كتاباتهم ومعالجاتهم مصادر المعرفة لقضايانا ، أو في كتب المنهزمين أنفسهم الذين يأخذهم الصلف فيجعلون من الهزائم انتصارات فيزداد التضليل ويعم الضلال ، مع ملاحظة أن أية قضية في عالمنا الإسلامي يصدر عنها عشرات الكتب والدراسات في الغرب قبل أن تنتهي إلى درجة يمكن أن تتحكم هذه الدراسات بمسارها وتوجيهها ، مع أن آيات القرآن الكريم نزلت على أرض هزيمة أُحد تبين أسبابها ، وتعالج آثارها ، وترصد

تصرفات أصحابها ، وترافقها خطوة خطوة ، فأين نحن من تاريخنا ، وأين نحن من عقيدتنا ؟!

ونحن لا نريد الآن أن نعرض لهزيمة أُحد بكلياتها وجزئياتها ، فذلك موجود في مظانه من كتب السيرة والمغازي ، وإنما هي مواقف مختارة في مجال التأسي والتأكيد على المنهج القرآني في دراسة أسباب الظاهرة وتحديد تلك الأسباب لتكون درساً مستقبلاً لمعالجة الآثار المترتبة على الهزيمة من الناحية النفسية والتربوية . . .

ويمكن أن نعتبر أن هزيمة أهل الحق أمام أهل الباطل من أشد أنواع الابتلاء ، فالرسول المعصوم ﷺ يسقط في الحفرة ، فيشج رأسه وتكسر رباعيته ، ويخضب الدم وجهه ويشاع قتله . . . ويعلو الكفر ، فتكون قولة أبي سفيان : أعل هبل . أي : انصر جماعتك وقومك ؛ وتعم البلبلة الصفوف لدرجة يفقد بعضهم معها توازنه ، فيقول : الحقوا بدينكم الأول . . . إنه الامتحان الرهيب الرعيب لقضية الاستمساك بالحق والمتابعة على طريقه . . .

طبعاً يبقى العنوان العريض للهزيمة وكل هزيمة وإخفاق الذي وضعه القرآن والذي يجب أن لا يغيب عن المسلم : قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ (آل عمران : ١٦٥) وتحت هذا العنوان نلمح من مسيرة الغزوة بعض المعاني السريعة :

يمكن إلى حد بعيد أن نعتبر أن معركة أُحد جانب في المعركة المستمرة بين الإسلام وأعدائه وبالتالي فهي لا تنفصل عن معركة بدر الكبرىٰ ، فبعد معركة بدر اختلف المسلمون في قسمة غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقهم ، وتفسد ذات بينهم ، يقول عبادة بن الصامت :

اختلفنا في الغنائم حتى كادت تسوء أخلاقنا . . . فكان أن ذكرهم الله تعالى بالشروط المعنوية للنصر وصفات الإيمان الحق بقوله : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ...** ﴾ إلى آخر صدر سورة الأنفال .

ثم كان الدرس العملي في أُحد حيث خالف الرماة أمر الرسول ﷺ ونزلوا لجمع الغنائم برغم التأكيدات الكثيرة منه ﷺ بعدم النزول ومغادرة المكان مهما كانت نتيجة المعركة ، فجاء الدرس العملي القاسي من أول الطريق أن الجهاد في الإسلام للعقيدة وليس للغنيمة ، وأن مخالفة أمر الرسول ﷺ موقعة في

الهلاك . . . فهل ننسى حظوظ أنفسنا التي ما تزال تسلمنا من هزيمة إلى أخرى ونسترد الشروط المعنوية للنصر ؟

الالتزام بالمبـدأ والفــكرة

لسنا بحاجة إلى بيان أهمية حياة القائد واستمراره على أرض المعركة ، كما أننا لسنا بحاجة إلى بيان حاجة المسلمين لرسول الله ﷺ في أشد حالات المحنة والابتلاء ، مرشداً ومعلماً وقائداً ، مع ذلك لما أشيع موته ، واضطربت الصفوف ، وزلزلت بعض النفوس ، فكان شعارهم : الارتداد إلى الدين الأول ، وثبت آخرون ليقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ ؛ وكانت المحنة الشديدة إشاعة موت القائد فجاءت الحقيقة الخالدة لتوضح أن الإسلام حق وقيم ومنهج وأفكار يلتزم بها الإنسان المسلم ، ويمنحها ولاءه ، وليس ارتباطاً بأشخاص يخطئون ويصيبون ، يحيون ويموتون ، ينتصرون وينهزمون . . . إنها الحقيقة الخالدة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان ، إنه الإسلام ، الرسالة الخاتمة ، الذي انتقل بالبشرية من مرحلة الأشخاص إلى مرحلة الأفكار كحقيقة مجردة يلتزم بها المسلم ، يجتمع عليها ويفترق عليها ويدور معها حيث دارت ، فتضمن له ديمومة الفاعلية والاستمرار ، وتحول بينه وبين الإحباطات التي يمكن أن يتعرض لها على الطريق الطويل ، ذلك أن الصواب والبقاء للأفكار والخطأ والزوال للأشخاص ، قال تعالى على أرض معركة أحد :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ ؟! (آل عمران : ١٤٤) (إننا سنقاتل على ما قاتل عليه محمد ﷺ وأصحابه ، ونموت على ما ماتوا عليه . . .) أي وضوح في المنهج أكبر من هذا الوضوح ، وبذلك تُستوعب الهزيمة وتُوظف لتنقلب إلى نصر . . .

وعادة ما تترك الهزيمة آثاراً مريرة ، وجراحات نفسية ومادية تحتاج إلى مواجهة صحيحة ومعالجة سليمة للحيلولة دون الإحباط والانكسار النفسي ، خاصة في أشد المواقف حراجة ؛ المسلمون بقيادة رسولهم ﷺ يهزمون ، ويقف أبو سفيان ليعلن انتصار الصنمية على الحق بقوله : أعل هبل ، فيرد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام المسلمين بقوله : الله أعلىٰ وأجل . فيقول أبو سفيان : يوم بيوم بدر

والحرب سجال . فيرد عليه عمر بقوله : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . . . وينزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ (آل عمران : ١٦٩-١٧٠) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩) فيعتصم المسلمون بالاستعلاء الإيماني الذي يشكل لهم التطعيم والحصانة النفسية ضد الهزيمة ، ويتابعون المسير إلى حمراء الأسد رغم ما أصابهم من الجراح ليتعقبوا فلول الأعداء ويصدوا هجماتهم المتوقعة على المدينة المنورة . ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ... ﴾ (آل عمران : ١٧٢) .

التربية الميدانية على أرض المعركة

من المآسي الكبيرة على أرض المعركة التي اعتصر لها قلب الرسول ﷺ ألماً وحزناً : مأساة قتل عمه حمزة رضي الله عنه ، وما حدث من التمثيل به من هند بنت عتبة ، فقال عليه الصلاة والسلام بعد أن رأى ذلك : « والله لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » . وهذا من طبيعة التأثر البشري ، فينزل قوله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل : ١٢٥ - ١٢٨) .

إنه التدرج والتربية في المعالجة الذي بدأ من التماثل بين الجريمة والعقوبة ، إلى الندب إلى الصبر وثوابه ، إلى الأمر بالصبر والاحتساب .

ومن الإفرازات السلبية أيضاً ما أظهره يهود والمنافقون من الشماتة بالمسلمين ، فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط ، أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه !! وجعل المنافقون يُخَذِّلُون عن رسول

الله ﷺ أصحابَهُ ويأمرونهم بالتفرق عنه ، ويقولون : لو كان من قَتِلَ منكم عندنا ما قُتِل . . . وسمع عمر رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ يستأذن في قَتْل من سمع ذلك منه من يهود والمنافقين ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« يا عمر ، إن الله مظهرُ دينه ، ومعزُّ نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم » قال : فهؤلاء المنافقون . قال : « أليس يُظْهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وأبدىٰ الله أضغانهم عند هذه النكبة ؛ فقال :

« نُهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ يا ابن الخطاب ، إن قريشاً لن ينالوا منّا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن » .

إنها النبوة وليست الملك ، كما حددها العباس رضي الله عنه أثناء فتح مكة عندما دخلها الرسول ﷺ منتصراً ، ورأىٰ أبو سفيان جموع الفاتحين وإسلام القبائل العربية ، فقال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ؛ فقال له العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . . . فهل نعيد قراءة أهدافنا في هذه الحياة ووسائلنا في مواجهة مشكلاتنا وهزائمنا ، فنعلم أنه السير على أقدام النبوة وليس السقوط في مناخ الجاهلية .

[ربيع الآخـر ١٤٠٤هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤م]

ما أشبه الليلة بالبارحة

﴿وَلَنْ تَرضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَارىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..﴾ (البقرة : ١٢٠)

لا نعتقد أن ما نعرض له هنا يبعد بنا كثيراً عن متابعة ما بدأناه من تأملات حول مسيرة العمل الإسلامي لنساهم ما أمكننا في تسديد هذه المسيرة ، ومحاولة نقل مواقع العمل الإسلامي إلى المجال المجدي على ضوء الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة ، للوصول إلى التوازن المطلوب بين طرفي المعادلة عند العاملين للإسلام ، وتحقيق التلازم الغائب بين إخلاص النية لله وإتقان المقدمات واتخاذ الأسباب للوصول إلى الصواب ، والقيام بعملية المراجعة الدائمة ، والدراسة والتقويم لنكتشف مواطن تقصيرنا وسبب قصورنا ، ولنتعرف على مدىٰ انطباق خطواتنا على المنهج الإسلامي السليم ، ونفقه السنن الجارية التي شرعها الله في الأنفس والآفاق ، ونحسن التعامل معها حتى لا يقع الخلط بينها في توجهاتنا صوب تحقيق الأهداف الإسلامية وبين السنن الخارقة ـ المعجزات ـ حيث تتوقف عملية التكليف ، وتخرق السنن والقوانين المألوفة للدلالة على قدرة الله تعالى ، ورفع الالتباس الحاصل

بالفهم بين قدرة الخالق وصفاته وتكليف المخلوق وحسابه ، وأن من شرع السنن وخلقها لا يمكن أن يحكم نفسه بها ، وإنما يحكم مخلوقاته ويحاكمهم على ضوئها .

فلا بد لإنضاج الحقيقة من زمن والتزامٍ للسنن ، ولتحقيق الأهداف من الخضوع لهذه السنن ، والتنبه الزائد إلى عملية الخلط بين الإمكانات والأمنيات التي أرهقت العمل الإسلامي وأوقعته في الكثير من الارتباكات والإحباطات والمهالك ، وسيرته في الدروب التي أبعدته عن هدفه ، فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (النساء : ١٢٣)

ذلك أن العمل الإسلامي السليم والحل الإسلامي ، هو الأمل الباقي والمخرج الوحيد للأمة بعد سلسلة الهزائم العسكرية والسياسية وواقع التجزئة والتخلف وما أورث ذلك من الإحباطات النفسية على الأصعدة كلها ، حتى ليمكننا القول :

إن قضايا الأمة ووجودها الفاعل وعطاءها كان يتعرض تاريخياً لعمليتي المد والجزر على ضوء سلامة هذا العمل وحضوره وصوابه ووعي المسلمين التاريخي ؛ ونسارع إلى القول أيضاً :

إن الأمة المسلمة تعرضت لعمليات جزر متعددة ، إلا أن هذه العمليات على امتداد التاريخ الإسلامي لم تؤد إلى ذوبان الأمة وانتهائها ، وانقطاع تواصلها الحضاري . . . صحيح أن مساحة هذا التواصل كانت تتسع وتضيق ، إلا أن القضية الإسلامية لم تتوقف أو تنقطع ، والطائفة القائمة بأمر الله لم تغب عن الساحة يوماً . . . وأن الأمة المسلمة خضعت للدورات الحضارية التاريخية لكنها تميزت عن سواها من الأمم باستعصائها على السقوط والذوبان بفضل اعتصامها بالقرآن الكريم وانتمائها للإسلام الذي كان قوة دافعة للنمو والامتداد أيام الازدهار ، كما كان قوة مانعة من السقوط والانكسار في أيام الضعف والخضوع للاستعمار ، الأمر الذي نلمحه خلال المسيرة الإسلامية الطويلة بأحوالها المختلفة . . . نلمح هذا في الحملات الصليبية التي دامت ما يقارب القرنين ، والهجمات التترية التي كانت كالإعصار المدمر ، لم تمر على شيء إلا تركته

خراباً ، والحقبة الاستعمارية وما رافقها من فساد وإفساد على المستويات كلها إلى درجة غرس جيل غريب في فكره وثقافته في جسم الأمة التاريخي ، إنه جيل الاستعمار الذي جيء به ليتابع الطريق ، وما تعانيه الأمة المسلمة اليوم من الحقبة اليهودية التي حملت في جوفها كل الأحقاد التاريخية ، واستحضرت كل التجارب التاريخية في المنطقة المسلمة ، وحاولت الاستفادة من كل الهجمات التاريخية لتتجنب عثارها .

القــــراءة الخاطئــــة

وقد يكون المطلوب من الأمة المسلمة الآن ، ونحن في شهر الإسراء والمعراج ، القيام بعملية المراجعة على المستويات كلها ، فإلى أي مدىً نحن قادرون على الاستفادة من الدرس التاريخي ، وتوظيف حقائق التاريخ التي ما تزال ماثلة ، توظفها الصهيونية العالمية ثمرة الحملات الصليبية ونتيجتها ؟ أما نحن فما نزال مصرِّين على القراءة الخاطئة ذلك أنه مهما يكن من أمر ، ومهما اختلفت التفاسير للوجود اليهودي ، فإن إسرائيل امتداد للغرب الصليبي تنتسب إلى الحضارة الغربية ، تكنولوجياً وعلمياً ، تنحدر منها وتلتقي معها على العهد القديم في الرؤية الدينية « **لقد أخبروني . . . . . . أنه منذ بداية الحضارة سنت قوانين ولكنها جميعاً لم تصل إلى مستوى قانون الله في الوصايا العشر . . . إن المرء يسائل نفسه أحياناً عمَّ إذا كان العالم الآن يواجه معركة فاصلة قبل يوم القيامة بين قوى الخير والشر كما تنبأت التوراة . . . إن العالم يمر حالياً في الفترة التي وصفها العهد القديم ـ التوراة ـ عندما تنبأ بمعركة فاصلة ولكنها مدمرة للعالم بين الخير والشر ، يعقبها مباشرة يوم الحساب** » (**ريغان ـ الرئيس الأمريكي ـ ١٩٨٤م**) .

وتأتي محاولات يهود المستمرة في الاعتداء على الأقصى وانتهاك حرمته تمهيداً لهدمه وبناء الهيكل مكانه ليكون قبلة يتجه إليها اليهود ويتوجهون منها إلى أرض المسلمين جميعها ، تحقيقاً لهذه الرؤية التوراتية . . .

إن الكثير من المسلمين يمرون بحادثة الإسراء والمعراج مروراً عابراً يحاولون قراءتها بصورة ساذجة وبسيطة ، وقد يقعون في جدل حول بعض الأحاديث

والرؤىٰ ، لمَّا ينتهِ بعد ، حول كيفية الإسراء ، وهل حصل بالروح أم بالجسد ، ويعرضون الحادثة على عقولهم ، فتستحيل عندهم كما استحالت في عقول من سبقهم فأنكرها أو أوَّلها ، في الوقت الذي يتابع فيه يهود اعتداءاتهم على الأقصى وبرامجهم في التهويد ، وأقل ما يقال في الموضوع : إن القضية لها علاقة بالسنة الخارقة التي لا تخضع لقانون العقل ، وإن الله تعالى قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ ولا تطلق كلمة « عبده » في اللغة العربية إلا على الجسم والروح ، ونرىٰ أنه لا بد من تجاوز الجدل حول الحادثة إلى المعاني الكبيرة التي سبقت حادثة الإسراء ورافقتها ، إنها جاءت بعد مواجهات مريرة مع المشركين في مكة ، على كل المستويات بما في ذلك المقاطعة الجماعية في الشِّعْب ، ورحلة الاضطهاد في الهجرة إلى الطائف والعودة منها ، وفي الاعتمال النفسي بموت العم الحامي والزوجة الحانية . . . إنها المعاني الكبيرة والآفاق الواسعة التي رسمتها الحادثة للخروج بالدعوة الإسلامية المحاصرة في مكة ، والتي خرجت منهكة من الشِّعب ومحبطة من رحلة الطائف ، عن مستوى الزمان والمكان ، فالدعوة ليست وقفاً على زمن معين ، أو جيل بذاته ، أو أي مكان ، إنها قضية الإنسان حيثما كان وإلى أي جنس انتمى . . . إنها بدأت في مكة مركز النبوة الأولى ، وانطلقت إلى القدس أرض النبوات ، ثم شملت العالم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ (آل عمران : ٩٦) ، والذي بنى البيت وأصَّل التوحيد هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والذي جاءت رسالته خاتمة ، وجاء كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه هو الرسول محمد ﷺ الذي صلى بالأنبياء إماماً هناك في بيت المقدس الذي بارك الله حوله ، والذي يشكل الاعتداء عليه اليوم اعتداء على النبوة بأصلها وختمها . . .

إن كثيراً من المسلمين يمرون أمام حادثة الإسراء والمعراج ويعجزون عن وضعها في مكانها المناسب من المسؤولية الإسلامية والتكاليف الشرعية ؛ إن حادثة الإسراء والمعراج على الرغم من أنها تعطي المدد النفسي للمسلم ، لكنها في الوقت نفسه مناسبة مؤدبة للمسلمين اليوم الضائعين عن إسلامهم ومستلزمات عقيدتهم .

الهجمة المغولية .. حملة صليبية جديدة

وقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت ، وقد مضى على احتلال يهود لأرض النبوات سبعة وثلاثون عاماً ، العودة إلى التاريخ ودراسة الحملات الصليبية ، ومن ثم الحقبة الاستعمارية للعالم الإسلامي التي تشكل حلقة غير منفصلة عن الجذور الصليبية ، ومن ثم الانتهاء إلى الصورة الأخيرة للغارة على العالم الإسلامي ، صورة الصهيونية التي تعتبر امتداداً طبيعياً للحملات الصليبية وتحاول الاستفادة من دروسها ، والتي تقف النصرانية بوجهيها الشرقي والغربي على حد سواء في صفها . . . فالتحالفات اليهودية الوثنية الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ليست جديدة فقد بدأت في غزوة الخندق عندما حزبت يهود الأحزاب ضد المسلمين ، وشهدت لقريش الكافرة المشركة وقتئذ أن أصنامها أهدىٰ من دين محمد ﷺ ولم تتوقف إلى هذه اللحظة .

ذكر المقريزي في كتابه « السلوك » وغيره من المؤرخين أن المغول أثناء غزوهم للشام والعراق أظهروا اهتماماً خاصاً بالنصرانية ، وعطفاً شديداً على النصارىٰ ، كما احترموا المؤسسات النصرانية بشكل عام ، وإذا كان المغول قد دأبوا في جميع المدن والبلاد الإسلامية التي دخلوها عنوة على ذبح أهلها من المسلمين ، فإنهم حرصوا في الوقت نفسه على حماية أرواح وممتلكات سكانها من النصارىٰ ، وهكذا هدم المغول جوامع ، وخربوا مساجد ومآذن ، في الوقت الذي حافظوا فيه على الكنائس وشملوها بحمايتهم ، وقتل المغول كثيراً من فقهاء المسلمين وعلمائهم ، وأعدموا خليفتهم في بغداد ، في الوقت الذي لم يحاولوا المساس بأسقف أو قسيس أو راهب . . . بل لقد حدث في الوقت الذي قتل المغول فيه الخليفة العباسي ، وأحرقوا المسجد الجامع أن أنعم هولاكو على البطرق النسطوري في بغداد بالهدايا الثمينة ، وخصص أحد قصورها مقراً له . . . لذلك لا عجب إذا هلل النصارىٰ الشرقيون بوجه خاص لما قام به المغول من أعمال في العراق والشام ، واعتبروهم حماة النصرانية الذائدين عنها ، الآخذين بثأرها ، فحرص بعض بطارقتهم وأمرائهم على ملازمة المغول في زحفهم ، ومشاركتهم في احتلالهم ، بل على تحريضهم ضد المسلمين للتشفي فيهم والقضاء عليهم ؛ وبعبارة أخرىٰ : إن المعاصرين من النصارى وجدوا في

غزو المغول لبلاد الشام والعراق فرصة طيبة للثأر من الإسلام والنيل من المسلمين ، واعتبروا تلك الغزوة بمثابة حملة صليبية جديدة أتت لنصرة النصارىٰ ، لكنها أتت هذه المرة من الشرق لا من الغرب مثلَ سائر الحملات الصليبية المألوفة . . . ومما يجب ذكره أن زوجة هولاكو بالذات كانت نصرانية ، كما أن بطانته ومستشاريه ومؤيديه كانوا من النساطرة والأرمن بوجه خاص . . . ويروي المقريزي في حوادث سنة ٦٥٨هـ فيقول :

« استطال النصارىٰ بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ، وصبوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب ، وصاروا يمرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم ، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم ، وقالوا جهراً : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لنائب هولاكو « كتبغا » فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظَّم قدر قسس النصارىٰ ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم » . (انظر كتاب الحروب الصليبية لسعيد عاشور ، وما كتبه رنسمان عنها أيضاً) والمراسلات والاتفاقات بين بعض قادة الحملات الصليبية وبين المغول معروفة في مكانها من كتب التاريخ .

لكن مسلمي هذه الأيام ما أسهل أن يخدعوا عن هذه الحقائق ، وأن يسقطوا في الشَّرَكِ لحظات انفصالهم عن دينهم ، وبعدهم عن التزامه وسلوك طريقه القويم . . .

وترجع أهمية الحروب الصليبية في أنها تشكل تجربة غنية في تاريخ المسلمين ، وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج وإنما هي تجربة كبرىٰ خطيرة مملوءة بالدروس والعظات ، الأمر الذي يتطلب أن نتأملها ونبحثها في كل وقت ونراجع حساباتنا معها على ضوء المستجدات في معركة المواجهة السياسية والحضارية والعسكرية لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار وتحديات الحاضر ونتغلب عليها . . . إن ذيول الحروب الصليبية لمّا تنته بعد ، وسواء قلنا : إن التاريخ يعاد بنفسه أو لا ، فإن هناك سنناً تحكم قيام الأمم وسقوطها ، وتتكرر النتائج كلما تحصلت الأسباب .

الصليبيون الجدد .. وجيل التحرير

إن من الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي سبق الحملة الصليبية الأولى منذ ثمانية قرون ، الأمر الذي يتطلب دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة ، وتحديد عوامل النهوض التي قادت الأمة إلى النصر ، وشروط النصر التي تحققت بعد أن كادت تطمس الهوية الإسلامية لهذه البلاد خلال ثمانية أجيال ، أي ما يقارب القرنين من الزمان ، غاب فيها الإسلام ، وأقيمت الجيوب الطائفية ، ودعمت وأثيرت الأقليات الدينية ، واستيقظت النزعات الإقليمية والباطنية التي ما نزال نعاني من آثارها حتى اليوم ، والتي ما تزال الصهيونية تغذيها وتقف إلى جوارها بشكل ظاهر أو خفي « نحن جزء من العالم العربي ، ولكننا في الوقت نفسه منفصلون عن هذا العالم لأن جزءاً كبيراً من هويتنا جاء من أصول أوروبية غربية » (كميل شمعون : التايم الأمريكية ٥ مارس [آذار] ١٩٨٤م) « إن مستقبلنا ومصيرنا مرتبطان بحجم التعاون المشترك مع إسرائيل » (الجميل : المصدر السابق نفسه) .

لقد مرت بالأمة المسلمة فترات ضعف مكّنت العدو من التغلب عليها والسيطرة على أرضها ، لكن بقاء الانتماء للإسلام حال دون ذوبانها في فترات ضعفها ، كما أسلفنا ، والأمة المسلمة تاريخياً : كلما حققت الالتزام بالإسلام مع الانتماء إليه أمكنها من رد عدوها ونشر حضارتها ، وقد أدرك خصومها ذلك ، فكان لا بد من سلخها عن إسلامها لضمان استمرار غلبة الأعداء عليها ؛ والأمر الذي أصبح واضحاً : أن عملية الاسترداد للأراضي الإسلامية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ بعد القضاء على واقع التجزئة والتمزق والتناحر والدويلات التي كانت تملأ عالم المسلمين ، سبقها بناء جيل ، هو جيل التحرير ، استطاع بواسطته صلاح الدين أن يحرر القدس وغيرها من بلاد المسلمين من الصليبيين ، وأننا مهما حاولنا استدعاء صلاح الدين دون إمكانية تربية جيل التحرير فلن نظفر بنتيجة .

ومن الأمور المضحكة المبكية أن يُقرأ تاريخنا بروح إقليمية عنصرية ، ويُقزم أبطالنا تحت رايات جاهلية من قبل جيل الاستعمار فيحكم على صلاح الدين

بأنه كردي يجب أن يخرج من تاريخنا ، في الوقت الذي يهتم فيه يهود بقراءة تاريخنا الإسلامي ومعرفته ليتمكنوا من خلاله الإحاطة بنقاط الضعف والقوة مما يسهل لهم تحقيق ما يريدون ، يقول موسىٰ ليفي رئيس أركان جيش العدو ، وهو من أصل « عربي » : حصلت على دبلوم في التاريخ الإسلامي لأعرف كيف أحارب المسلمين وأنتصر عليهم !! (من دراسة أعدتها « أورينت برس » نشرتها جريدة الوطن الكويتية ـ ١٩٨٤م) .

العشـــور الصلاحيـــة ..

لقد كان لعودة القدس إلى المسلمين بعد ما يقارب القرن من الزمان ـ الذي أسكت فيه صوت التوحيد ـ دوي هائل في الساحة الإسلامية ، ومحاولات مستميتة من جانب الغرب النصراني ، حتى إن فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك انكلترا فرضا ضرائب على الإيراد العام في بلديهما وصلت إلى عشرة بالمائة سموها : « العشور الصلاحية » نسبة إلى صلاح الدين ، ورصدت حصيلة هذه الضريبة لإعادة غزو بيت المقدس ، أتعجب بعد هذا إذا اعتبرنا الصورة الحديثة للحملات الصليبية هي الهجمة اليهودية ، والدعم المادي والعسكري الذي يدفع لها هو الضريبة والجزية (العشور الصلاحية) لأنها حققت حلم الصليبية العالمية ؟! هذا إذا لم تكن الحملات الصليبية الاستعمارية ابتداء قامت بتحريض من يهود الذين استقرت هجراتهم في أوروبا ، وأنهم هم الذين دفعوا النصارىٰ صوب الشرق الإسلامي ، وأنهم الآن يستفيدون من كل هذا ويوظفونه لمصلحتهم ، هل تعجب بعد هذا للقروض والهبات الأمريكية ، والجزية الألمانية ، والمساعدات الأوروبية بشكل عام ؟! لقد كانت إسرائيل قادرة على ابتزاز الشعور الأوروبي الصليبي في مواجهة المسلمين . . .

وقد تختلف الهجمة اليهودية عن الحملة الصليبية في أنها لم تقتصر على الجيوش ، وإقامة القلاع والحصون والقواعد العسكرية ، كما كانت الحملات الصليبية ، وإنما أريد لها أن تزرع شعباً غريباً مكان الشعب المسلم ، وبهذا تسيطر بقوة الجيش ، وبقوة سكان مجتمع استيطاني له دولته ، وهو كيان معاد دينياً وحضارياً للمنطقة حيث إنه امتداد حضاري وبشري لليهودية العالمية كنسب جنسي ، وللغرب النصراني كنسب حضاري وتكنولوجي واستراتيجي . . .

عمليــة اجهاض القيــــم

إن قيام إسرائيل حقق أهدافاً كثيرة : أقام الجيوب الطائفية والنزعات الإقليمية ونشطها ، وامتص طاقات وخبرات المنطقة اقتصادياً ، وساهم بتكريس واقع التجزئة ، وخرب عالم الأفكار . . . ولا يمكن أن نفهم أسباب الهزائم المتكررة ، وأسباب الانهيار أمام إسرائيل إلا إذا عدنا إلى جوهر الأفكار التي نحملها إلى مدارسنا وجامعاتنا ، إلى وسائل إعلامنا المتعددة ، إلى بيوتنا وشوارعنا ، إلى واقعنا ، فسوف لا نرىٰ فيه أثراً من هويتنا الأصيلة . . . ولا سبيل إلى الخلاص إلا إذا جددنا انتماءنا إلى هذا الدين والتزمنا به ، وعدنا إلى تاريخنا نستلهمه ، ودرسنا عوامل النهوض ووسائله من الإعداد والاستعداد وشروطه ، وأول هذه الشروط أن يشمل التغيير بنيتنا الفكرية . . . والحذر كل الحذر من طرح شعارات إسلامية للتحرير دون أن يكون من ورائها إعداد وتربية وفكر والتزام ، لأن طرح الشعارات دون إيجاد المقدمات الحقيقية إنما هو عملية إجهاض لها ، وبذلك تفتقد الأمة الأمل الباقي لها ، ذلك ان أي محاولة للتغيير ضمن الشروط نفسها ، وعلى الأرض ذاتها ، ومن خلال البنية ذاتها سوف لا يعني إلا المزيد من الارتكاس والإنهاك حتى لو تغيرت الشعارات المطروحة والعناوين المرفوعة للتحرير . . .

إن صلاح الدين ـ رحمه الله ـ بدأ بنفسه فغيرها ، واستشعر المسؤولية أمام الله عز وجل ، فأنهىٰ واقع العطالة والفساد والتجزئة في عالم المسلمين ، وبنى جيل التحرير ، وكذلك قام الفقهاء والعلماء والأمراء والقادة بمسؤولياتهم ، فكان نصر الله ، وكان تحرير المقدسات ، ذلك أن المجتمع المفكك الفاقد لثقافته لا يمكن أن ينتج قوة عسكرية قادرة ومتماسكة ، والإنسان المتخلف ثقافياً واقتصادياً وتربوياً لا يمكن أن يكون متفوقاً عسكرياً . . . ومهما ارتفعت أصواتنا في استدعاء « صلاح الدين » جديد ، واشتدت معارك الشعارات على أرضنا ، فلا سبيل إلى التحرير واسترداد بيت المقدس دون العزم على إعداد جيل التحرير الذي يمثل الوليد الشرعي لعقيدة الأمة ووجودها التاريخي ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

[رجــب : ١٤٠٤هـ ـ نيسان (ابريل) : ١٩٨٤م]

الرؤية الدينية التوراتية والمواجهة الصادقة

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا : الْيَهُودَ ﴾

(المائدة :٨٢)

من الحقائق التي لم تبق محلاً للنظر والدراسة والاستنتاج ، سواءً على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة : أن التاريخ بقسميه ، الخاص والعام ، هو عصارة التجارب في مختلف الظروف والأزمان ، وانه من المعالم الأساسية التي تهتدي بها الأمم ، في معالجة حاضرها وقراءة مستقبلها ، والتخطيط له على ضوء الماضي ، ذلك أن التاريخ هو نتاج عقول أجيال كاملة ، وخلاصة تجارب بشرية طويلة ، توضع تحت تصرف جيل ،في خدمة حاضر الأمة ، وبناء مستقبلها ، فهو من هذا الجانب : اجتماع للعقول في عقل ، واختصار للأعمار في عمر ، واستحضار للزمن بقرونه المتطاولة في عصر .

هذا ما لم تكن الأمة ، لسبب أو لآخر ، محكوماً عليها أن تعيش خارج التاريخ ، أو تكون عاجزة عن هضم تجاربها ، والاستبصار بماضيها ، إن لم نقل الاستفادة من تجارب الآخرين ، أو أن يقرأ لها التاريخ قراءة مغلوطة ، ويفسر تفسيراً بعيداً عن الحقائق التي صنعت تاريخ الأمة ، فيزيد ذلك في ضلالها وإضلالها وتخلفها ، وبذلك تعيش الأمة تائهة مترنحة ، كالشجرة التي

اجتثت جذورها . . تتقاذفها الرياح شرقاً وغرباً ولا تقدر على الثبات أمام عوادي الزمن ، وتحاول عبثاً أن تستغني بأوراقها عن جذورها . .

والذي ينظر إلى أمتنا والحال الذي انتهت إليه ، والمصير الذي ينتظرها ، أو الذي تقاد إليه على يد بعض أبنائها أو الذين ينتسبون إليها ، يتملكه الاحساس أن هذه الأمة تعيش الآن خارج التاريخ ولا تستطيع تمثل تجاربها الخاصة والاعتبار بها ، بالنسبة لأكثر مشاكلها والطريقة التي تعالج بها قضاياها .

مواجـــهة تاريخيـــة دائبـــة

والمتتبع لسير الحوادث ، منذ أن ابتعث الله محمداً ﷺ ، والذي شاءت إرادة الله ، أن تكون رسالته الرسالة الخاتمة ، وجاءت مكانته ومكانة أمته في قمة التجربة الانسانية للأنبياء مع أقوامهم . ولعلّ أبرزها كان مع قصة بني إسرائيل حيث يُرى أن المساحة التعبيرية الكبيرة ، التي احتلها الكلام ، في القرآن الكريم ، عن تاريخ يهود ، تفوق كل مساحة ، عرض القرآن لجرائمهم مع تاريخ النبوة الطويل ، وبَيَّنَ صفاتهم وأخلاقياتهم ، من مراوغة ونكث للعهود وصناعة للمنافقين الذين عاشوا في جسم المجتمع المسلم ، وفتكوا به في فترات الضعف . انهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان للمخادعة ، ولاتزال مذاهب الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر صنائع يهود تعمل عملها في المجتمع الإسلامي ، بكل أحقادها التاريخية على الاسلام والمسلمين . لقد نبه القرآن الكريم الأمة إلى اليهود ، وصنائعهم من المنافقين لأنهم يشكلون الخطر الحقيقي على هذه الأمة . لتكون على بينة من أعدائها ، وتكون دائمة الحذر غير غافلة عن الذين يتربصون بها الدوائر .

ولقد كان اليهود ، في مواجهة تاريخية دائمة مع المسلمين ، وكان الإحسان إليهم وحسن الظن بهم لايزيدهم إلا تآمراً وكيداً ، ولم يختلف الأحفاد في ذلك عن الأجداد ، فكأن الغدر والمكر والخيانة والكيد أصبح جبلة بالنسبة لهم ، وأصبح يشكل المناخ الثقافي الذي يُنَشَّأ عليه الأحفاد في كل جيل ، لذلك كان بيان القرآن في ذلك ينتظم كل جيل وكان الحذر منهم مطلوباً أيضاً من كل جيل ،

والقرآن مجرد عن حدود الزمان والمكان ، وإلا لما كان لذكر صفاتهم وقصتهم ـ التي أكدت ذلك في القرآن الكريم ومن أكثر من وجه ـ قيمة وفائدة .

ولقد أدرك اليهود ، ولايعوزهم الادراك لهذه القضية ، أن المسلمين هم الخصم الحقيقي بالنسبة لهم ، خاصة بعد أن تسللوا إلى كل الأديان والمذاهب الفكرية والأحزاب السياسية فأفسدوها ووظفوها لتكون في خدمتهم وعجزوا عن ذلك بالنسبة للقرآن الذي تكفل الله بحفظه .

ولسنا الآن بسبيل أن نتكلم في هذه العجالة ، عن الشواهد الكثيرة ، التي بات أمرها معروفاً ابتداء من التسلل إلى النصرانية وإفسادها عن طريق بولس الذي انقلب وبقدرة قادر من أشد الناس حماسة وإخلاصاً لرسالتها ، حتى غدا أحد قديسيها ، وأصبح بولس الرسول الذي ينسخ بتعاليمه كل التعاليم السابقة بناءً على أمر المسيح ، ولعل أثر اليهود في كلا المعسكرين المتحكمين في رقاب العباد الآن واللذين كانت أولى خطواتهما على طريق الوفاق الدولي ، الموافقة على قيام إسرائيل والمسابقة إلى الاعتراف بها لايخفى .

فاليهود هم الرواد الأوائل للشيوعية التي يعاني الانسان من ويلاتها ، وهم أول من تنكر لها وأعلن انتماءه الديني وطلب الهجرة من بلادها إلى أرض الميعاد . كما أنهم الأساتذة المتربعون على قمة النظام الرأسمالي الربوي الذي يسحق الانسان ويستغل حاجة المحتاج ، وينظر للإنسان على أنه وسيلة إنتاج ، ومن أخلاقهم دائماً الرهان على حصاني السباق ، ليكون لهم النصيب الأوفى من ظهر الحصان الفائز . يتقاسمون الأدوار ويظهرون بالمظاهر المتناقضة لتحقيق أهدافهم ، فهم أصحاب مقولة : « الغاية تبرر الوسيلة » الحقيقيون .

لذلك نقول هنا بأن معركتهم مع الاسلام والمسلمين دائمة وسبيلهم إلى النصر إنما يكون في إبعاد الأمة عن عقيدتها ، وإيجاد البدائل الثقافية في عالم المسلمين ، وكلما سقط بديل أو اكتشف استبدل بآخر وهكذا دواليك .

وما استطاع اليهود المرور إلى المجتمعات الاسلامية ، إلاَّ في حالات غياب العقيدة أو تغييبها .

ولانرى أنفسنا بحاجة إلى تكرار القول : بأن مرورهم إلى فلسطين كان بعد إسقاط دولة الخلافة آخر حصون المسلمين ، وبعد إغراق المنطقة « الاسلامية »

بالثقافات الغربية التي لا تمت إلى الاسلام بصلة ، ابتداءً من بعث القومية الطورانية وما أحدث وأيقظ من النزعات الاقليمية في المنطقة الاسلامية كلها ، والتي لا تخرج في حقيقتها عن أدوات في يد يهود علم بذلك دعاتها أو لم يعلموا .

ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يبرز حقيقة هامة : وهي أنه على الرغم من تلك الثقافات الوافدة ، التي أُغرقَتْ فيها المنطقة والتي أصبح لها كتابها ومروجوها ، فقد كانت الحواس الاسلامية ، هي الحواس التي شعرت بالخطر اليهودي أولاً ، وقدرت مدىٰ خطورته ، وتحركت لمواجهته ، فكانت صيحات النذير الأولى التي أطلقتها الحركة الإسلامية ، في أوائل الثلاثينيات ، وكانت الثورة التي قادها الشيخ المجاهد عز الدين القسّام رحمه الله عام ١٩٣٦م وما استتبع ذلك من جهاد الحركة الاسلامية على ربا فلسطين عام ١٩٤٨م ، والذي أسدل عليه ستار كثيف من التعتيم الكامل .

مكــر يهــودي ورؤيــة تــوراتية

وكان لابد من رصد هذه الظواهر ومحاولة القضاء عليها وكان جزاء سنمار كما هو معروف . . كل هذا أكّد لليهود من جديد ، أن عدوهم الأول والأخير في العالم هو الاسلام . ويحضرني هنا ما أشارت إليه صحيفة « يديعوت أحرنوت » من حوالي أربع سنوات بقولها .

« ولكن نخشى أن تستغل الجماعات الاسلامية المعروفة بعدائها لإسرائيل هذه الفرصة لتحريك المشاعر الاسلامية ضدنا ، وإذا نجحت في ذلك ، وإذا فشلنا في إقناع أصدقائنا بتوجيه ضربة قاضية إليها في الوقت المناسب ، فإن على إسرائيل أن تواجه حينذاك عدواً حقيقياً لا وهمياً ، هو عدو حرصنا أن يبقىٰ بعيداً عن المعركة ، وستجد اسرائيل نفسها في موضع حرج إذا نجح المتعصبون المسلمون في تحويل معركتنا ضد البلاد العربية إلى معركة ضد المجاهدين » .

وفي المقابلة التي أجرتها إذاعة إسرائيل مع البروفسور ـ رون تادلز ـ تحت عنوان الاسلام واليهود واسرائيل ـ قال :

« إن المسلمين لا يمكن أن يقبلوا بسيطرة اليهود على المنطقة !! إلاّ إذا تعرضوا لعملية إعادة تعليم ـ غسيل مخ ـ شاملة تغير عقائدهم الراسخة ، وتمحو من

تراثهم وسلوكهم وكتبهم المدرسية وتفكيرهم كل الأفكار المعادية لليهود » ثم أعرب عن يقينه أن حكومة إسرائيل سوف تصر على أن تكون عملية التعليم من البنود الملزمة ـ سواء أكانت سرية أم علنية ـ في أية معاهدة سلام توقع مع أية دولة عربية ، ويكون التباطؤ في عملية إعادة التعليم بمثابة خرق للاتفاقية يخول إسرائيل حق التدخل المباشر لفرضها على الأجهزة الاعلامية والادارية والتعليم وغيرها .

وقد انتقدت صحيفة يديعوت أحرنوت التليفزيون الاسرائيلي على المقابلة التي أجراها مع الرائد سعد حداد ـ عميل اسرائيل في الجنوب اللبناني) ـ بقولها :

إن ذلك التصرف الطائش من قبل وسائل الاعلام وخاصة التليفزيون قد سبب ردود فعل عنيفة بين المسلمين في لبنان ، وكل البلاد العربية بحيث حرك فيهم الروح الاسلامية ، وهو أمر ظلت إسرائيل وأصدقاؤها تحاول كبته والقضاء عليه ، طوال الثلاثين عاماً الماضية . .

واختتمت الصحيفة انتقادها بالقول :

إننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الاسلام عن معركتنا مع العرب ، ويجب أن يبقى الاسلام بعيداً عن المعركة ، ولهذا فيجب علينا أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع يقظة الروح الاسلامية ، بأي شكل وبأي أسلوب ، ولو اقتضى ذلك الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف في إخماد أية بادرة ليقظة الروح الاسلامية .

ولقد بات معروفاً أن الرؤية الدينية التوراتية التي تعيش إسرائيل من ورائها في فلسطين (أرض الميعاد ـ إعادة بناء هيكل سليمان ـ تحرير أرض الرب ـ تحقيق إرادة الرب) هي الدافع الذي حمل اليهود من جميع أنحاء العالم بمختلف عقائده وثقافاته ، أن يعلنوا انتماءهم لها ويهاجروا إليها وكانت خطوات قادة إسرائيل وزعمائها منذ قيامها إلى اليوم منسجمة ومتناسقة ومنبثقة عن هذه الرؤية .

ويكفي أن نذكر هنا مثالاً واحداً والشواهد أكثر من أن تحصىٰ :

ان طالب المرحلة الثانوية يتلقى ثلاثمائة وستين حصة تربية دينية توراتية في السنة الدراسية ومثلها في التدريب العسكري ، وطالب المرحلة الاعدادية في

حدود مائتين واثنتين وأربعين حصة ، علماً بأن هذه الرؤية الدينية والثقافة الدينية التوراتية التي يحصنون بها الطلاب هي أقرب إلى الأساطير والخرافات التي تنتسب إلى العصور المتحجرة ، مع ذلك لم نسمع بأصوات النشاز التي تقول : إن هذا يعيق التقدم العلمي التكنولوجي ، ولم نلمح أثر هذه الإعاقة في عالم الواقع عندهم .

ولا نريد هنا أن نتكلم عن الواقع المأساوي لمادة التربية الاسلامية في مناهج التعليم في بعض البلاد الاسلامية .

وليس أمر اللغة هنا بأقل خطورة من أمر مادة التربية الاسلامية فهما وجهان لقضية واحدة ؛ فاللغة العربية عند بعض أبنائها العاقين عاجزة عن أن تكون لغة العلم والفن والأدب والاختراع في عصر العلم والتكنولوجيا وقد تكون في نظرهم سبب تخلفنا العلمي وعجزنا الحضاري ، وأن السبيل إلى النهضة مرهون بترك الاسلام والعربية لغة الاسلام . .

والأمر الغريب والمستغرب أن العقم اللغوي مقتصر فقط على المجال العلمي والتقدم الحضاري أمّا في مجال فلسفة الهزائم والقدرة على إيجاد مصطلحات وصيغ الاحتجاج فاللغة بحمد الله تملك الخصوبة والمرونة ، وهي قادرة على إمداد السياسيين بكل التعابير التي يريدون ، وقادرة أيضاً على الولادة وعدم العقم . . وكلما حصلت نكبة للأمة نجد اللغة قادرة على التعبير عنها ، فمصطلح النكبات والنكسات ومصطلح اللاجئين ومن ثم النازحين ومن ثم الوافدين إلى آخر هذه القائمة ـ التي لا ندري أندرك آخرها أم لا ـ . موجودة بحمد الله ، لقد أمتنا مصطلحات النصر والقوة والاختراع من لغتنا في حياتنا الحاضرة وبدأت الحياة والنمو لمسوغات الهزائم والنكبات .

هذا في الوقت الذي يحاول اليهود إحياء لغتهم العبرية . . اللغة المقدسة التي لا يمتلك غيرها من اللغات التقدم إلى مجالات العلم والفن والاختراع والأدب بكل مناحية ، انهم يفرضون وجودهم على العالم ويفرضون لغتهم على العالم ويحاكمون العالم من خلال رؤاهم الدينية .

ولا زلت أذكر مروري بباريس برفقة أحد الإخوة المختصين بالرياضيات المعاصرة (الرياضيات الحديثة) كيف أنه اشترى كتباً للرياضيات بالعبرية وقال

لي : بأن هناك مؤسسة يهودية في فرنسا تعمل وتتابع البحث في تحديث الرياضيات وتقدم الدراسات في هذا الموضوع ، وقد تكون دراساتها متقدمة على المؤسسات الأخرى التي ترعاها الدولة في فرنسا ولابد لاستكمال الموضوع من شراء هذه السلسلة ومن معرفة المصطلحات باللغة العبرية . فقلت : هكذا تتقدم العبرية على يد أبنائها وهكذا تنهزم العربية على يد المنتسبين إليها ، واللغة كائن حي يقوىٰ بقوة الأمة ويهزم بهزيمتها .

جنــود في جيــش العــدو

وليس من تكرار القول : أن نؤكد أن سرائيل تعرف ما تريد ، وتقدم رؤية دينية لشعبها تتصرف على ضوئها ، وتحاكم العالم من خلالها ، وترسم صورة الحل المطلوب على أساسها ،وما نراه اليوم من الاعلان عن ضم مرتفعات الجولان ، لايخرج عن كونه حلقة في السلسلة التي لاتحمل أية مفاجأة لكل الذين يتمتعون بحواسهم التي لا زالت سليمة ، فعملية قضم اليهود للجسم الاسلامي مستمرة ، وعلى كل المستويات ، وما قامت به إسرائيل هو إعلان لواقع استمرت في إقامته وتكريسه أربعة عشر عاماً من الاستيطان ، وإعطاء المناطق الأسماء والمصطلحات العبرية ، وتنشئة المستوطنين على انها مناطق محررة من أرض إسرائيل الكبرى ، وقد قدم بيغن (رئيس وزراء اسرائيل) للموضوع بفلسفة توراتية ومما قال في الكنيست :

« لايمكن لأحد عاقل في بلادنا أو خارج حدودها إلا أن يعترف بعدما يقرأ تاريخ إسرائيل أن الجولان كانت جزءاً من الأراضي الاسرائيلية »(!!)

وقال للسفير الأمريكي صموئيل لويس أثناء رده على موقف أمريكا من الموضوع :

« إن اليهود يعرفون ماذا يريدون . وهم سيحققون بقوتهم كل شعاراتهم الدينية . . إن الجولان أرض توراتية وقد استعادها الشعب اليهودي ولا توجد أية قوة في الأرض تستطيع أن تحملهم على التراجع عن قرارهم . . . »

ولابد من التذكير هنا أيضاً بقول ليفي اشكول بعد حرب حزيران ١٩٦٧م لما تقرر عقد الجمعية العمومية للأمم المتحدة :

« لن ننسحب من المناطق المفتوحة (كذا) أبداً ولو صوت مائة وواحد وعشرون عضواً من بين مائة واثنين وعشرين عضواً في الأمم المتحدة ضدنا ولم يبق في تأييدنا إلاّ صوت إسرائيل نفسها » !

وقول ديفيد بن غوريون :

« لاتتعبوا أنفسكم في البحث عن حل ، ليس هناك حل ، الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان ، ولابد أن تكون لواحد منهما فقط ، لابد أن يكون الشعب الاسرائيلي هو ذلك الواحد الذي يحصل على الأرض ويملكها ، والحل الوحيد بالنسبة لنا : أن نسعى بكل الوسائل بما فيها القوة والسياسة والخديعة لكي نجعل الطرف الآخر يرضى بالتنازل عنها »

فالقدس عاصمة إلى الأبد ، ولامجال للبحث في شأنها ، لأنها إرادة الرب ، والضفة الغربية حق للشعب اليهودي ، وهي الأرض التاريخية ، أرض الميعاد . .

إن اسرائيل تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع وتحدد مرحلته وتهيء الظروف المناسبة له وتنطلق من ثوابت تعتقدها وتلتزم بها ، وأية قضية لا يتم إنضاجها في إسرائيل من قبل فرد مهما كان شأنه ، ومهما كان عنوانه ، ومهما كانت تضحياته ومكانته التاريخية ، لأنها قضايا تخص الاسرائيليين جميعاً ولاتختص به .

فلابد من إنضاج كل شيء في المؤسسات المختصة وعن طريق استفتاءات الرأي العام فإذا لم يستطع فرد أو أفراد ذلك ، يتحولون عن الطريق ليأتي من ترتضيه الأمة ويكون الأكثر ملاءمة لظروفها ، ولانزال ـ نذكر جميعاً تشكيل لجان الدراسات المختصة في أعقاب حرب ١٩٧٣م ـ والكتب التي ألفت في دراسة الموضوع وبيان أسبابه ونتائجه (لجنة إغرانات ، وكتاب التقصير) وما أعقبه من تغيير .

والذي ينظر إلى بعض شعوب العالم الاسلامي لا يحتاج إلى إجهاد ذهنه ليرى أن الاستهتار بهذه الشعوب يفوق كل تصور ويتجاوز كل منطق فلو كانت هذه الشعوب قطعاناً من الماشية لنظر في شأنها وأخذت بعين الاعتبار في مأكلها ومناخ رعيها ومدى صلاحيته وملاءمته لها ، فالشعوب في عالمنا لا تستحق ما تستحق الماشية من رعاتها . . فكيف تستطيع المواجهة ويتحقق عندها الإيمان بها .

والحروب التي تقاد إليها وتقوم بينها لتستنزف طاقتها تدوم أعواماً وحربنا مع اليهود لاتستغرق أياماً . . !؟

وبعد : إن السلاح الوحيد الذي ينبغي أن يدخل معركة المصير ويحارب به هو الاسلام عقيدة وتربية وجهاداً في سبيل الله وتحصين الأمة بعقيدتها عدة كفاحها ودرع صمودها ، وهو السلاح الذي تخشى إسرائيل دخوله المعركة ولاتخفى الجهر بذلك .ـ وان الأمة ستظل تتردى في مهاوي الهزائم والنكبات الداخلية والخارجية ما دامت تأبى أن تطلب النصر من الله وتعد للنصر عدته .

وإن الذين يحولون بين الأمة وعقيدتها هم جنود في جيش العدو ، وهم الأعداء الحقيقيون لهذه الأمة ، يمزقون جبهاتها الداخلية ويقضون على مقومات المواجهة الصادقة مع اسرائيل .

اما أولئك الذين أعياهم السير في طريق الجهاد فنقول لهم ان قضية فلسطين هي قضية الأمة الاسلامية بكل أجيالها وتاريخها وعقيدتها والأولى لهم أن يتركوا الأمة في مواجهة العدو ومقابلة التحدي ، من أن يقدموا لها مبررات ومسوغات للهزائم المتوالية ، وما النصر إلا من عند الله .

[ربيع الآخـر ١٤٠٢هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٢م]

رمضــان . . شــهر القــرآن

﴿ . . يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ (الزمر : ٥٣)

وتمر الشهور وتتقلب السنون ، ويظلنا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ليعيد إلينا المعاني الكبيرة ، والكبيرة جداً التي تشكل بمجموعها معالم الحياة الإسلامية ، وقيم الدين ، التي يجب أن لا تغيب عن حياة البشرية ، في رحلتها الطويلة وأحوالها المتبدلة وحاجاتها المتجددة ، ونزوعها النهم إلى الإشباع المادي والجنسي الذي لا حد له ، والذي يقودها إلى الأثرة والطغيان ، ومجتمع الإباحية . .

إن التأكيد على هذه المعاني الخيرة ، التي يحمل دلالاتها شهر القرآن والتدريب عليها شهراً في كل عام ، لا يعتبر من قبيل الإعادة والتكرار ، وإنما يعني فيما يعني التجديد والتعميق والرعاية والتنمية لها والتربية عليها وإزالة الغبش والران الذي يمكن أن يلحق بها ، كما أنه يعني الحماية لها من الغياب عن حياة المسلمين ، والضمان لاستمراريتها ، لأن غياب البعد الإيماني واغتيال الشياطين ، حاصل في حمأة الحياة المادية وسيطرة الشهوة الجنسية . . ذلك أن الأمر الذي استذل البشرية وعبّد رقابها وتحكم بها تاريخياً

هو شهوتا البطن والفرج ، فهل تعني العودة إلى تناول الطعام الذي به قوام الجسم من قبيل التكرار ؟!! فإذا كان هذا بالنسبة لغذاء الجسم فأين هو من غـذاء العقل ورواء الروح ؟!!..

لذلك كانت العودة لتأصيل هذه المعاني ، وتأكيدها وتعميقها لتصبح منهجاً للمسلم يأخذ بها سلوكه وتصطبغ بها حياته .. لا يمكن بحال من الأحوال أن تحكمها قاعدة التكرار وعيوب التكرار ، وتستوي في ذلك العبادات كافة الصـلاة المتكررة في اليوم خمس مرات ، والزكـاة ، والصيـام الذي يعاودنا في العام مرة ، والحج المفروض في العمر مرة أيضاً ..

إن العبادات في الإسلام لا تغني فيها الواحدة عن الأخرى حيث لكلٍ وظيفتها وضرورتها في بناء الشخصية الإسلامية ، فهي جميعها غذاء العقيدة والتعبير الإيجابي والعملي عنها .

إن الإنسان مجبول من دوافع الخير ونوازع الشر ، وطريق الخير واحد وطرق الشر كثيرة على رأس كل واحد منها شيطان يغري بها ، ونزوع الإنسـان إلى الشر قائم ودائم فلابد له من ديمومة حراسة ويقظة وتزود بطاقات تضمن ديمومة تغلب دوافع الخير على نوازع الشر .. ولا يتأتى هذا إلا بالعبادات عامة وبصيام رمضـان شهر القرآن خاصـة .

فالرسول المعصوم ﷺ الذي هو محل الأسـوة والقدوة كان أجود الناس ومع ذلك كان أجود ما يكون في رمضـان .. إنه الجود الذي يكبر ويزداد ولا يحول دونه أي عائق حتى يصير أجود بالخير من الريح المرسـلة ..

ذلك أن الصيام : هو التربية الحسية المادية على الإحساس بجوع الجائعين ، والشعور بحاجة المحتاجين .. إنه التكافل الاجتماعي الذي يربي عليه الصيام الفرد المسلم ليكون المرآة الصادقة له والنافذة الصحيحة لاستشعاره .. إذ لا يمكن للإنسان المترف أن يحس بصدق وحسن تقدير لحاجة الفقراء كما لا يمكن للإنسان المتخم ، أن يحس بصدق واستجابة لتضوع الجائعين والمحتاجين .

إنها دورة المعاناة المفروضة ومركز التدريب الذي لا يقتصر على الزعيم والقائد والكاتب والمفكر والغني والفقير والطبقة . إنما هي المعاناة التي تنتظم الجميع فتشعر بالتساوي ، وتلغي التمايز ، وتحقق التكافل حيث لا يؤمن من

بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم .. إنه الشعار المرتبط بالشعيرة ؛ شعيرة الصـــوم ، ومطابقة القول العمل .

نزعـــة التَـــأَلُّه ..

ولعل المعاني هنـا يستدعي بعضها بعضاً ... فعلى الرغم من أن الحس بالحاجة هو الطريق الوحيدة لتقدير حاجات الناس ، واستشعار المسؤولية إلا أن لهذا الحس وجهاً آخر أيضاً - على غاية من الدقة والأهمية - إنه إشعار للإنسان ببشريته المحتاجة ، ووسيلة لتحقيق العبودية لله وإلغاء نزعة التأله والاستغناء التي يعيشها بعض الناس ، بدافع من سلطة أو مال أو جاه أو منصب . فتعود إلى الحياة صورة النمرود الذي يظن بأنه يحيي ويميت ، والفرعون الذي يتوهم أنه الرب الأعلى ، وقارون الذي يظن أن المال كل شيء في الحياة .. فيكون البغي والظلم ، ويسام الناس الخسف ويرهقون بالذل ويُسْتَخَفُّونَ بالطاعة .. إن الفقر والأيام الشداد قد تكون ضرورة تربوية لحمل الإنسان إلى شكر النعم ، وذلك بوضعها حيث أمر المنعم ، ويحس معها أنه عبد محتاج لخالقه ..

إن رمضان يعيد هؤلاء الجانحين إلى صوابهم ويشعرهم بأنهم عبيد محتاجون وبشر ضعاف . فتتوقف نزعة التأله التي عانت منها البشرية ولا تزال ، ذلك أن معظم الشر في العالم كامن في تسلط الإنسان على الإنسان ، وأن هذا التأله أخذ في التاريخ صوراً وأشكالاً متعددة : من تأله الإقطاعي ، ورجل الدين ، والحاكم الديني في العصور الوسطى إلى الطبقة والحزب والزعيم وما سوف تأتي به الأيام وكلما اكتشف الإنسان صورة استبدلها المتألهون بأخرى ، ويبقى التأله هو التأله !!!

ولقد مورس هذا التأله على العبـاد حتى أصبح لازماً عند بعض الأمم حيث زرعت القابلية له وصعب الانفكاك عنه ، فكان شعارهم « اجعل لنا إلـهاً كما لهم آلهة » أفلا تستحق هذه النزعة التي كانت سبباً في شقاء البشرية ، ديمومة المعالجة وديمومة التحصين ضدها بما شرع الإسلام من عبادات وعلى رأسها عبادة الصوم !!!

ملكـــة الفرقـــان

أي فضل لهذا الشهـر على أشهر السنة يمكن أن يكون أكبر من نزول القرآن .. إنه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، إنه الشهر الذي قدر الله له من بين شهور السنة جميعاً أن تتحقق من خلاله صلة السماء بالأرض لتستقيم مسيرة الحياة بعد هذا التيـه والشتات والضلال وتلتقي على الخير .

كان رمضان هو الموسم الذي أراد الله فيه أن ينزل ﴿ ... الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .. إنها البينات التي لا بد من الاستمرار على الصلة بها حتى لا تضل بنا الطريق ولا تزل بنا القدم حتى تتحقق فينا ملكة الفرقان ، وهي أهلية يختص بها المسلم الملتزم دون سواه .. إنها النظر بنور الله والسير على هدي رسول الله ﷺ ، ولا تتحصل مكونات أهلية الفرقان من خلال نظرة فلسفية باردة لتعاليم الإسلام تعوزها حرارة العقيدة واستجابة السلوك وحركية الدعوة والعمل الإسلامي ، كما أن ملكة الفرقان هذه ليست كما يظن بعض الناس ، أنها تعني المزيد من التحفز العاطفي ، والتجديد للتوثب الروحي ، بعيداً عن القدرة على الإبصار ، والإدراك ، والتعرف على مسالك الأمور ، والامكانية الفعلية المخلصة على التمييز والتفريق بين الخير والشر ، بعيداً عن الهوى .. إن الهدى والفرقان هما توفر عنصري الإخلاص والإدراك ، وسوف لا تحل المعادلة الصعبة التي يعاني منها عالم المسلمين اليوم بتحقيق أحد طرفي المعادلة ، إنها لا تحل بالإخلاص فقط على أهميته وضرورته للخلوص من الهوى والنزوة ، كما أنها لا تحل بالإدراك وحده الفاقد لعنصر الإخلاص الذي يعتبر الموجه الحقيقي إلى الخير والعاصم من الشر ، وبذلك نبقى نتأرجح بين جلد الفاجر وعجز التقي اللذين استعاذ منهما سيدنا عمر رضي الله عنه .. ذلك أنه لابد لنا من الهدى والفرقان معاً .. ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ ولعل في رواية علي رضي الله عنه لحديث رسول الله ﷺ عن القرآن فيها كل البصائر لما نقول :

روى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في الجنة

أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج ؟ قال : كتـاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . . من علم علمه سبق ، ومن قال به صـدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم » .

إن توفر عنصري الإخلاص والإدراك سوف يتحققان من تدبر آيات القرآن الكريم والتعرف على السنن التي شرعها لحكم الحياة والأحياء ، ومن الاستجابة كذلك بممارسة الإسلام عقيدة وعملاً وعبادة وسلوكاً .

ولعلّ صوم شهر رمضـان هو الموسم الذي يربي عنصر الإخلاص ، فـ [كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به . . يدع شهوته وطعامه وشرابه لأجلي] . . وتلاوة القرآن وتدبر آياته والتبصر في قوانينه وسنن منهجه ، هو المخرج من الفتن التي عميت فيها المسالك . . إنها « . . . كقطع الليل المظلم . . . » يمسي الرجل فيها مؤمناً ويصبح كافراً ، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل . . فتن تدع الحليم حيران . . إنه شهر القرآن ، شهر نزوله وشهر مدارسته . .

فهل يكون رمضان فرصة للعودة إلى القرآن ، دستور الثقافة الإسلامية ، والسبيل الوحيد للخروج من المأزق ، من قطع الليل المظلم حيث تكثر الرايات العمية في الوقت الذي أصبح معه تمزقنا الثقافي وعنتنا الفكري والسياسي لا يخفى على أحد ، لقد افتقدنا الالتزام بقيمه الثابتة بعد هذه الحيدة وهذا العقوق وهذا الهجر الذي نعيشـه ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ... ﴾ (الفرقان : ٣٠) ، وأية أمة من الأمم تمتلك من القيم الثابتة المجمع عليها ما يمتلك المسلمون ؟!! . . .

الرشـــد العقـــلي

إن شهر القرآن ضمانة للاستمرار في الخير وشيوع مناخه وأجوائه والتدريب عليه والالتزام به ، وفرصة للمراجعة والعودة إلى الله . . قال رسول الله ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين . . . » ولو حاول أي إنسان أن يترصد ذلك في حياة الناس ، وخاصة المسرفين على أنفسهم لوقع على مئات الشواهد والدلالات .

إن الكثير من عمليات التحول عن طريق الشر إلى طريق الخير إنما يكون في هذا الشهر الكريم ، ونسمع كثيراً من العهود والوعود التي يقطعها المذنبون على أنفسهم بأن رمضـان هذا العام سوف يكون المحطة الأخيرة التي يتوقف عندها الإسراف والتقصير والتفريط في جنب الله . . وكثيرون كثيرون هم الذين يشكل رمضـان منعطفاً في حياتهم ، فهم قبل رمضـان غيرهم في رمضان وبعد رمضان . . لقد « . . . فُتِّحت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين ونادى المنادي يا باغي الخير أقبل وياداعي الشر أدبر . . . » خاصة وأن الله يغفر الذنوب جميعاً .

قال تعالى : ﴿ ... يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٥٣) .

ولسنا الآن بسبيل أن نتكلم عن أثر الخطأ النفسي في سلوك الإنسان ، وعن واقع هذا الإنسان الذي يعيش طريداً لأخطائه محاطاً بها قلقاً من أثرها النفسي . وما للتوبة التي فتح الله أبوابها أمام الإنسان دائمًا ـ وفي رمضان بشكل خاص ـ من أثر في عملية التجدد النفسي والخلوص من الخطيئة التي تنغص الحياة . . قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ، فلو أنعم الإنسان النظر في الآثـار النفسية للتوبة واطمأن إلى قبولها لانقلب من خاطىء معذب النفس مسدود الطريق يعيش عقدة الخطأ التي تورث السلبية والشعور بعدم الصلاحية والتشاؤم إلى إنسان فاعل إيجابي يملأ نفسه الرضى والاطمئنان والتفاؤل والتجدد . .

إن الصيام يمكن أن يعتبر إلى حدٍ بعيد من مراحل التحول والمنعطفات الكبيرة

في حياة الأفراد والجماعات . . إنه محطة تغلق عندها أبواب الشر ، وتسد منافذ الشيطان على النفس ، وتفتح أبواب الخير وترسم طرقه وتستبين سبله . فيتابع الإنسان خطاه صوب المستقبل بما يمنحه رمضـان من الطاقات الخيرة . . لذلك نرى بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى آيات الصيام عقب عليها بقوله :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦) . . إنه الرشد العقلي والكمال النفسي الذي يحققه الصيام .

المراجـعة .. والتدبـر ..

إنه شهر اعتكاف . . وليس الاعتكاف إلا عكوف على الذات لمراجعتها وتجديد الجوانب الشائخة والهرمة فيها ، والنظر في التقصير وبناء الذات طبقاً للمنهج الإسلامي ، ووضع اليد على الأخطاء ودراسة أسبابها ومعالجة آثارها في النفس والمجتمع . إنه شهر الاعتكاف والتدبر . قالت عائشـة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأخير من رمضـان شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله . .

وبعـــد . . .

فهل يكون شهر رمضان موسماً للعودة إلى الله ، وفرصـة لمراجعة الحساب والتقصير في جنب الله على أكثر من صعيد ؟

هل يكون فرصة للظالمين ليعيدوا النظر في سلوكهم ويفكروا في مصيرهم ويعتبروا بغيرهم ، حيث يأتون يوم القيامة شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلّة ، مهطعين مقنعي رؤ وسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، ويدركون أن الله يمهل ولا يهمل فيتداركوا الأمر قبل فوات الأوان ؟ ذلك أن دعوة المظلوم لا ترد وليس بينها وبين الله حجاب ، وأن الله سينتصر للمظلوم ولو بعد حين . . قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : المظلوم والصائم والحاكم العادل » ، فكيف إذا كان مظلوماً صائماً ؟ ! ! فالرجوع إلى الحق والعدل ليس جبناً ولا ذلّة ، وإنما هو بطولة وشرف وكرامة . . .

وفرصة للمسرفين على أنفسهم القانطين من رحمة الله ، المعذبين بالأخطاء

والآثام لسماع كلام الله : ﴿ ... لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ... ﴾ (الزمر : ٥٣) بقلوب واعية فيعودوا إلى الجادة ويلتزموا الحياة الإسلامية النظيفة . .

وفرصة للعاملين في الحقل الإسلامي ليوقفوا التراشق فيما بينهم وليعيدوا النظر بهمتهم ، ويدركوا أنهم يحملون أشرف دعوة ويعملون لأنبل غاية ، فيوطنوا أنفسهم ، ويعاهدوا الله أن يكونوا بمستوى إسلامهم وعصرهم فيتخلص العمل للإسلام من التمحور حول النفس والطواف حول الذات . . فما عند الله خير وأبقى .

وفرصة للذين يحاولون توظيف الإسلام لمصالحهم الشخصية ويبيعون أنفسهم وإسلامهم في السوق السياسية الرخيصــة ، فينقلبوا إلى أدوات تحرك وليس لها من الأمر شيء ، فيدركوا أن شرعية الوسائل من شرعية الغايات فيعيشون للآخرة . . وأنهم مهما حاولوا تبرير سلوكهم أمام الناس فإن الله مطّلع عليهم ، وسوف يوقفهم ويسألهم ، وأن هذا الدين محفوظ بحفظ الله له ، وسوف ينفي عنه الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد . .

وفرصة للدعاة إلى الله ، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر ، ليعيدوا النظر في وسائلهم وطرائقهم ، ذلك أن دعوة الناس إلى الإسلام إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليست بالإكراه ، فمن كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف ، وليستمعوا إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل‌عمران : ١٥٩) .

وفرصة للفرد المسلم ليعيد النظر في موقعه الذي هو فيه الآن . . ما يقدم هذا الموقع للإسلام من فائدة ، ويدرك أن الطاعة في الإســلام مبصرة وأن المسؤولية فردية ، وأن لا يرتكس إلى المفهوم الحزبي الجاهلي فينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً ! !

بل يلتزم المفهوم الإسلامي بأن ينتصر للمظلوم برد ظلامته ، وينتصر للظالم بالأخذ على يديه . . فالتعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان .

فتسود المناصحة الصف المسلم ، ويفوز بالنصر في الدنيا والثواب في الآخرة .

وفرصة لبعض القادة والزعماء والحكام ليكونوا عند أمل أمتهم فيوقفوا الخصومات والحروب التي لا تدفع ثمنها إلا الدماء المسلمة ، ويستشعروا

المسؤولية المنوطة بهم ، فلا يفرطوا بشبر من الأرض الإسلامية ، فيجمعوا أمرهم ويلتزموا قيمهم ويواجهوا عدوهم صفاً واحداً ، وتتوقف من حياة الأمة الإسلامية مرحلة الشعارات والفلسفات المهزومة لتبدأ عمليات الإنقـاذ والمواجهة الحقيقية . .

وفرصة للأغنياء والمترفين لمراجعة الحساب والحس بحاجة الفقراء ، وشكر النعمـة بوضعها حيث أراد المنعم ، فيساهموا في إنقاذ الجائعين في العالم الإسلامي ويعلموا أن إيمانهم معرض للخطر إذا لم يطعموا الجائع ، ويكسوا العاري ، ويغيثوا الملهوف . .

وفرصة لكل مسلم ليدرك أن التساهل بالصغائر يؤدي إلى الكبائر ، فيوقف الغيبة والنميمة وسوء الظن ، هذه العلل النفسية التي ابتلينا بها حتى استسهلناها ، ويرسم لنفسه منهاجاً يلتزم به ويتدرب من خلاله على المعاني الإسلامية لتصبح جزءاً من حياته اليومية ، وبذلك يكون الفرد الرباني الذي يصطبغ سلوكه بالإسلام فيمتلك اليد المسلمة والرجل المسلمة والعين المسلمة والأذن المسلمة بحيث تتحرك جوارحه جميعها الحركة الإسلامية التي شرعها الله لمن يحبه ، ذلك أن رمضان فرصة للاستزادة من النوافل قال تعالى : [ما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها . . .] اللهم بـارك لنا في رمضـان وأعنّا فيه على الصيـام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان . . . واجعلنا من عتقـائـه من النـار . .

[رمضان ١٤٠٣هـ - حزيران (يونيه) ١٩٨٣م]

قراءة في ثلاث أوراق تاريخية

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
(يوسف : ١١١)

لا نريد بعرض هذه الأوراق المأساوية من تاريخنا أن نقدم إضافات لصور المآسي والمعاناة التي نعيشها ، وألواناً كثيبة من الإحباط واليأس التي تلحق بنا على أكثر من مستوى ، والتي باتت تملأ علينا حياتنا ، وترافق طعامنا وشرابنا ويقظتنا ومنامنا حيثما تلفتنا . . ليس هذا هو المقصود ، ولو كان هذا مقصودنا لا كتفينا بالصور المأساوية القائمة التي نعيشها صباح مساء ، تحملها إلينا أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة عن فظائع يهود وأفاعيلهم في بيروت الغربية ، بل للمسلمين في بيروت ، ولا كتفينا بمأساة الصمت العربي أيضاً ، الذي لم يخرج في حقيقته عن أن يكون جزءاً من الصورة ومن بعض لوازمها أيضاً ، ولكان ذلك جديراً وحده بتحقيق الانكسار النفسي والقنوط الذي أريد لهذه الأمة ، ليس هذا هو المقصود ، وانما المقصود حقيقة أن نقول : إن هذه الأمة عانت في تاريخها الطويل من صور المآسي والنكبات ما تكفي الواحدة منها لإزالتها من الوجود ، ومحوها من خارطة العالم ، لكن الأمة المسلمة ـ تاريخياً ـ تحقق لها من عوامل الصمود والاستمرار ، وعدم

الذوبان والاضمحلال في أيام الغلبة والانكسار قدراً لا يقل عن عوامل القوة في أيام الفتح والانتصار .

إن الذي يقرأ في هذه الأوراق التاريخية التي نقدمها اليوم دون أن يتابع رحلة القراءة في التاريخ ليتعرف كيف استطاعت الأمة تجاوز محنتها في أكثر من مجال ، سوف يحكم عليها بلا أدنى شك بأنها انتهت إلى غير رجعة ، ذلك أن الاجتياح كان ساحقاً ماحقاً لا يبقي ولا يذر ، سواء في ذلك حملات الاستعمار القديم أم نكبات الاستعمار الحديث ، مستهدفاً القضاء على الوجود الاسلامي مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ..﴾ (البقرة : ٢١٧)

على الرغم من ذلك كله استطاعت الأشلاء الباقية في كل مرة أن تلملم جراحها وتتعرف على مواطن الضعف في حياتها التي كانت منافذ للعدو ، وتتلمس مواطن القوة لتنطلق منها مرة بعد مرة . .

من هنا نقول :

إن هذه الأوراق التاريخية ليست لمزيد من اليأس ، وإنما معالجة لليأس والسقوط والقنوط ، وليست القراءة التاريخية بدعاً منا ، وإنما هي طريق الأمم الطبيعي عندما تمر بها أزمة ، أو تجتاحها محنة ، إنها ترجع إلى قيمها تستوحي منها القوة ، وتتعرف منها على مواطن الضعف ، وتعود إلى قراءة تاريخها مرة بعد أخرى ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف : ١١١) .

وهذا ليس هروباً من الواقع كما يتوهم بعضهم من ضحايا التضليل الثقافي ، وليس استمراراً للعيش في مناخ الهزائم ، وإنما هو التفتيش عن الوسيلة الأفضل لمواجهة الواقع وتجاوزه ، لأننا إذا قبلنا بمنظومة القيم القائمة والوسائل المستخدمة التي حملت لنا الويلات والدمار ، معنى ذلك أننا مانزال مصرين على السير في الطريق المسدود ، وقبول الواقع الحالي الذي لا يخرج في حقيقته عن أن يكون نتيجة طبيعية للمقدمات التي صنعناها بأيدينا ، الأمر الذي بات معروفاً للقاصي والداني ، ولا يتطلب مزيد جهد ونظر ، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن تنتصر الشعارات المرفوعة التي أريد لها أن تكون بديلة عن القيم الاسلامية في حياة الأمة المسلمة ، والتي ترفعها الأيدي الملطخة بدماء المسلمين الضالعة في

مخططات التسوية المرسومة مسبقاً والمنفذة بدقة ومرحلية . .

هذه الأيدي التي حاولت باستمرار سلخ الأمة عن عقيدتها ، عدة كفاحها ودرع صمودها ، والتي لا تخرج في حقيقتها عن أن تكون جنوداً في جيش العدو . .

فالتاريخ ذاكرة الشعوب ، وهو المعلم والمرشد ، فهل ماتزال لنا ذاكرة تحمل لنا البصارة أم مورست علينا ، كجزء من المعركة ، عمليات الإخلاء والإملاء كما يقولون ، لنبقى عاجزين عن قراءة تاريخنا والاستفادة منه والاعتبار بحوادثه ؟! نبقى كالشجرة المترنحة التي تتقاذفها الرياح يمنة ويسرة ، لا جذور لها ، ومالها من قرار .

ولابد من الاعتراف ابتداء بأن موقفنا من تاريخنا إلى الآن لم يتجاوز الموقف العاطفي ، أما الدرس والعبرة ، وتلمس معالم الشخصية الاسلامية ، والتعرف على مواطن الضعف لتجنبها وعوامل النصر والنهضة لا لتزامها ، فهذا أمر متروك لاستفادة عدونا ، لأننا أمة تعيش خارج التاريخ ، أو هكذا أريد لها على الأقل .

والغريب أن تاريخنا الاسلامي يقرأ لنا بشتى القراءات ـ التي تبعدنا عنه ، وتعطل الفائدة منه ـ عدا القراءة الاسلامية على الساحة الاسلامية . . . يفسر تاريخنا تفسيراً مادياً ، ويفسر تفسيراً عنصرياً أو شعوبياً ، ويفسر تفسيراً علمانياً ، وقد يفسر تفسيراً باطنياً . . والذي تتاح له قراءة شيء من مناهج التعليم في المناطق الخاضعة للاحتلال اليهودي ، يرى أن أطفال المسلمين اليوم ضحايا التفسير اليهودي التوراتي للتاريخ .

إن العدوان العسكري كان موازياً دائماً للعدوان الفكري على قيم هذه الأمة وتاريخها ، ولا شك أن العدوان على التاريخ جاء أكبر بكثير . .

نعود إلى هذه الأوراق التاريخية التي نطلب إعادة قراءتها علّها تحمل الكثير من التفسير لواقعنا الذي نعاني منه :

الورقة الأولى كانت عن مسير القرامطة إلى مكة ، وما فعلوا سنة ٣١٧هـ كأنموذج للكيد الباطني المبكر ، والجرثوم الذي وضعه اليهود في جسم هذه الأمة ، والذي كان ولا يزال يستيقظ كلما ضعف هذا الجسم ، يحاول القضاء عليه . .

والورقة الثانية كانت عن الحملات الصليبية وأفاعيل الصليبيين عند احتلالهم بيت المقدس ، والخدمات التي قدمت لهم على السواحل الاسلامية ، وهم في الطريق إليها ، حتى تمكنهم من رقاب المسلمين . . فهل يُعاد التاريخ نفسه اليوم ، ذلك أن اختلاف التسميات في كثير من الاحيان لا يغير شيئاً من حقيقة المسمىٰ . .

أما الورقة الثالثة فكانت عن الغزو المغولي التتري المدمر ـ أو بعضاً من أخباره ـ الذي جاء ليقضي على البقية الباقية من حراك الجسم الاسلامي والفكر الاسلامي ، فماذا كانت النتيجة ؟

القرامطــة في مكة المكـرمة . .

. . حج بالناس في هذه السنة (٣١٧هـ) منصور الديلمي ، وسار بهم من بغداد إلى مكة ، فسلموا في الطريق ، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية ، فنهب أموالهم واستباح قتالهم ، فقتل في رحاب مكة وشعابها ، وفي المسجد الحرام ، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً ، وجلس أميرهم أبو طاهر ، لعنه الله ، على باب الكعبة ، والرجال تصرع حوله ، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام يوم التروية ، الذي هو من أشرف الأيام ، وهو يقول :

«أنا الله وبالله ، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا . .»

فكان الناس يفرون منهم ، فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً ، بل يقتلون وهم كذلك ، ويطوفون فيقتلون في الطواف ، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف ، فلما قضىٰ طوافه أخذته السيوف . .

فلما قضىٰ القرمطي ، لعنه الله ، أمره وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة ، أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم ، ودفن كثير منهم في أماكن من الحرم وفي المسجد الحرام . . لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم لأنهم محرمون . . وهدم قبة زمزم ، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها ، وشقها بين أصحابه ، وأمر رجلاً أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه فسقط على أم رأسه فمات إلى النار . . ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود ، فجاء رجل فضربه بمثقل في

يده ، وقال : أين الأبابيل ، أين الحجارة من سجيل ، وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم ، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة . .

وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنيع أنهم كفار زنادقة ، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنة ببلاد أفريقية من أرض المغرب ، ويلقب أميرهم بالمهدي ، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح ، وقد كان صباغاً بسلمية ، وكان يهودياً فادعى أنه أسلم ثم سافر من سلمية فدخل بلاد افريقية ، فادعى أنه شريف فاطمي . . وكان القرامطة يراسلونه ويدعون إليه ويترامون عليه . .

الحافظ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ (١١/١٦٠ ـ ١٦١) .

فماذا كانت النتيجة ؟ لقد احترقت الورقة القرمطية وعاد المسلمون إلى الاعتزاز بإسلامهم ، وكانت المشروعية العليا في حياتهم للكتاب والسنة ، واعتبرت فترات الخروج والرفض من الفترات المرضية التي مرت بها الأمة ، وليس من المستغرب ـ ونحن نعاني ما نعاني ـ ظهور القرامطة الجدد الذين يمارسون التشويه والعدوان على تاريخ الأمة ، وتُدرس الحركة القرمطية في بعض جامعات العالم الاسلامي على أنها ثورة تقدمية رائدة ؟!

الصليبيـون في بيت المقدس ..

«وملكوها ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان (٤٩٢هـ) وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، **وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم** . . وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة ، وأخذوا تنوراً من فضة ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً ، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً ، وغنموا ما لايقع عليه الاحصاء»

الكامل : (١٠/٢٨٣ وما بعدها) لابن الاثير ، والبداية والنهاية (١٢/١٥٦ وما بعدها) لابن كثير .

« استباح الفرنجة بيت المقدس ، وأقاموا في المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون ، وأحصي القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون . . »

العبر (٥/١٨٤) لابن خلدون .

«كان قومنا يجوبون ، كاللبوات التي خطفت صغارها ، الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، فكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً ، وكانوا لا يستبقون إنساناً ، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة . . وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث . . . ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، فأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتياتهم وكهولهم إلى أنطاكية ليباعوا فيها . .

لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها ، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة . .

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهالي القدس قاطبة ، فانهمكوا في كل ما يستقذره الانسان من ضروب السكر والعربدة . . »

غوستاف لوبون (حضارة العرب : ٤٠٠ وما بعدها)

«حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من شدة الفرح ، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمور في معصرة العنب ، واتجهوا إلى الناووس ، ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء لله شكراً . . »

(Wells : A Short History of the Middle East P:74)

« وتحركت جموع الصليبيين بعد انطاكية تجاه بيت المقدس ، وفي

الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة ، وهم قوم أشداء ، ومقاتلون بواسل ، فأسدى هؤلاء إليهم خدمات جليلة لمعرفتهم تلك المنطقة ، فكانوا الأدلاء لهم . . »

(Willism of Tyrd Vol : 2p:429)

وموسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي (٥٩٣/٥ وما بعدها)

وحتى إذا أطلت طلائع الصليبيين أمكن الموارنة أن يمدوهم بثلاثين ألف نبال ، أجمع الفرنجة على الإعجاب لشجاعتهم ومهارتهم . . فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونية . . فلا وطن لها سواه ، ولا كيان له بدونها . .

فؤاد أفرام البستاني في محاضرته عن مار مارون (التبشير والاستعمار : ٢٨)

هولاكــو في بغــداد ..

« ووصل بغداد ـ **هولاكو خان** ـ بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الأخر ، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية ، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة ، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي . . لهذا كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة ، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان . .

وأحضر الخليفة بين يدي **هولاكو** ، فسأله عن أشياء كثيرة ، فيقال : إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته المولى نصير الطوسي والوزير ابن العلقمي ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة . . وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة . . وحسنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله ، ويقال : إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ، والمولى نصير

الطوسي ، وكان الطوسي عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت ، ليكون في خدمته كالوزير المشير . . وقتل الخليفة ، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء . .

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان . . وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم ، فيهربون إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة . . وكذلك في المساجد والجوامع والربط ولم ينج أحد منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي . . وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة . . وقد اختلفت الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة ، فقيل : ثمانمائة ألف ، وقيل : ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل : بلغت القتلى ألفي ألف نفس . . فإنا لله وإنا إليه راجعون»

ابن كثير ، البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٠ وما بعدها) .

«استولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ) (١٢٥٨م) فخربوها ، وخنقوا الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله ، ونهبوا ما في بغداد من الأموال ، وحرقوا كتبها التي جمعها محبو العلم ، وألقوها إلى نهر دجله ، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالاً وركباناً ، وأصبح ماؤه أسود من مدادها ، كما روى قطب الدين الحنفي . .

ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أحرقوا النار في المباني وحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم ، خضعوا لسلطان حضارة العرب في نهاية الأمر ، حتى إن هولاكو الذي أمر بهدم بغداد وبجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب . .

ففي المدرسة العربية تمدن المغول ، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم . . وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية المناحي ، فأحلوا بذلك حضارة العرب محل حضارة الهند القديمة ، فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتى اليوم . .»

غوستاف لوبون (حضارة العرب : ٢٢٣)

« كان للغزو المغولي عنف الإعصار وشدته ، فأحرق بغداد ، وعلا شعار الصليب على منابر المساجد ، فالأخبار التاريخية تروي أن زوجة هولاكو كانت نصرانية ، وأن النصرانية كان لها انتشار بين المغول ، كما كانت هناك صلات بين المغول والصليبيين . . وقد ظهر أثر هذا التحالف عند دخول المغول بغداد ، فلم يتعرضوا للنصارى من أهلها بسوء ، بل كانت بعض بيوتهم مأمناً التجأ إليها بعض المسلمين فنجوا من الهلاك على حد رواية ابن الفوطي !! بل بلغ الأمر حداً أكبر من ذلك عندما منح هولاكو بطريرك النساطرة قصراً من قصور الخليفة اتخذه مقراً وكنيسة وأغدق عليه العطايا . . » رانسمان (الحروب الصليبية : ٥٥٢/٣)

وبعـــد :

هذه الصور المأساوية التي عرضنا لها من خلال الأوراق الثلاث وتركنا أمر الدراسة والاستنتاج والتعرف على الجذور التاريخية للقضايا التي نعاني منها اليوم للأخ القارىء دون مداخلة منا تذكر ، نقول : هل استطاعت هذه المحن تدمير الأمة المسلمة وإنهاءها إلى غير رجعة ، أم أن الأمة استطاعت أن تتجاوز المحن وتجدد شبابها في كل مرحلة ؟!

ونحن على يقين بأن الله سوف يهيىء لدينه من يحمله ويدافع عنه ، وأن أسلحة الغزو الفكري والاجتياح العسكري سوف تسقط في يد أصحابها ، فقد عجز الغزو الفكري ، كما فشل الغزو العسكري تاريخياً ، في تحطيم أفكار الأمة المسلمة وإلغاء شخصيتها الحضارية . .

وكان القرآن الكريم هو القوة الفاعلة ، والحصن الثقافي الذي حفظ الأمة من الذوبان ، والقوة التي تعين على الثبات والمقاومة في حالات الغلبة والاضطهاد .

أجـــداد وأحفـــاد

لقد ارتكب يهود من الفظائع على مسلمي لبنان ما يعز عن الوصف ، ولم نحس نحن تجاههم بواجب الأخوة ، بل كنا دون سوية الموقف الإنساني ، واكتفينا من الواجب بمهمة المراسل الحربي الذي تخضع تقاريره للرقابة أيضاً !! حتى إن الكثيرين منا ، الذين تعودوا الأكل بالقضية ، لا يزالون إلى الآن يحاولون الصعود على جثث أصحابها !!

ان عملية تهميش القضية الفلسطينية خطط بذكاء ودهاء ، ونفذ على مراحل ، فمن قضية فلسطين ، إلى مشكلة لاجئين ، إلى قضية الشرق الأوسط ، إلى أمن اسرائيل . . وهكذا تتضاءل وتهمش القضية شيئاً فشيئاً حتى تصبح قضية بيروت الغربية وإخراج الفلسطينيين حفاظاً على أرواح الناس ، أما دخول اليهود وقتلهم الناس بالجملة واستباحتهم لكل شيء فلا علاقة له بالأرواح ؟!

إن أمر المزايدات في السوق السياسية والعقائدية ليس جديداً على أمتنا . . فعبد الله بن أبي بن سلول ، زعيم النفاق والمنافقين ، كان يصلي في الصف الأول ، وهو الذي تولى كبر الإفك ، كما هو معلوم ، فإذا وجد ابن ابي في عصر النبوة حيث الوحي يفضح المنافقين وأساليبهم ، ويكشف للرسول ﷺ أسماءهم فإن في تاريخ القضية الفلسطينية وتاريخنا الحديث من أحفاد ابن سلول ما لا يمكن حصرهم . .

ومع ذلك ، فنحن على يقين بأن الشدائد والمحن تصنع الرجال ، وتبصر الأمة بأعدائها الحقيقيين ، وأن اشتداد التحدي يصقل الرجال ، ويقيم الحضارات ، ويقضي على الخلايا الشائخة في الأمة وينهي دور الجيل الرخو . . . وأن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، ولد في ظل الاحتلال الصليبي الجاثم بكلكله على البلاد منذ زمن ، وهو الذي كان استنقاذ القدس على يديه . . وأن نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام تربى في قصر فرعون ، وكتب الله على يديه تدمير القصر وإنهاء الظلم فيه ، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص : ٨) وأن في تاريخنا من المحن والبلايا ما يكفي للدلالة على قدرة هذه الأمة على تجاوز المحن والشدائد . .

فهل نعي الدروس ونستفيد من العبر ، فالعاقل من يعتبر بغيره والأحمق من يكون عبرة لغيره .

[ذو الحجة ١٤٠٢هـ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢م]

حتى لا نهزم حضارياً

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩)

الموضوع الذي نريد أن نعرض له ليس أمراً منقطعاً عما سبق من المعالجات في إطار ما أسميناه «المشكلة الثقافية» التي نعاني من آثارها على كل المستويات ، بل لعله في صميم القضية التي نتحدث عنها ، وإن كان يشكل الوجه الآخر لها ، وقد يكون الأكثر بروزاً وإلحاحاً الآن .

وكان مما ألمحنا إليه في أكثر من مناسبة : أن العالم الإسلامي على الرغم من الكوارث والنكبات والنكسات التي حلت به تاريخياً ، وما رافقها من وسائل التدمير والهمجية ، بقي قادراً على الاحتفاظ بانتمائه للإسلام ، موقناً بأنه الطريق الوحيد للوصول إلى تحقيق الأهداف ومواجهة الاحتلال على كل الأصعدة ، وإن كان قد افتقد في بعض الأحيان التزامه بالإسلام ، فأفقده ذلك القدرة على الصمود والمواجهة العسكرية ؛ وكان هذا الانتماء دائماً مرتكز القادة والمفكرين والمصلحين ودعاة التجديد وحاملي لواء التحرير ، وما أن عاد

الإسلام للأمة ، أو عادت الأمة للإسلام بفاعلية والتزام حتى كان درعها الواقية ، وحربتها النافذة ، واستطاعت به أن تقف أمام العسكر المغولي والغزو الصليبي ـ الذي كان قادراً على أن يهزمها عسكرياً ويحتل أرضها ـ لكنه ظلّ عاجزاً عن أن يُلحق بها الانتكاسة النفسية والهزيمة الحضارية ، وكثيرة هي البلاد الإسلامية التي هُزمت سياسياً ، واحتُلت عسكرياً ، وبقي لها الإسلام علمًا وحضارة وثقافة وانتماء ، الأمر الذي مكن لها من الصمود ، وأعانها على النهوض والمواجهة من جديد . .

وكانت هذه القضية موضع دراسة وتفكير وتركيز وتحليل لاكتشاف مكامن القوة الحقيقية التي ترتكز عليها الأمة الإسلامية ، وكان لابد من إيجاد وسائل جديدة باستمرار بعد استبانة خطأ وعجز كل الوسائل السابقة ، ولقد اعترف كثير من المفكرين والباحثين في مكونات الأمم ، وأسباب نهوضها وسقوطها ، والقوانين التي تنتظم الدورات الحضارية ، أن حساباتهم لم تنطبق على الإسلام كدين له ثقافته وحضارته ، والمسلمين كأمة تنتمي له سواء التزمت به ، أو ضعف التزامها به ، ولايزال هذا الأمر محيراً ، والحسابات له تفاجأ بكثير من الخطأ ، ابتداءً من العصر الأول ، وانتهاءً بالواقع الحالي . . .

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي ذهب غاضباً لقتل أخته وصهره اللذين أسلما ، عاد من رحلته مسلمًا ، أعز الله به الإسلام ، وتحدى الشرك والمشركين . . .

طرائق جديدة للقضاء على الالتزام بالإسلام

وكثيرة هي البلاد الإسلامية التي فُرضت عليها «أيديولوجيات» معينة بقوة السلاح ، وتوهم أصحابها أنها استجابت لها عندما رأوها ساكتة لحماية نفسها من البطش والحصول على لقمة العيش ، ثم ما لبثت أن عادت لإسلامها عند أول فرصة سنحت . . . وليست حركة اليقظة الإسلامية التي انبعثت في العصر الحديث ـ بعد إسقاط الخلافة ، وإيجاد البدائل الفكرية ، والظن بأن القضية الإسلامية ذهبت إلى غير رجعة ـ إلا الشاهد الجديد على أن الحسابات الماضية عن عالم المسلمين أخطأت كلها ، وباتت عاجزة عن الوصول إلى النتائج

المرجوة ، فكان لابد من وسائل جديدة تقضي على الالتزام بالإسلام والانتماء له معاً ، وذلك بإعداد جيل عاق للإسلام ثمرة للمدرسة الاستعمارية ، وضحية للغزو الفكري . . .

ونستطيع أن نقول : إن القضية الفلسطينية بكل تطوراتها ، وصورها ، وآثارها المختلفة ، وطروحاتها الكثيرة ، والتحولات الكبرىٰ التي حكمت مساراتها هي : الساحة الأحدث التي انتهى إليها الاستعمار ، وصب فيها كل تجاربه وخبراته التاريخية ووسائله المختلفة ، وتحدياته المتعددة ، ولا شك أن هذه الساحة ، تمكن لنا ـ لو كنا على مستوى قضايانا ـ أن نستقرىء صورة أعدائنا ، ونتبين وسائلهم ، ونحدد مواقعهم ، وندرك أهدافهم . .

وقد يكون صحيحاً إلى حد بعيد ـ ونحن نعاني اليوم في كثير من قطاعات الحياة من فقدان الانتماء للإسلام والالتزام به ، ونعيش مرحلة الضياع والتمزق والتخلف ـ قد يكون صحيحاً أن الإنسان في مراحل التخلف ، ومناخ التخلف ، يصبح عاجزاً عن الإبصار والاعتبار ؛ ولكن المحقق أيضاً أن التحدي الثقافي والحضاري ، والانكسار العسكري يوقظ الحس ، ويلهب المشاعر ، ويذكي الروح ، ويعيد الانتماء ، ويدفع إلى الالتزام ، ويجمع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد .

إن القضية الفلسطينية بكل أبعادها ما تزال هي القضية المركزية للأمة العربية الإسلامية على مدى نصف قرن من الزمان ، ولعلها تعتبر من التحولات الكبرى في تاريخ المسلمين الحديث بعد إسقاط الخلافة ، إن لم تكن ثمرة لها ، ذلك أن الكثير من المعاني التي حكمت «المسألة الشرقية» وتحكمت بها تكاد تكون هي العوامل نفسها التي تحكم قضية «الشرق الأوسط» وتتحكم فيها ، مع بعض التصرف بالأسماء والمسميات ، الأمر الذي لابد منه للتحضير للقضية نفسها .

ولقد كثرت القراءات والدراسات والتعليلات والتحليلات والتقويمات لهذه القضية الخطيرة ، وسادت شعارات للتحرير ، وبادت شعارات أخرى ، ولعل كثيرين ممن يمتلكون القراءة الصحيحة والصادقة للصورة لم يدلوا بآرائهم ، واكتفوا بالقراءة الصامتة ، لأن صوتهم غير مسموع ، أو لأنه لا يسمح لهم برفع أصواتهم ، فقد أسكتها يهود بشكل أو بآخر . . . حتى أصبحت القضية

تشبه إلى حد بعيد المرض المتوضع المزمن الذي تتعدد معه الأدوية والتجارب التي تتأتى ثمرة لليأس ، ولا تكون على بصيرة . . .

والعالم العربي الإسلامي يعيش الآن أكثر من أي وقت مضى فترة التلاوم على الإفراط من بعض من تصدوا لحل القضية والتفريط من بعضهم الآخر ، وإسرائيل تخضع كل القضايا للدراسة والاختبار والتحليل ، والتعرف على واقع المنطقة وثقافاتها وإمكاناتها ، ومن ثم ترسم المدخل الصحيح للتعامل معها . . .

ومن الأمور التي أصبحت من المسلمات أن يهود درسوا ، ولا يزالون يدرسون تاريخ المنطقة وفكرها ، وموجات الغزو التي مرت عليها ، والمواقع التي يمكن أن تنطلق منها المقاومة ، ويستطلعونها ، ويتجنبون أخطاء الغزاة السابقين ، خاصة الصليبين منهم الذين احتلوا بيت المقدس ، ولم يخف يهود حقيقة هامة هي : أن مراكز المقاومة الإسلامية والمواقع الإسلامية الفكرية التي تمثل القيادة الحقيقية للأمة هي مكمن الخطر بالنسبة لهم ، فكان لابد من القضاء عليها ، وما ترافق الإصابات الإسلامية على مختلف المستويات للاحتلال اليهودي الفكري والعسكري إلا مصداق ذلك . . .

القضية وما فيها ، كما يقال : إن إسرائيل تنتهي إلى الموقف بعد استيعاب ودراسة وتحليل ودراية للصورة بجوانبها المختلفة ، وتتحين الظروف المناسبة ، وتستفيد من الدرس التاريخي والتجارب السابقة في المنطقة . . . أما نحن العرب فإننا نسارع إلى اتخاذ الموقف بعيداً عن إمكاناتنا وإمكانات عدونا ، وما نستطيع وما لانستطيع بمزيد من الانفعال والعاطفية ، ثم نبدأ بمحاولة الاستيعاب ، وذلك بدراسة أسباب الموقف وأبعاده والآثار المترتبة عليه ، وقبل الانتهاء من ذلك واختباره بشكل صحيح ينقلنا العدو إلى موقع آخر وموقف جديد لنبدأ مرة أخرى عملية التفتيش عن أسبابه ومسوغاته ومدى ملاءمته . . . وهكذا قامت سياسة إسرائيل على الأخذ بزمام المبادهة ، والقدرة على تحريكنا من موقع إلى آخر بإرادتنا تارة ، وبدفعنا إلى ذلك في كثير من الأحيان ، وهكذا يستمر التغيير في قائمة الممكن والمستحيل ابتداءً من الاحتلال وحتى هذه الساعة . . . ولعل الدراسة والتحليل يعطي العدو تقديراً مسبقاً للموقف الذي يمكن أن يكون عليه العرب ، ومدى قدرتهم على استيعابه وتمثلهم له ، وهنا يزداد حجم المأساة ، وتكبر صورة الإحباط ، ويبدأ فريق من الناس بطرح قضية الممكن والمستحيل في

التعامل مع يهود ، ويلبسونها ثوب العقلانية وبلوغ مرحلة الرقي الحضاري تارة ، وتسويغ الواقع الاحتلالي باسم الواقعية تارة أخرى . . .

وقد يظن بعضنا ، ويكون ظنه عن حسن نية ، أننا فوتنا الممكن الذي كان بمقدورنا الحصول عليه من يهود في سبيل طلب المستحيل ؛ والذي ينظر إلى تطورات القضية نظرة سريعة متعجلة قد يرى هذا الرأي ، ويذهب هذا المذهب ، إلا أن الذي يتجاوز بنظرته الصورة إلى الحقيقة ، تتبدى له حقيقة على غاية من الأهمية والخطورة ، وهي : أن إسرائيل كانت على معرفة كاملة بالموضوع من خلال قراءة ردود الفعل العربية ، ومدى قدرة العرب على استخدام إمكاناتهم ، وكانت تبني موقفها على الرفض العربي المقدر سلفاً ، ولولا هذا التقدير لتغير طرح إسرائيل للحلول أصلاً ، إنها تعتمد الرفض العربي عندما تقدم لهم لائحة الممكنات ، فإذا راجع العرب موقعهم ، وقبلوا ما كان مرفوضاً مسبقاً ، عادت إسرائيل إلى استبدال لوائح التنازلات ليصبح الممكن مستحيلاً : فما كان ممكناً في مرحلة ما غدا الآن مستحيلاً ، ولو كنا مهيئين في حينه لقبوله ، أو كانت استطلاعات الرأي عند إسرائيل تفيد بقبوله لما طرح أصلاً ، فنعيش فترة التلاوم كما قدمنا ، وتستمر مرحلة الوهن والعد التنازلي ، ويقف بعضنا ليبكي على الأطلال ، وإسرائيل ماضية في بناء أطلال جديدة للعرب ، ومستوطنات جديدة لليهود . . .

صراع ديني حضاري بحماية عسكرية

إن الغزو الإسرائيلي الذي يشكل أحدث حلقة في الغزو الاستعماري التاريخي لعالمنا الإسلامي ليس عملاً عسكرياً استيطانياً فحسب ، وإنما هو غزو فكري ثقافي ، وصراع ديني حضاري بحماية عسكرية وعنصر بشري استيطاني مزود برؤية دينية توراتية وتفوق تكنولوجي عالمي . . . من هنا فإنه يختلف عن الحملات الصليبية والغزو الاستعماري التاريخي كله الذي مر بالعالم الإسلامي .

وإن نظرة بسيطة على مناهج التعليم في الأرض المحتلة ، والصور المشوهة التي تقدمها الخطة التعليمية عن الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي ، التي تقدم

للطلبة المسلمين ، والتهويد الثقافي الذي تمارسه مؤسسات التعليم والإعلام صباح مساء . . . ترينا أن العملية أخطر بكثير من احتلال الأرض ، ذلك أن احتلال إسرائيل للنفوس هو الذي يمكنها دائماً من احتلال الأرض ، وإذا لم نستطع إخراج إسرائيل من نفوسنا ، بالقيام بعملية تنقية ومطاردة لصور التهويد في حياتنا ، فسوف لا نستطيع إخراجها من أرضنا . . .

إن عملية التهويد في الأرض المحتلة ، وحذف أية كلمة في مناهج التعليم تتعرض ليهود ، أو تتكلم عن أخلاقهم أو مواقفهم التاريخية ، والتطبيع الثقافي في الأراضي المرشحة للاحتلال هو المطلب الاسرائيلي الأول في المعاهدات والمفاوضات قبل الأمن وقبل الانسحاب . . . إنها تستعمل العسكرية وسيلة لابد منها لفتح الطريق أمام الغزو الثقافي ، ولفتح الخروق في الحياة الثقافية الإسلامية لتبدأ عملية الانهيار النفسي بعد انهيار الجدار العسكري . . .

إن إسرائيل تدرك هذا تماماً ، وتعمل له ، وتعتبره في رأس قائمة المطلوبات ، والمفاوضات التي جرت في لبنان بعد الغزو هي الصورة الأحدث حيث تقرر إسرائيل أن مسألة تطبيع العلاقات يجب أن تبحث قبل الأمن ، وقبل الانسحاب ، لأن الحكومة الإسرائيلية تعلق على ذلك أهمية بالغة وتجتمع له ، في الوقت نفسه تقدم المدرسين لتعليم اللغة العبرية في مدارس جنوبي لبنان ، وتطلب إلى أعضاء الكنيست تلقي دورساً باللغة العربية استعداداً لمرحلة ما بعد الصلح ، وتنظم لهم دورات تستمر ثلاثة أشهر ، ويؤكد وزير المعارف «زفلون هامر» في كلمته أثناء افتتاح الدورة الأولى أهمية تعلم اللغة العربية خاصة بعد توقيع معاهدات السلام ، ويقول : « إنه يأمل أن يحذو الاسرائيليون حذو أعضاء الكنيست في تعلمها . . . » .

احتــــلال عالـم الأفكـــــار

ويذهب المتخصصون من العلماء والباحثين والمفكرين والمنظرين إلى معسكرات الاعتقال (معسكر أنصار) ويبلؤ ون إجراء دراسة على الشباب الفلسطيني المعتقل لتوظيفها كمعلومات توضع في حساب المخططين للمنطقة ، وفي مقدمة الأسئلة طبعاً : رصد التوجه الإسلامي ، ورأيهم في الإسلام ومدى

اقتناعهم به ؛ أما ممارساتها في جامعات الأرض المحتلة ، والمناهج التي تعتمد تاريخ الفتن في الأمة الإسلامية فبات أمراً معروفاً . . .

إن الواقع النفسي اليوم يختلف عنه في معاركنا السابقة جميعاً ، ونحن هنا لا نريد أن نعيد ما قيل في أعقاب هزيمة عام ١٩٦٧م : من أن إسرائيل لم تحقق أهدافها من الغزو حيث احتلت الأرض ولم تحتل الإرادة ، ولم تسقط الأنظمة في ذلك الوقت !! وإنما من الأمور التي أصبحت حقيقة تاريخية أنه إذا سلم للأمة عالم أفكارها وثقافتها ، فقد سلم لها كل شيء على المدى البعيد مهما كانت الضربات موجعة ، والهزائم العسكرية منكرة ، ومهما انتقص العدو من أرضها ومالها وأشيائها ، صحيح أن الأشياء تأتي ثمرة لوجود الأفكار وحصيلة لها ، وأن عالم الثقافة والأفكار إذا كان سلبيًا معاق يحول دون انتقاص الأشياء ، وأن قدرة العدو على انتقاص الأشياء واحتلال الأرض يعني فيما يعني الخلل والضمور والغياب أو التمزق في عالم الأفكار . . . وأن الاحتلال والاستعمار لا يكون إلا بوجود القابلية له والاستعداد لاستقباله ، وأن الوسيلة الوحيدة لمواجهته إنما تكون باستشعار التحدي وإيقاظ عالم الأفكار ، وإعادة بنائه . . .

لذلك نستطيع أن نقول : **إن أعداء الأمة من يهود وغيرهم فكروا بالموقع الآخر ، وهو احتلال عالم الأفكار** . . . وقد يحال بين الأمة واستخدام قوتها في المواجهة بسبب من عجز أو تمزق أو عدم وجود قيادات قادرة على تجميع الطاقات وحسن استخدام الإمكانات ، وعدم وضعها في الزمان والمكان المناسب ، **فلا يبقى لها والحالة هذه ، إلا الاعتصام وحماية عالم أفكارها حتى تتاح لها فرصة استرداد الأرض والتخلص من آثار العدوان .**

من هنا نستطيع أن نقول : لابد أن تدرك الجماهير المسلمة ـ وقد تكون هذه التوعية مهمة القيادات الفكرية في العالم الإسلامي ـ خطر التهويد الثقافي وآثاره البعيدة على الأمة ، في الوقت الذي حيل بينها وبين المعركة ، ونجح عدوها في إبعاد الإسلام عن أرض المعركة في هذه المرحلة بالذات . . . الأمر الذي لم يعد خافياً على أحد ، **لأن استمرار العدوان مرهون بإبعاد الإسلام .**

إن مهمة الجماهير المسلمة ومسؤوليتها تتوحد الآن بإقامة الدفاعات

الفكرية ، والتحصين الثقافي ، وحماية الأمة من التذويب والذوبان ، وعزل الهزيمة العسكرية وتهميشها وتحجيمها للحيلولة دون بلوغها هدفها ومرماها بأقل قدر ممكن من الضحايا ، وفي تاريخ المسلمين الوقائع الكثيرة التي هزم فيها المسلمون عسكرياً وبقي الإسلام ثقافة وحضارة وعلماً ودرعاً واقية . .

وما تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وهي من أحدث التجارب تقريباً ، وجمعية العلماء المسلمين في الجزائر عنا ببعيد ، فلقد دخلت فرنسا الجزائر مستعمرة منصرة مفرنسة ، واستمر احتلالها أكثر من مائة وثلاثين عاماً ، تعتبر الجزائر قطعة منها وتطبق عليها القوانين الفرنسية ، ومناهج التعليم الفرنسية ، وتحاول إلغاء عروبة الجزائر وإسلامها ، وكانت المواجهة مع كتاتيب «ابن باديس» في السهول والجبال والقرى والمدن ، هي التي حمت عربية الجزائر وإسلامها بعد ستة أجيال نشأت في ظل الغزو الثقافي والاحتلال العسكري تقريباً . . . فهل ندرك الحقيقة ، ونلتزم بالإسلام ، ونستشعر المسؤولية ، ونؤدي الواجب ، ونحول دون الهزيمة النفسية ، والغزو الثقافي ، والسقوط الحضاري ؟!! . . .

[جمـــادى الأولى : ١٤٠٣هـ ـ شباط (فبراير) : ١٩٨٣م]

ألا هـــل بلــغت
اللهم اشـهـد

(... فليبلغ الشاهد الغائب ... فرب مبلغ أوعى من سامع)

[حديث شريف]

لا شك أن العبادات ، بما فيها الحج ، هي أشبه ما تكون بمحطات يتزود فيها المسلم بطاقات تضمن له ديمومة تغلب دوافع الخير على نوازع الشر ، وهي وسائل لتحقيق الخضوع والعبودية لله تعالى ، وبناء المسلم ذي السلوك المتميز الذي ينتقل بالعبادة من موقع يعاني الضعف والهبوط البشري إلى موقع صاعد في مجال السمو والارتقاء ، فهو بعد العبادة إنسان آخر ، وإذا لم يتحصل ذلك فالعبادة لم تتحقق غايتها ، ولم تؤت ثمرتها ، ولم يحسن الإنسان الانتفاع بها ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليس له منها إلا القيام والقعود ؛ ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ؛ ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . . . و ﴿... **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ... ﴾ (البقرة : ١٩٧) ؛

ولا شك أن لكل عبادة من العبادات مدلولها وأثرها في بناء الفرد المسلم وصناعة سلوكه وإلا لاكتفي بعبادة واحدة ، ولاكتفي من العبادة الواحدة بنسك واحد ، فالصلاة وقوف بين يدي الله ، واستشعار للمراقبة والمسؤولية في زحمة

الممارسات اليومية ، وما يمكن أن يكون من الغفلة والجنوح . . . والزكاة وقاية من نزعة الشح التي تتلبس نفوس الأغنياء فتحملهم على الاستغناء وكفران النعمة ، وتنتهي إلى الصراع الاجتماعي وإنهاك المجتمع ، وانعدام التكافل الاجتماعي . . . والحج معايشة لقضية التوحيد ، وترسم خطا النبوة ، وحياة في مهبط الوحي ، ولو مرة في العمر ، ونقل للتاريخ من الوراء ، من الماضي ، إلى الأمام ليصبح الحاضر المشاهد ، وتكون الممارسة العملية .

وكثيرون في عالمنا الآن الذين يحاولون ممارسة المعاناة نفسها التي عاشها الزعماء والمصلحون الذين استطاعوا تحقيق النقلة ، وتغيير المجتمعات ، وإعادة صياغة الإنسان . . . ونسمع كثيراً عن الذين يحاولون استعادة التاريخ ، وخاصة منعطفاته الكبرى ، فيصمم بعض الأوروبيين على السير في طريق الحملات الصليبية وبالوسائل نفسها ، وتتبع درب المسيح ، وتقمص الشخصيات التاريخية . . .

مسلم عصر التخلف

فالحج بالنسبة للمسلم فريضة العمر ، وهو الحياة على أرض النبوة نفسها ، وإقامة المناسك نفسها أيضاً ، والذي لا بد من الاعتراف به أن العبادات في عصور التخلف والوهن تنقلب إلى عادات ذات رسوم وأشكال تحكمها الآلية والتكرار وتنعدم فاعليتها لتصبح خالية من أي معنى ، حتى إن بعضهم صار يتساءل عن جدواها لأنه لا يشعر بأي تبدل في موقعه قبل أدائها وبعده ، أو في مواقع كثير من الذين يؤدونها . . .

كما أن القيم في عصور التخلف والوهن أيضاً تنقلب إلى شعارات تعلو بها الأصوات ، وتسقط معها الهمم ، وتخبو قدرات التغيير ، ويظن معها أن حل المشكلات يستدعي مزيداً من الصراخ والعويل والاحتجاج ، فيتوقف الفعل ويعم الانفعال ، وتحصل حالة من فقدان التوازن الديني فيستغرق الناس في صور من العبادات تشكل لهم مهارب نفسية هي أقرب إلى البدع والخرافات ، منها إلى الدين بصفائه ونقائه وعطائه وفاعليته .

وقد تزداد الأمور سوءاً ، فيمارس مسلم عصر التخلف فصل الحياة عن

الدين عملياً ، ولو لم يعترف بذلك ، فإما أن يهرب من الحياة إلى لون من العبادة والذكر يظنها البداية والنهاية ، وتتضخم عنده بعض التصورات فلا يرىٰ سواها ، وَيُقَوِّم سلوك الناس على ضوئها ، وإما أن يمارس الحياة ممارسة عادية كسائر الناس الذين لا صلة لهم بالإسلام ، ويقعد عن سائر واجباته ، ولا يختلف في معاملاته عن غيره ، ويظن أنه يكفر عن ذلك بصيام نفل ، أو بتكرار حج ، أو بمتابعة تلاوة أو حلقة ذكر ، يتساهل بحماية الثغر الذي أقامه الله عليه ، وقد يدع إتقان العمل وممارسة التفوق في الاختصاص ، وأداء حقوق الناس إلى صور من التدين يختارها هو . . .

إنه الاطمئنان الخادع ، والتدين المغشوش ، وعدم الاستشعار بالمسؤولية ، وفقدان التوازن الديني ، إن صح التعبير ، وغياب التوتر الإيماني والقلق السوي الذي يصوب المسار ، وتبدأ عملية تفسير النصوص الإسلامية والتعامل معها من خلال هذه المواقع المتخلفة ؛ ويتملك الإنسان العجب ، ألسنا نصلي كما كان الصحابة يصلون ، ونصوم كما يصومون ، ونحج كما يحجون ؟! أليس هذا هو القرآن الذي نزل على صحابة رسول الله ﷺ فصنع منهم ما صنع ؟! . .

إن القرآن هو القرآن ، لكن الفهم غير الفهم ، والاستجابة غير الاستجابة ، والتلقي غير ذاك التلقي . . . إن العلل الفكرية وإصابة عالم الأفكار لا تغني عنه بعض صور العبادة بما في ذلك تكرار الحج ، إذا لم يترافق ذلك مع عمليات الاختبار لصحة الموقع وتصويب المسار ، إنه الخلط بين حقوق الله التي تكفر بالتوبة والعبادة وحقوق الناس التي لا بد من أدائها . . وقد تكون قضية الانفلات من عصر التخلف ، وطي مرحلة التخلف ، وإلغاء مفهوم عصر التخلف ، والتلقي المباشر عن القيم والفهوم الأصيلة ، عمليةً صعبةً على إنسان هذا العصر ، لكنه الأمر الذي لا بد منه إن عاجلاً أم آجلاً . . .

إن الآيات البينات في رحلة الحج ، وأداء مناسكه كثيرة ، وكثيرة جداً ، ولا بد للمسلمين من وعيها وإدراكها ، وإن كان جهل بعض مسلمي اليوم الذين يتعلمون أحكام الحج وينسون آدابه ـ حتى يقع بعضهم في ارتكاب المحرم لاستدراك مندوب أو مستحب ـ لا يعطي الفرصة لإبصارها واستشعارها في كثير من الأحيان .

ولعل من أهم معالم رحلة الحج إلى جانب أداء المناسك العبادية ، تلك المعاني الجامعة التي خاطب بها الرسول ﷺ المسلمين في حجة الوداع ، فطلب إليهم أن يبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ... أفلا يحق لنا بهذه المناسبة أن نقوم بواجب عملية البلاغ التي جعلها الرسول ﷺ مسؤولية كل مسلم بقدر وسعه ، فنذكر المسلمين حجاجاً وغير حجاج بهذه الأمور ... ذلك أن الحج كان موسمها ، وكان الوعاء لكثير من المعاني وكثير من الأعمال التي شكلت منعطفات في تاريخ البشرية ...

معالم الحياة الإسلامية ..

في السنة التاسعة للهجرة ، حج الرسول ﷺ ، وحج معه خلق كثير ، وكانت حجة الوداع التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً** ﴾ (المائدة : ٣) ، وكان الكمال والاكتمال ، وبعد أن اكتمل البناء فإن المعاني التي ذكر بها وعرض لها الرسول ﷺ في هذه الحجة على غاية من الأهمية ، فهي المعالم الرئيسة للحياة الإسلامية التي لا بد من حراستها والتنبه لها حتى لا يتآكل المجتمع من الداخل ، والنص الذي ورد في كتب السيرة لخطبة الوداع لا يخرج بمجموعه عما يلي :

« ... إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا .. إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، فإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وأول رباً أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهم بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمته ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما ان لا تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ؛ وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد انك بلّغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس ، ويقول : اللهم اشهد ، ثلاث مرات ... » .

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها : أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، وقال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجـة ؟ فقلنا : بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسـكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليس البلد الحرام ؟ قلنا : بلى . قال : فأي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسـوله أعلم . فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه . قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ؛ وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ؛ ألا هل بلَّغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلَّغ أوعى من سـامع . . . » .

« واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، ألَا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . . . قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتـاب الله » .

إن مجموعة القضايا التي عرض لها الرسول ﷺ في هذه الخطبة ، في حجة الوداع ، تشكل المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ، والتي لا بد من حراستها وعدم السماح بخرقها والخروج عليها من الحاكم والمحكوم ، والأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد بيان أن هذه المرتكزات هي التي انتهى إليها المجتمع المسلم وتربى عليها فلا يجوز التفريط فيها . . . وتأتي أهميتها في أنها « خطبة المودع » الذي حمل الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، ورعى مسيرتها ثلاثة وعشـرين عاماً . . .

لقد اختار الرسول ﷺ هذه المعاني من خلال مسيرة النبوة الطويلة ليؤكد عليها ، وينبه لها دون سواها ، فلماذا هذه المعاني دون غيرها ؟ ذلك لأن عدم التزامها يؤدي إلى دمار المجتمع ، ولا يعوزنا الدليل ـ نحن المسلمين ـ في القرن الخامس عشر الهجري حيث نرى السقوط بأم أعيننا . . .

الأمن النفسي والاقتصادي ..

« إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . . . » ، لقد أجمع العلماء أن مقاصد الشريعة هي : تحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم ، ولا يتحقق ذلك إلا بحماية الكليات الخمس ، التي لا تستقيم الحياة ولا تتحصل السعادة إلا بتوفرها وحمايتها ، وهي : العقل والنفس والدين والعرض والمال .

ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير والتدليل بأن الدماء المسلمة التي تسيل يومياً كالأنهار ، في أكثر من بلد ، وأكثر من موقع على يد المسلمين أنفسهم ، مهما كانت الشعارات ، وكيفما كانت المسوغات ، قضية لا تخدم إلا أعداء الإسلام في نهاية المطاف « . . . لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . . . » « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار »

إن إراقة دم المسلم أكبر عند الله من هدم بيته الحرام ومن كل شيء في الدنيا « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرىء مسلم » فكيف ستكون مسؤولية الذين يتاجرون بدماء المسلمين ويأكلون بها ويقبضون ثمنها ، ويبنون ثراءهم على جماجم المسلمين ؟! وكيف سيكون حسابهم عند الله ؟!

وليست قضية الأمن الاقتصادي أقل أهمية من الأمن النفسي في المجتمع الإسلامي . . « إن ربا الجاهلية موضوع . . . »

إن العالم الإسلامي عاش ثلاثة عشر قرناً تقريباً ، بعيداً اقتصاده عن لوثة الربا ، وقادراً على مواجهة مشكلاته المالية وحلّها ، إلى أن جاء الاستعمار السياسي ، وجاء معه الاستعمار الاقتصادي ، وأصبح الربا سمة المعاملات المالية ، فأفقدنا ذلك الأمن الاقتصادي بعد أن افتقدنا الأمن النفسي . . .

أمـــــــر الجاهليـــة ..

« . . . إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي . . . » « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء . . . »

إن الجاهلية ارتكاس وهبوط ورجعية ، إنها رفض الخضوع لحكم الله عز وجل ، وسقوط في الطاغوت بكل أشكاله ، قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) إن أمر الجاهلية وظهور النزعات الإقليمية الذي بدأ ولا يزال مستمراً ، هو الذي مزّق الأمة وأنهك قواها ، إن الحدود التي وضعها المستعمر ، وفرق عندها وحدة المسلمين ، يستميت بعضنا في الدفاع عنها ، وإن النزعات الجاهلية التي نبش قبورها المستعمر . نحاول أن نهب لها الحياة ونمنحها الاستمرار !!.. والرسول ﷺ يقول : « دعوها فإنها منتنة . . . » وبعضنا يصر على الاستمساك بها !!!

إن التراجع الإسلامي عودة إلى الجاهلية ، وإن الجاهلية جاهزة للانقضاض في كل لحظة ضعف إسلامية ، إنها حاولت الانقضاض في غزوة بني المصطلق ، والرسول ﷺ يرعى المسيرة « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ » وأطلت القيسية واليمنية برأسها على الصورة الإسلامية بشكل مبكر ، ومبكر جداً ، والخطورة كل الخطورة الآن أن نفصِّل الأثواب الإسلامية لنلبسها لأمور الجاهلية الحديثة ، فنمارس الجاهلية تحت عناوين وشعارات إسلامية !!.

إن مساحة الجاهلية في حياة الإنسان المسلم تتسع وتضيق بقدر ما يوفقه الله للرؤ ية الإسلامية والانضباط بها ، وإن سقوط الإنسان في بعض أمور الجاهلية لا يعني أن نسلب عنه إسلامه ، كما يحلو لبعضهم ، من الذين يمارسون إشاعة هذا المصطلح ويحاولون تعميمه ، ذلك أن التعميم لون من العامية في الرؤ ية ، فالرسول ﷺ قال لأبي ذرّ عندما عيَّر بلالاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » إن سلوك التعيير هذا ينتسب إلى الجاهلية ، ولا يعني بحال من الأحوال سلب أبي ذر رضي الله عنه فضله وإسلامه وجهاده . . . فهل يكون موسم الحج ونداء حجة الوداع فرصـة لمطاردة الجاهلية في نفوسنا ، وتخليص مجتمعنا الإسلامي من

بعض مفهوماتها وأمورها بالحكمة والموعظة الحسنة ؟! ذلك أن فقدان الحكمة في الموضوع قد يؤدي إلى تكريسها واستغلالها .

النقـــل الثقافـــي ..

« . . . فليبلغ الشاهد الغائب . . فرب مبلغ أوعىٰ من سامع . . . »

إنها مسؤولية البلاغ المبين التي لا تخرج هنا عن مسؤولية التحمل ومن ثم مسؤولية الأداء ، لقد اعتبر الرسول ﷺ غاية مهمته : البلاغ ، فقال : « ألاَ هل بلّغت ؟ اللهم اشهد » وبذلك يكون الرسول شهيداً على المسلمين ، ويكون المسلمون شهداء على الناس ، يوصلون إليهم هذا الدين ، ويطورون وسائلهم في نقل حقائقه لإنقاذ الناس من الجاهلية . . .

وهنا قضية تلفت النظر « رب مبلغ أوعىٰ من سامع » فعملية الحفظ وسلامة النقل لا تعني بالضرورة : القدرة على الفهم والوعي والإدراك لمدلولات الخطاب ، فليست القضية قضية حفظ فقط ، قد يكون صاحبها نسخة من كتاب ، وإنما القضية قضية الفقه والوعي والدراية ، وهي قضية على غاية من الأهمية لعالم المسلمين اليوم ، ذلك أن بعض الناس اليوم كالأرض التي تمسك الماء لكنها لا تنبت الكلأ . . . إن مسؤولية وأمانة النقل الثقافي « عملية البلاغ المبين » ومسؤولية الوعي والقدرة على فهم السنن وإمكانية التعامل معها هي مشكلة المسلمين الثقافية اليوم . . . فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعىٰ من سامع . . .

إنها المعاني التي شهدها الصحابة الحجاج في مكة في العام التاسع للهجرة ، وحُمِّلوا مسؤولية نقلها إلى العالم ليكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول شهيداً عليهم ، إنها المسؤولية المحددة والمهمة الدائمة للمسلم في مجال عالم الأفكار والوعي الثقافي ، المسؤولية المحددة تقابلها الحيدة المهلكة المدمرة لبعض مسلمي اليوم في القعود عن مهمة البلاغ المبين وامتشاق وسائل أخرىٰ والسير في طرق وعرة شائكة . . .

شاهد إدانة ..

« . . . إن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا العبَّاس بن عبد المطلب ، إن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث . . . »

لقد جاء الإسلام بأنموذج للحكم والحاكم متفرد ، في الوقت الذي كان الحكام فيه يمثلون ظل الله على الأرض !! وكانوا يُعبدون من دون الله ، حيث كان تأليه الحاكم من المسلّمات . . .

إن الشخصية الحضارية الإسلامية لها مقومات في مجال الحكم ومواصفات في اختيار الحاكم وصفاته ، ولها تاريخ مشهود في التطبيق والممارسة ، وسوف تبقى هذه الشخصية التاريخية شاهد إدانة على الممارسات القمعية والاستعلاء بالسلطان التي يعاني منها عالم اليوم ، إنه المقياس الذي ينتظم الحاكم قبل المحكوم « . . . إن أول ربا أبدأ بوضعه ربا عمي العباس . . . وإن أول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث . . . » إنها قيم السماء التي لا بد للبشر من وضعها موضع التنفيذ والالتزام ، يتعاون على إنفاذها الحاكم والمحكوم ، إن إنسان الإسلام الذي يرى في تاريخه هذه النماذج يصعب عليه أن يرضى بما هو دونها وسوف يبذل جهده لاستردادها والعمل لها . . .

تقوى الله في النساء ..

« . . . اتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . . . »

مما لا شك فيه أن قضية المرأة ، وموقع المرأة في الحياة الإسلامية ، وخاصة في عهود التخلف ، تحكم فيها أكثر من عامل ، واختلطت فيها المفاهيم ، والتبست العادات السائدة في بعض المجتمعات الإسلامية ، بالأحكام الشرعية حتى لنكاد نقول : إن كثيراً من العادات قد ألبست الثوب الإسلامي واعتبرت من الدين ، أو اعتبرت ديناً لدرجة غابت معها الصورة العملية للمرأة المسلمة ، وعلى الرغم من العنوان الإسلامي لكثير من الأسر إلا أن الثقافة الجاهلية تضغط على تصرفاتنا تجاه المرأة بين التسييب المطلق والتشديد الذي قد يفقدها إنسانيتها ،

الأمر الذي ينأى عنه دين الله عز وجل ويأباه شرعه . . .

ولا شك أيضاً أننا أوتينا من قبل المرأة ، وغزينا من طريق الأسرة ، وأقمنا المعارك لحماية حدودها والحيلولة دون اقتحامها ، لكننا عدنا إلى الأسرة المسلمة فلم نجدها ، لم نجد المرأة المسلمة فعلاً ، والطفل المسلم والتربية الإسلامية والممارسة الإسلامية .

وكثير منا تأبى عليه نفسه وثقافته أن يعطي المرأة المسلمة دورها في الحياة الذي مارسته زمن الرسول ﷺ من التعليم والرواية والمبايعة والمشاركة في الجهاد ومعرفة الحياة ، وإلا فكيف يمكن لها أن تقوم بدورها وتؤدي رسالتها ، وتعد أطفالها لعصر لا تدرك طبيعته ولا تعرف مشكلاته ، ولا تشارك في قضاياه ؟! وهناك حقيقة تغيب عن بالنا في ظل التقاليد والعادات التي أصبحت من الدين ، وهي أن الأكرم في الإسلام : الأتقى ؛ فليس الأكرم : الذكر ، وليس الأكرم : الأنثى ، وإنما الأكرم : الأتقى ؛ وإن خطاب التكليف جاء للرجل وللمرأة على حد سواء ، وإن المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية العامة ليست محل نظر وبعدها يبقى لكل اختصاصه في مجال الحياة ، وبالتالي لا يمكن المقايسة وطرح قضية المساواة بين اختصاصين متباينين ، فالمرأة في اختصاصها أفضل من الرجل في اختصاصها ومقدمة عليه ، والرجل في اختصاصه أفضل من المرأة في اختصاصه ومقدّم عليها ، أما في مجال الحقوق الإنسانية فهم سواء ، ولكل جزاؤه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَــةً ... ﴾ (النحل : ٩٧) والقوامة التي شرعها الله ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَىٰ النِّساءِ ... ﴾ إنما هي للإشراف والإدارة في البنية الاجتماعية الأولى التي لا يمكن أن تترك تأكلها الفوضى ، وليست للتشريف والتعالي ، فلا بد من تفكيك الصورة الموروثة واختبارها وتنقيتها مما لحق بها لنرى صورة المرأة المسلمة خالية من كل غبش ، ونستجيب لنداء الرسول ﷺ في حجــة الوداع : « . . . اتقوا الله في النســاء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . . . » .

الاعتصـــــام بالكتـــاب ..

« ... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ... »

لا حاجة إلى القول : إن القرآن الكريم كتاب الله ، وإن الذي خلق الإنسان أعلم بما يحقق سعادته ويحميه من الضياع والضنك ، إنها القيم الثابتة البعيدة عن وضع البشر وتحكم الأهواء وتحقيق السيطرة والاستغلال ، وتحقيق مصلحة لطبقة أو فئة أو طائفة أو فرد ... ذلك أن معظم الشر في العالم مردّه تسلط الإنسان على الإنسان ولا بد لإيقاف هذا التسلط من أن تستمد القيم من الله الخالق وليس من بعض مخلوقاته .

إن كثيراً من القيم الوضعية في عالمنا المعاصر أشبه بدمىٰ الأطفال ، يحكمها الناس ويشكلونها على الصورة التي يختارونها ، وتبقى محل نزاع وخصام ، يفرضها الأقوياء ويتوهمون أنها تحقق مصالحهم ، وما أسهل ما يغيرونها ويبدلونها تبعاً لأهوائهم ، وتبقى عاجزة عن حكم الناس ، ويبقى أصحابها عاجزين عن تحقيق الاحترام لها والالتزام بها من بقية الناس ؛ ذلك أن الالتزام بها يبقى طاعة للمخلوق ، أما كتاب الله ، فهو القيم الثابتة التي تحكم الناس ولا يحكمها الناس ، يخف الإنسان للالتزام بها بوازع لا يمكن أن يتحقق لغيرها ، فالطاعة لله الخالق العليم المحاسب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ... وفي الاعتصام بالكتاب عصمة من الخطأ ، وأمن من الضلال ، والشاهد التاريخي : إن التزام العرب المسلمين واعتصامهم بالقرآن الكريم كان سبيل وحدتهم وحضارتهم ، وإن الحيدة عنه كانت سبب فشلهم وتخلفهم وفرقتهم ، والواقع يشهد بذلك أيضاً ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ... ﴾ (الأنفال : ٤٦) لقد اعتبرت الآيات أن العدول عن طاعة الله ورسوله موقع في النزاع ، لتعدد الأهواء والآراء ...

وبعد : فإنه نداء خطبة الوداع نوجهه لعالم المسلمين اليوم ليبلغ الشاهد منهم الغائب ، فلعله يحقق المراجعة المطلوبة ، والاستقامة على الطريق ، والاستجابة لنداء سيد المرسلين ﷺ ...

[ذو الحجة ١٤٠٣هـ ـ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٣م]

الفهـــــــــــــــــرس

الموضـــــوع	الصفحة
تقديم بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالي	٧
المقدمـــة	١٢
الالتزام بالمنهج ضرورة لسلامة الطريق	١٦
دعوة للمراجعة وتجديد الانتماء	٢٤
تاملات في مسيرة العمل الإسلامي (١)	٣٢
تاملات في مسيرة العمل الإسلامي (٢)	٤٢
حتى نكون على مستوى المسؤولية	٥٢
التراجع إلى مواقع الفكر الدفاعي	٦١
مواقف في غزوة الأحزاب	٧١
المسلم ومسؤولية البلاغ المبين	٨٠
والفتنة اكبر من القتل	٩٠
العربية وثقافة المترجمات	١٠٠
هوامش حول تطبيق الشريعة الإسلامية	١٠٩
مفهومات بحاجة إلى مراجعة	١١٩
الهجرة وحركة الانسحاب من المجتمع	١٢٨
مواقف في مواجهة الهزيمة	١٣٧
ما اشبه الليلة بالبارحة	١٤٦
الرؤية الدينية التوراتية والمواجهة الصادقة	١٥٥
رمضان شهر القرآن	١٦٤
قراءة في ثلاث اوراق تاريخية	١٧٣
حتى لانُهزم حضارياً	١٨٣
ألا هلْ بلّغت ... اللهم اشهد	١٩١

كتاب الأمة

Al Ummah

هاتف :	٤١١٢٠٠
تلكس :	٤٩٩٩ الأمة د ه
برقيا :	الأمة الدوحة
ص.ب :	٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

قطر	٥ ريالات
السعودية	٥ ريالات
الامارات	٥ دراهم
عمان	٥٠٠ بيسة
البحرين	٥٠٠ فلس
الكويت	٥٠٠ فلس
العراق	٥٠٠ فلس
اليمن الشمالي	٥٠٠ فلس
اليمن الجنوبي	٥٠٠ فلس
الاردن	٥٠٠ فلس
سورية	٥٠٠ قرش
لبنان	٥٠٠ قرش
مصر	٥٠٠ مليم
ليبيا	٥٠٠ درهم
السودان	٥٠٠ مليم
تونس	٥٠٠ مليم
الجزائر	٥ دنانير
المغرب	٥ دراهم

في باقي دول آسيا وافريقيا دولار امريكي ونصف أو ما يعادله .

في الأمريكتين وأوربا واستراليا وباقي دول العالم دولاران امريكيان او ما يعادلهما .

يطلب من وكلاء توزيع مجلة الأمة

الأمة

Al Ummah

اسلامية . شهرية . جامعة

- قراءة إسلامية للمشكلات الثقافية والحضارية المعاصرة .
- ترشيد الطاقات الإسلامية .
- مواكبة التطور على هدي من تعاليم الإسلام .
- تحقيقات علمية واستطلاعات مصورة
- تلتقي فيها مع كبار المفكرين والكتاب .

• مجلة المسلمين في العالم .

• مليون قارئ يتابعونها شهريا .

• مائة صفحة بالألوان .

• تصدر في غرة كل شهر عربي .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٢٢٢/١٩٨٤م

مطابع الدوحة الحديثة

■ قد يكون صحيحاً أن الإنسان في مراحل التخلف ومناخ التخلف يصبح عاجزاً عن الإبصار والاعتبار، ولكن من المحقق أيضاً أن التحدي الثقافي والحضاري والانكسار العسكري يوقظ الحس ويلهب المشاعر ويذكي الروح ويجدِّد الانتماء ويدفع إلى الالتزام ويجمِّع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد ...

■ حينما ندعو إلى تحديد موقع العمل الإسلامي الفاعل من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة: فإن ذلك لايعني - بحال من الأحوال - عملية تقطيع للإسلام ووقوع في النظرة الجزئية التي تؤدي إلى النمو غير الطبيعي في بعض أطراف الجسم الإسلامي. وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً هو أننا ونحن نعيش الإسلام في الموقع المتاح لنؤدي مسؤوليتنا كاملة، لانعدم القدرة على إبصار الساحة الشاملة التي يجب أن يملأها الإسلام وأن يرتادها العاملون والدعاة إلى الله..

■ لقد كان الأولى بالذين يخافون ويخوفون من تطبيق أحكام الشريعة - تحت عنوان الغيرة على الإسلام، أو مصالح الناس، أو حماية الأقليات التي ما طبقت الشريعة إلا وضمنت لهم العدل والمساواة - أن ينكروا ويستنكروا الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، والأنظمة الجبرية والأحكام الاستثنائية وقوانين الطوارىء، التي تطبق في كثير من بلدان العالم الإسلامي، حيث تلغى إنسانية الإنسان وتطارد الحرية وتصادر باسم مواجهة المحتل واسترداد الأرض. الأمر الذي أضاع الحرية والأرض معاً..

■ مهما ارتفعت أصواتنا في استدعاء «صلاح الدين» جديد، واشتدت معارك الشعارات على أرضنا، فلا سبيل إلى التحرير واسترداد بيت المقدس دون إعداد جيل التحرير.. الوليد الشرعي لعقيدة الأمة ووجودها التاريخي..

عمر عبيد حسنه

● ولد في سورية ١٩٣٥م.
● مدير تحرير مجلة «الأمة».
● شارك في تحرير وإدارة مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية من عام ١٩٦٦م إلى عام ١٩٨٠م.
● حصل على الإجازة في الشريعة من جامعة دمشق.
● له وجهة نظر في أساليب العمل الإسلامي المعاصر ووسائل الدعوة إلى الله.
● يرى أن فلسفة التسويغ وعدم نقد الذات، وتوقف المناصحة وتعطيل الحوار لايقتصر على تكريس الأخطاء ونموها، وإنما يؤدي إلى تكرارها...

Bibliotheca Alexandrina
0331507

مطابع الدوحة الحديثة